

من الفرات إلى الجندل الرابع

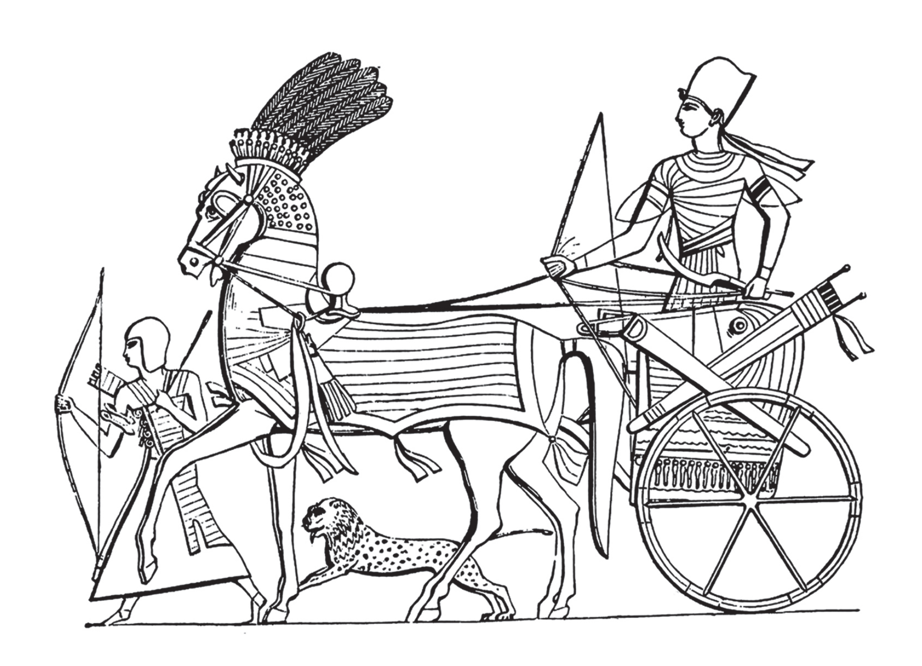
دراسة تاريخية للفكر الإستراتيجي والمجد العسكري المصري خلال عصر الإمبراطورية المصرية (١٥٥٠ - ١٠٦٩ ق م)

د. محمد رأفت عباس



من الفرات إلى الجندل الرابع

دراسة تاريخية للفكر الإستراتيجي والمجد العسكري المصري خلال عصر الإمبراطورية المصرية (١٥٥٠ - ١٠٦٩ ق.م)



د.محمد رأفت عباس

دار نشر


www.russiannewsar.com

الناشر

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
د. حسين الشافعى
secertary_ert@yahoo.com

المراسلات

114 ش جوزيف تيتو - برج رقم (2) الدور
الثالث - النزهة الجديدة - القاهرة -
جمهورية مصر العربية.
Tel. & Fax: +(202) 219 271 57 & 58

الإخراج الفني/ أحمد عثمان

الغلاف / د. أحمد رأفت عباس

الطباعة
دار الطباعة المتميزة
مدينة العبور – القاهرة
Tel. : + (202) 448 72 716

الطبعة الأولى 2018

رقم الإيداع
1857/2018

بالتعاون مع


المؤسسة المصرية الروسية
للثقافة والعلوم

Совместно с

Египетско-российским
фондом культуры и наук
www.a-rfcs.org

من الفـرات إلى الجنـدل الرابع

دراسة تاريخية للفكر الإستراتيجى والمجد العسكرى المصرى خلال عصر الإمبراطورية المصرية (١٥٥٠ ـ ١٠٦٩ ق.م)

دكتــور

محمد رأفــت عبـاس

دار نشر



www.russiannewsar.com

بسـم الله الرحمـن الرحيـم

" وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما "

صـدق الله العظيــم

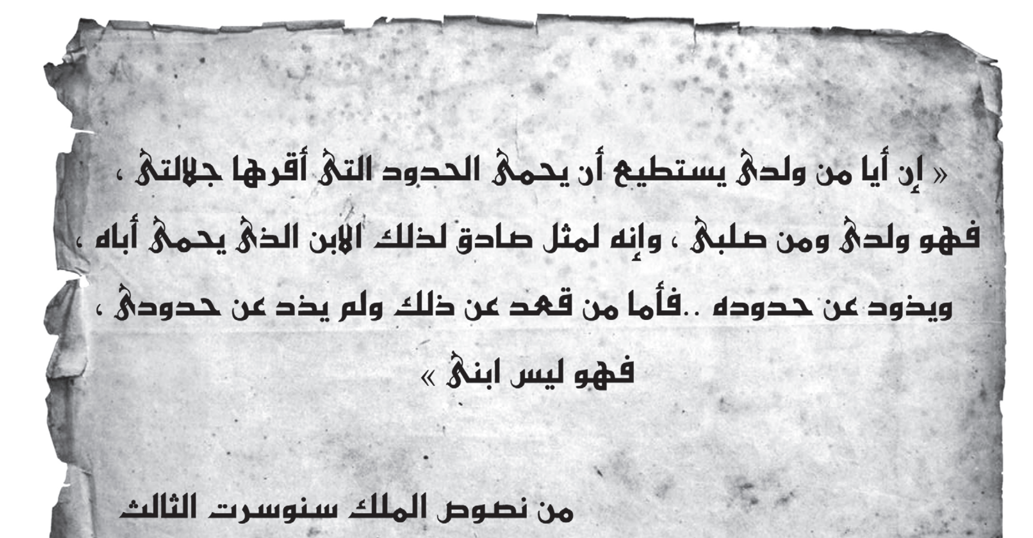
سـورة النساء – آية ١١٣

إهــــــــــــداء

إلى كل محارب مصرى ناضل وجاهد – ويناضل ويجاهد- فى سبيل الحفاظ على حدود مصر المقدسة عبر التاريخ ..

محمد رأفت عباس

يناير ٢٠١٨


« إن أيا من ولدي يستطيع أن يحمي الحدود التي أقرها جلالتي ،
فهو ولدي ومن صلبي ، وإنه لمثل صادق لذلك الابن الذي يحمي أباه ،
ويذود عن حدوده ..فأما من قعد عن ذلك ولم يذد عن حدودي ،
فهو ليس ابني »

من نصوص الملك سنوسرت الثالث
الأسرة الثانية عشرة



فهـرس المحتويـات

الموضــوع	الصفحــة

الموضــوع	الصفحــة

الموضــوع	الصفحــة

تمهيـــد

تمهيـــد

مصر .. هذه الأمة العظيمة والأرض الطيبة والتى بذغ معها فجر التاريخ وبدأت معها معالم الحضارة والمدنيـة فـى هـذا العـالم .. مصـر .. التـى قـدر لهـا أن تكـون أول أمـة تحمـل رسـالة حضارية تاريخية خالدة ، والتى كانت ولا تزال قبلة الأمم التى يؤخذ منها أصول الحكمة ومنابع المعرفة .. مصر .. التى اعتبرها المؤرخون محور أحداث التاريخ منذ نشأته والتى ارتبط مصير الشرق كله بها عبر العصور المختلفة ، والتى لا يمكن أن تعبر عن عظمتها الكلمات بل ومئات المؤلفات ، والتى أنحنى أمام مجدها وشموخها أعظم الدول والإمبراطوريات !

لقد حبى الله مصر بكم مهول من الموارد الطبيعية الثرية ، والتى تمثلت فى شمس ساطعة ، ونهر طيب قامت على ضفافه أول حضارة زراعيـة مستقرة فـى التـاريخ ، ومـوارد معدنيـة متنوعة ، وكافة المصادر الطبيعية الأخرى ، التى أتاحت للمصريين التفرغ لبناء حضارتهم فى سـلام وطمأنينـة .. وقـد اتسـمت هـذه الطبيعـة المصـرية بالهـدوء والاسـتقرار ، فلـم يعـرف المصريون الفيضانات المدمرة أو العواصف والأعاصير كتلك التى كانت تشهدها حضارات بلاد ما بين النهرين فى العراق القديم ، والتى تركت أثرها العنيف فى سلوك وفكر السكان هنـاك .. كمـا أحيطت مصر بصحراوات واسعة شرقاً وغربـاً وبجنـادل النيل جنوبـاً ، الأمـر الـذى منـع تعرضها لأى نوع من الغزوات أو الهجمات الخطيرة ، التى كان من الممكن أن تتسبب فى تهديد أمنها وحضارتها خلال العصور والمراحل الأولى من تاريخها .. ومن ثم فإنـه لـم يكـن غريبـاً أن تتسم شخصية المصرى القديم منذ فجر تاريخه بالسماحة والسلم والعمل على البناء والتشييد ، وكراهية الحرب والدمار والصراع.

وفى حوالى عام ٣٢٠٠ ق. م تكونت بمصر أول دولة ذات حكومة مركزية فى التاريخ ، وقد تم هذا فى أعقاب نجاح ملوك مصر العليا (الصعيد) فى توحيد البلاد بعد انتصارهم على مملكة مصر السفلى (الدلتا) بعد سنوات طويلـة مـن الحـروب والصـراع التـى قامـت بـين مملكتـى الجنوب والشمال ، والتى تمكن ملوك الجنوب فيها من تحقيق انتصارهم التاريخى الحاسم علـى يد الملك " نعرمر " أو " مينا " الأسطورى ، لتصبح مصر بعدهـا أمـة موحدة ودولة ذات كيـان

واحد ، أتخذت من مدينـة منف أول عاصمة لها .. ومما لا شك فيه أن هذا الحدث التـاريخى الفريد قد كان له شأن عظيم لا فى تاريخ مصر وحدها بل فى تاريخ العالم القديم كله ، فقد بدأت مصر مرحلة جديدة فى تاريخها عرفت باسم عصور الأسرات الوطنية وأصبح ملوك الوحدة هم رأس الأسرة المصرية الأولى ، كما سبقت مصر العالم فى معرفتها لمفهوم الدولة المركزية وما يتبع هذه الدولة من مؤسسات مختلفة تستطيع الحفاظ على هذا الكيان السياسى ، وأصبح منذ ذلك الحين ملوك مصر هم الرمز الخالد لمركزية وقوة هذه الدولـة وهذه الوحدة السياسـية بين الجنوب (الصعيد) والشمال (الدلتا) ، والتى نظر المصريين إليها على أنـه الأساس الصلب فى بقاء أمتهم ، حيث دلت الألقاب والنعوت الملكيـة وكذلك مسميات المؤسسات الحكوميـة المختلفة المؤكدة على وحدة شطرى الجنوب والشمال والدمج بينهما – منذ عهد مبكر – على هذا الفكر القومى والسياسى لدى المصريين ، والذى كان يعتمد على المركزيـة الشديدة فى تكوينه السياسى وجعل كافة السلطات فى يد الفرعون الحاكم.

ومنذ فترة مبكرة من تاريخهم نظر المصريون نظرة حذرة ومتربصة تجاه الشعوب الأجنبيـة المحيطة بهم فى الشرق والجنوب والغرب والتى كان من الممكن أن تسبب تهديداً حقيقياً لأمن وحدود مصر ، فظهر لديهم مصطلح " الأقواس التسعة " الذى كان يشير إلى الأعداء التقليديين للدولة المصرية ، وقد تغيرت الشعوب والأمم المنتمية لهذا المصطلح عبر العصور المختلفة من تاريخ مصر القديمة وفقاً لتغير أعداء مصر من فترة لأخرى ، وإن ظل النوبيين (سكان الجنوب) والأسيويين (سكان الشرق) ثابتين دائماً ضمن هذه الشعوب المعاديـة .. ولعل أول تجسيد للأقواس التسعة قد مثل من خلال تمثال " جسر " (زوسر) الشهير من الأسرة الثالثة ، حيث وضعت قدمه على مناظر تمثل شعوب الأقواس التسعة .. ومن ثم فإنـه يبدو أن نظرة المصريين القدماء الثاقبة لأمنهم القومى ورؤيتهم الحذرة لكل الشعوب التى من الممكن أن تهدد سلامة واستقرار وبقاء دولتهم قد ظهر منذ فترة مبكرة فى تاريخ الدولـة المصرية ، وأنـه قد أصبح بمثابة عقيدة سياسية راسخة ومتوارثة لديهم جعلتهم على دراية واسعة بما قد ينتظر هذه الدولة من صراعات وتحديات من أجل البقاء والوجود.

وخلال عصر الأسرة السادسة بدأت تظهر بواكير أول جيش نظامى فى مصر القديمـة ، فمن خلال نص الموظف « ونى » الذى قاد عدة حملات عسكرية فى غربى آسيا خلال عهد الملك « ببى الأول » (٢٣٢١ – ٢٢٨٧ ق. م) ، تجلت سياسة الدولـة المصرية التى اعتمدت على جمع الجيوش من عشرات الآلاف من المجندين ، من أسوان وحتى أطفيح ، ومن النـوبيين والليبيين ومن الدلتا ، وذلك لمواجهة البدو القاطنين على حدود مصر الشرقية الذين قاموا بإحدى غاراتهم على الدلتا. ولما كانوا أكثر من أن تستطيع فرق المقاطعات الواقعة على الحدود مواجهتهم ، فقد قرر الملك « ببى الأول » استدعاء جميع الفرق العسكرية لتعمل تحت إمرة أحد كبار رجال عهده وهو « ونـى » ، الذى نجح فى قيادة الجيش المصرى وحقق النصر على الأسيويين .. ومن خلال نص « ونى » المسجل على لوحته التى كانت قائمة فى مقبرته بأبيدوس والتى قد نقلت إلى المتحف المصرى بالقاهرة ، يروى هذا القائد أخبار حملتـه العسكرية قـائلاً : « حارب جلالته سكان الرمال الأسيويين ، وقد حشد جيشًا مؤلفًا من عشرات الآلاف من الجند من مصر العليا والسفلى ، وقد عيننى جلالته قائدًا لهذا الجيش ». ويستمر « ونـى » فى سرد أحداث الحملـة وتفاصيلها ، ثم يذكر بعض السلوك الحضـارى للجيش المصرى فيقول : « لم يتشاجر أحد منهم مع غيره ، ولم ينهب أحد خبزًا من أيـة مدينـة ، ولـم يستول أحد على عنزة واحدة » .. ويتضمن نص « ونى » أنشودة النصر التى كانت ترددها الجيوش المصرية ، وهى عائدة إلى أرض الوطن منتصرة حيث نقرأ : « عاد هذا الجيش فى سلام ، وقد مزق ساكنى الرمال .. عاد هذا الجيش فى سلام ، وقد دمر حصون الأعداء .. عاد هذا الجيش فى سلام ، وقد أشعل النار فى أرض عدوه .. عاد هذا الجيش فى سلام ، وقد قتل عشرات الآلاف من جنود الأعداء .. عاد هذا الجيش فى سلام ، وقد أسر آلاف الجنود » .. ويرى بعض المؤرخين أن تقرير « ونى » لم يخلُ من المبالغة فى تصوير كثافة جيوشه ، وحين ادعى أن جنوده لم يحيدوا عن جادة الصواب فى كل كبيرة وصغيرة ، ولكنه لم يخل من دلالات تاريخيـة صرفة ، منهـا أن المصريين قد تعودوا خلال عصر الدولة القديمة على أن يجندوا قطاعًا واسعًا من إمكانات البلاد لأغراض الدفاع والهجوم ، كلما آن أوانها ، ومنها أنهم اطمأنوا إلى إخلاص بعض النـوبيين والليبيين واستعانوا بهم فى جيوشهم ، ومنها أن رجال الدين كان لهم دور فى الحروب ، وربما كانوا يثيرون حماس الجنود ، ويذكرونهم بالأرباب والولاء للحاكم ، والحرص على تقاليد الدين.

وخـلال عصـر الانتقـال الأول (٢١٨١ – ٢٠٥٥ ق.م) شـهدت مصـر حالـة مـن الانقسـام والحرب أهلية بين الأقاليم المصرية ، الأمر الذى ترك أثره العميق وصداه الواسع فى الأدلة الأثرية والنصية التى وصلت إلينا من هذا العصر ، فقد برز الحديث عن الحرب الأهلية بين إقليمى طيبة وإهناسيا من خلال أحد التعاليم والنصوص التاريخية الشهيرة التى نسبت إلى أحد الملوك الإهناسيين ، بجانب الحث على بث الروح الحربية وتجنيد الشباب فى الخدمة العسكرية التى وردت على لسان هذا الملك .. كما صورت مناظر الحصار واقتحام الحصون على جدران مقابر بعض حكام الأقاليم ، مما يشير إلى طبيعة الروح العسكرية التى بدأت تسود مصر آنذاك ، بعد أن علا صوت القتال وساد منطق الحرب فوق كل شىء .. وقد أنتهى الصراع بانتصار الطيبيين بقيادة ملكهم " منتوحتب نب حبت رع " ، الذى استطاع هزيمة البيت المالك فى إهناسيا ، وإعادة الوحدة إلى ربوع مصر مرة أخرى بعد تلك الحرب الأهلية المريرة التى خاضتها لسنوات طوال ، وبدأ ذلك الفرعون المنتصر حقبة جديدة فى تاريخ مصر عرفت باسم عصر الدولة الوسطى.

ومع بداية مصر لعهد جديد فى تاريخها خلال عصر الدولة الوسطى (٢٠٥٥ – ١٦٥٠ ق. م) ، اتسم بالوحدة والتقدم والازدهار ، شهد هذا العصر قيام المصريين بحملات حربية هامة فى تاريخهم على بلاد النوبة ، تمكنت من فرض النفوذ السياسى والحربى للدولة المصرية هناك حتى منطقة الجندل الثانى ، وذلك على يد الملك " منتوحتب الثانى (نب حبت رع) " من الأسرة الحادية عشرة ، والملوك " أمنمحات الأول " و" سنوسرت الأول " و" سنوسرت الثالث " من الأسرة الثانية عشرة .. وتعد الحملات الأربعة التى قام بها الجيش المصرى تحت قيادة الملك المحارب " سنوسرت الثالث " (١٨٧٤ – ١٨٥٥ق. م) – الذى يعد أحد أشهر القادة العسكريين فى مصر القديمة – على بلاد النوبة بمثابة علامة تاريخية فاصلة فى تاريخ العسكرية المصرية ، وقد قام بتخليد ذكراها من خلال لوحة عند حصن سمنة الواقعة جنوب الجندل الثانى .. ولقد سجل " سنوسرت الثالث " من خلال لوحة سمنة الشهيرة تلك العبارة التاريخية الخالدة التى تجلت من خلالها رؤية وعقيدة ملوك مصر تجاه حدودهم التى اعتبروها بمثابة قدس أقداس الدولة المصرية فقال : " إن أيا من ولدى يستطيع أن يحمى

الحدود التى أقرها جلالتى ، فهو ولدى ومن صلبى ، وإنـه لمثل صادق لذلك الابن الذى يحمى أباه ، ويذود عن حدوده .. فأما من قعد عن ذلك ولم يذد عن حدودى ، فهو ليس ابنى » .. وبغض النظر عن الانتصارات الحربية والتوسع العسكرى الذى حققه المصريون فى بلاد النوبة جنوباً خلال عصر الدولة الوسطى ، فإن هذا الأمر لم يكن السمة الحربية الأبرز خلال تلك الحقبة ، بل تمثلت السمة الأبرز فى براعة المصريين فى تشييد مجموعات من الحصون الاستراتيجية الهامة فى بلاد النوبة ، فى مناطق بوهن وأسكوت وشالفاك وأورونارتى وسمنة وقمنة ، والتى كان للملك « سنوسرت الثالث » – أعظم الملوك المحاربين فى الأسرة الثانية عشرة – الفضل الأكبر فى تشييد معظمها ، حيث كان هذا الانجاز المعمارى والعسكرى علامة بارزة فى التاريخ العسكرى المصرى وفى تاريخ العمارة العسكرية فى العالم القديم.

ومع سقوط ونهاية الدولة الوسطى تعرضت مصر وحضارتها لمحنة كبرى وقاسية ، حيث وقعت خلال عصر الانتقال الثانى كفريسة للغزاة المتبربرين الهمج من الهكسوس الذين اجتاحوا مصر من حدودها الشمالية الشرقية ، فكانت المرة الأولى فى تاريخ مصر التى تتعرض فيها للاحتلال الأجنبى على يد هؤلاء الغزاة الأسيويين المتبربرين ، الذين أذلوا مصر وشعبها كما وصفتهم النصوص المصرية. وكان ذلك الأمر بمثابة صدمة وضربة كبرى حلت بمصر وبحضارتها الرفيعة ، ووجدت مصر نفسها أمة محتلة تحت نير الذل والهوان ، وهى تلك الأمة الشامخة العظيمة الحضارة المعتزة بنفسها وبحضارتها وبقيمها ، والتى يسعى الجميع إليها لينهل من معين حضارتها تلك. ومن ثم فقد أدرك المصريون وقتها ما للقوة الحربية من أهمية كبرى وبالغة فى سبيل تحقيق الأمن والأمان والاستقرار ، وكان ذلك الغزو البربرى القادم من آسيا درساً قاسياً ليدرك المصريين أن حضارتهم ودولتهم وأمتهم لن يكون لها وجود إلا من خلال توافر القوة العسكرية اللازمة لحماية أمنهم ومنجزاتهم الحضارية. فقد كان لهزيمة المصريين الحربية أمام الهكسوس أثر نفسى عميق وكبير فى الشخصية المصرية ، خاصة إذا علمنا أن الهكسوس كانوا من الشعوب المحاربة الشرسة بالفطرة ، فجاء التحول الكبير والحاسم فى شخصية المصرى القديم ، الذى تحول من شخص مسالم منشغل بالاستقرار والزراعة والتشييد على ضفاف النيل إلى جندى محارب شديد البأس والقوة ، استطاع فرض قوته وسطوته العسكرية والقتالية على سائر شعوب وأمم العالم القديم.

كان بـديهياً أن يدرك المصريون أن التخلص من نير الاحتلال الأسيوى لن يـأتى الا بـإرادة شعبية عظمى وقوة عسكرية ضاربة ، فقضى المصريون وقتاً طويلاً فى الاعداد لحرب التحرير ضد المحتلين الهكسوس ، وعمل ملوك الأسرة السابعة عشرة فى طيبة على بث روح الجهاد والكفـاح والمقاومـة فى نفوس أبنـاء الشعب المصرى استعداداً لخوض هذه الحرب المجيـدة. وعملت القيادة العسكرية المصرية على تكوين جيش وطنى قوى مدرب على أسس علميـة رفيعة المستوى ، بل وعملوا كذلك على تطوير آلـة الحرب المصرية بشكل كبير لمواجهـة آلـة الحرب المتفوقـة للمحتل الأسيوى ، والتـى كانـت تتمثل فى استخدامهم للعربـات (المركبـات) الحربيـة التـى لـم تكـن تتـوافر لـدى المصـريين ، فعمـل المصـريون علـى اقتبـاس ذلـك السـلاح الضـارب مـن عدوهم ، ولـم يكتفوا بـذلك بـل أضـافوا إليـه تقنيـات متطـورة ليتحقق لـهم التفـوق العسكرى المنشـود علـى عـدوهم .. وبالفعل خـاض الملـوك العظـام مـن الأسـرة السـابعة عشـرة " سقنن رع تـاعو الثـانى " و" كـامس " حـرب التحريـر المجيدة ضد الغزاة الهكسوس ، وحقق " كـامس " انتصـارات حاسـمة ضد أعداء مصر حدث مـن منـاطق تواجدهم كثيـراً ، حتـى جـاء الانتصـار العسكرى الكبيـر والحاسم والتحريـر علـى يـد فرعـون مصر الباسـل الملـك " أحمـس الأول " – مؤسس الأسرة الثامنـة عشرة وعصر الدولـة الحديثـة – الذى استطاع طرد الـهكسوس من مصر نـهائياً ، بل ومطاردتهم وتتبعهم فى فلسطين ولبنـان ، لتتخلص مصر نـهائيـاً مـن ذلك المحتل البغيض ، ولتبدأ مرحلة جديدة ومجيدة فى تاريخها العظيم ، وهو عصر الدولـة الحديثـة أو عصر الإمبراطورية المصرية (١٥٥٠ – ١٠٦٩ ق.م).

وقد عمل الملوك الأوائل للأسرة الثامنة عشرة على تكوين وتطوير الجيش المصرى بشكل كبير ليكون الدرع الواقى والحامى لمصر ولأمنها ولأستقرارها فى مواجهـة أى غزو أو تـهديد لحدودها ، ولا شك فى أن هذا التطور كان منطقياً ، نتيجة للقدرة الإدارية الفذة التى كان يتصف بهـا نظـام الحكم فـى مصر القديمـة ، والتـى اكتسبها مـن تـراكم خبرات تـاريخ طويـل فـى تنظيم وإدارة دفة الحياة على أرض وادى النيل. كذلك فقد كـان هذا التطور نتيجـة للأثـر النفسـى الـذى تركتـه تجربـة مصـر المريـرة مـع الغـزاة الـهكسـوس ، الأمـر الـذى أدى فـى النـهايـة إلـى ظـهـور وتأسيس أول مؤسسة عسكرية فى تاريخ العالم ، تتمتع بأعظم قدر من القوة الاستراتيجية ..

وبالفعل شهدت النظم العسكرية المصرية تطوراً مذهلاً فى كافة أفرع القوات المسلحة المصرية مـع مطلـع عصـر الدولـة الحديثـة ، وقسـم الجيش المصـرى إلـى فـرق مـن المشـاة والمركبـات الحربيـة والقـوات البحريـة ، بـل شـمل التطـور كـذلك نظـم التسـليح المختلفـة داخـل الجـيش المصرى .. ولقد تحقق التفوق فى آلـة الحـرب المصرية ، والتفوق الهائل للجيش المصرى ، منـذ النصف الثانى من القـرن السادس عشر قبـل الميلاد ، واستمـر بلا انقطـاع لمـدة تصل إلى نحو مائتى سنة متصلة. وإذا قمنا بمقارنـة المستوى الحربى للجيش المصرى فى عصـر الدولـة الحديثة بمستوييه الآخرين فى عصرى الدولة القديمة والدولـة الوسطى للمسنا على الفور مـدى التفـوق الـذى بلغـه الجـيش المصـرى خـلال عصـر الدولـة الحديثـة .. ومـن المؤكـد أن الجـيش المصرى خلال عصر الدولـة الحديثة كان أكبـر قـوة عسكرية ضـاربة فـى التـاريخ القديم ، حيث استطاع ذلـك الجيش تكوين إمبراطوريـة مصر الكبـرى خـلال تلـك الحقبـة ، بعد أن فرض قـوة ونفوذ وهيبـة مصر السياسية والحربيـة الواسـعة لتشـمل تلـك الإمبراطوريـة سـوريا وفلسطين شمالاً وبلاد النوبة حتى الجندل الرابع جنوباً بفضل إنتصارات الجيـش المصرى.

وخلال تلك الحقبة أدرك المصريون أن حدودهم الطبيعيـة تبدأ مـن أعـالى الفرات شـمالاً فى سوريا ، وأن الرؤية الاستراتيجية الوحيدة فى عدم تكرار تجربة غزو الهكسوس المريرة يتمثل فـى بنــاء إمبراطوريــة مصـرية فـى سـوريا وكنعـان (فلسـطين) لتحقيـق السـيطرة السياسـية والعسكرية المصرية فى تلك المناطق ، ليس بغرض الاستعمار وانما لنشر السلام المصرى فى هذه البقاع وتأمين الحدود المصرية من أى موجة غزو جديدة قد تحل بالمنطقة .. وسـوف تبلـغ حدود الإمبراطورية المصرية أقصى امتداد لـها خلال عهد الفرعون المحارب العظيم « تحوتمس الثالـث » ، وسيمتد النفـوذ السياسـى والعسكرى المصـرى مـن أطـراف نـهر الفـرات شـمالاً إلـى الجندل الرابع ببلاد النوبـة جنوبـاً .. وستخوض مصـر – بدايـة من عهـد الأسـرة الثامنـة عشرة وطـوال عهـد إمبراطوريتهـا – سلسـلة متصـلة مـن الصـراعات السياسـية والمعـارك الحربيـة الضـارية فـى منطقـة الشـرق الأدنـى القـديم ، ضـد كـل القـوى والممالـك والإمبراطوريـات التـى ستحاول مجابهة النفوذ السياسى والعسكرى المصرى فى المنطقة .. وستسجل صفحات التاريخ كفـاح باسـل سيخوضـه المصريون مـن الفـرات إلى الجنـدل الرابع حفاظـاً على أمنهـم القـومى

وسلامة حدود أمتهم المقدسة .. وهذا ما سوف يطالعه القارئ فيما يلى من فصول وصفحات فى هذه الدراسة ، التى نحاول فيها توثيق هذا الكفاح التاريخى لأجدادنا العظماء ، والقاء الضوء على ما حققوه من فكر إستراتيجى رفيع ومجد عسكرى عظيم أذهل التاريخ استطاعوا من خلاله تكوين أول إمبراطورية فى العالم القديم ، وإن كان الغرض من هذا الكفاح والتوسع العسكرى هو الحفاظ على أمن مصر القومى والدفاع عن حدودها المقدسة وفرض السلام المصرى المسلح فى المنطقة ، وليس استعمار الشعوب ونهب ثرواتها وحكمها بالقوة العسكرية كما فعلت إمبراطوريات العالم القديم .. فقد كان المحارب المصرى قديماً وحديثاً صاحب رسالة سامية شكلت ملامحها حضارته العظيمة وسمات الأرض الطيبة التى جاء منها.

وأتمنى من الله – عز وجل – مخلصاً أن أكون قد وفقت فى تقديم هذه الصفحة المضيئة من تاريخ مصرنا الغالية ، التى اسأل الله أن يحفظها وأن يصون شعبها الأبى .. وما توفيقى إلا بالله العلى العظيم .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين أجمعين.

دكتور / محمد رأفت عباس

الفصل الأول

نضال مصر ضد الهكسوس

كان وقوع مصر تحت احتلال الهكسوس منعطفاً خطيراً فى تاريخها بل وفى تاريخ العالم القديم .. فقد كان أمرًا مؤلمًا وقاسيًا إلى أقصى مدى أن تجد مصر نفسها وهى تلك الأمة ذات التاريخ التليد والماضى العريق والحضارة الرفيعة فريسة لمحتل بربرى همجى جاء من آسيا ليغزوها فى فترة من فترات الضعف والاضطراب للمرة الأولى فى تاريخها .. وقد عانى المصريون كثيرًا من هذا الغزو الذى اضطهدهم وأذلهم وأفقدهم كبرياءهم وثقتهم فى أنفسهم .. ومن ثم فإن حرب التحرير التى خاضها المصريون ضد الغزاة الأسيويين لم تكن مجرد معارك حربية عادية ، بل كانت معارك تاريخية حاسمة لاستعادة الكرامة المصرية والكبرياء الوطنى وتخليص البلاد من محتل غاشم جثم على صدرها لأكثر من مائة عام.

من هم الهكسوس ؟ ..

مما لا شك فيه أن ظهور الهكسوس فى التاريخ المصرى يعد من الأمور التى أثارت جدلاً واسعا بين المؤرخين ، حتى أن مسماهم نفسه فى المصادر المصرية يعد من القضايا التى تعددت فيها وجهات النظر التاريخية ، فقد ورد عن المؤرخ المصرى الشهير " مانيتو " أن كلمة الهكسوس تعنى " الملوك الرعاة " ، كما يحدثنا المؤرخ اليهودى " يوسف بن متى " بأن كلمة الهكسوس تعنى " الأسرى الرعاة " ، وقد اتفقت الغالبية العظمى من علماء المصريات على أن كلمة هكسوس مشتقة من غير شك من المصطلح المصرى القديم " حقاو – خاسوت " أى " حكام البلاد الأجنبية " الذى كان يعنى منذ عصر الدولة الوسطى " مشايخ البدو ".

وقد تنوعت آراء المؤرخين حول الأصل العرقى والموطن الأصلى للهكسوس ، فهناك من رأى أنهم من الشعوب الآرية التى كانت تسكن وسط آسيا ، وهناك من رأى أنهم ساميين قد استوطنوا فى كنعان (فلسطين) قبل دخولهم مصر. ويبدو أن أقرب التفسيرات التاريخية للصواب فى هذا السياق يتمثل فى أن الهكسوس كانوا مجموعة من الشعوب التى سكنت مناطق

آسيا الغربية ، والتى اضطرت أن تهاجر من أوطانها تحت ضغط الشعوب القادمة من هضبة أرمينيا والذين عرفوا فى التاريخ باسم قبائل الحوريين ، واستقروا فى مناطق نهر الفرات الشمالية حوالى عام ٢٠٠٠ ق. م. ولقد أدت غارة الحوريين على مناطق شمال سوريا إلى نشر الفزع والرعب فى سكان سوريا وكنعان (فلسطين) ، فهرب الكثير منهم واندفعوا نحو الجنوب حتى وصلوا إلى مصر .. ومن ثم فإن الدلائل التاريخية كانت تشير إلى أن الهكسوس لم ينتموا إلى جنس واحد ، بل كانوا خليطاً من الآريين والساميين الذين أصبح الهدف الرئيس لهم الدخول إلى مصر للاستيطان فى أرضها بأى شكل من الأشكال.

دخول الهكسوس مصر ..

من أكثر الحقائق التاريخية الجلية لدى مؤرخى مصر القديمة أنه لم يحمل المصريون كماً من البغض والحقد والكراهية فى تاريخهم كما حملوا للغزاة الهكسوس ، وذلك فيما تشير الوثائق والمصادر التاريخية .. ويشير المؤرخ اليهودى " يوسف بن متى " نقلاً عن المؤرخ المصرى " مانيتو " إلى أن دخول الهكسوس إلى مصر إنما كان فى عهد الملك " توتيمايوس " (ددو – موسى) ، وهو الملك السابع والثلاثين من ملوك الأسرة الثالثة عشرة فى بردية تورين. ويحدثنا " مانيتو " عن غزو الهكسوس لمصر بعبارات تتسم بالألم والكراهية لهذه الفاجعة الكبرى فى تاريخ مصر قائلاً : " فى عهد الملك توتيمايوس (تيمايوس) لسبب لا أعرفه حلت بنا ضربة من الرب ، وفجأة تقدم فى ثقة بالنصر غزاة من إقليم الشرق من جنس غامض إلى أرضنا ، واستطاعوا بالقوة أن يتملكوها فى سهولة دون أن يضربوا ضربة واحدة ، ولما تغلبوا على حكام الأرض أحرقوا مدننا بغير رحمة ، وقوضوا أرض معابد الآلهة وعاملوا المواطنين بعدوان قاس ، فذبحوا بعضهم ، وساقوا زوجات آخرين من أزواجهم ، وأخذوا أطفالهم إلى العبودية ، وأخيراً عينوا من بينهم واحداً ملكاً يدعى ساليتيس ، وكان مقره منف ، ففرض الضرائب على مصر العليا والسفلى ، وكان يخلف وراءه حاميات فى الأماكن المهمة ... ".

وقد ظلت النصوص التاريخية المصرية تنعت الهكسوس بكل ما هو حقير حتى بعد طردهم من مصر ، فيصف أحد نصوص الأسرة الثامنة عشرة – من عهد الملكة " حتشبسوت " –

وجود الهكسوس فى مصر بأنهم كانوا يحطمون ويخربون معابد الآلهة ويحكمون بدون رغبة المعبود رع الذى كان يكرهم ، وأن الأرض قد محت آثار أقدامهم بعد أن طردوا. وتشير بردية ساليبه رقم ١ – التى يعود تاريخها إلى عهد الأسرة التاسعة عشرة – إلى أن حكم الهكسوس كان بمثابة محنة رهيبة حلت بمصر وأن ملوكهم لم يحترموا من بين المعبودات المصرية سوى « سوتخ » إله الشر الذى عملوا على عبادته ورفع شأنه بشكل مستفز للمصريين.

ويبدو أن دخول الهكسوس مصر قد أتخذ صورة التسلل إلى حدود الدلتا الشرقية بأعداد قليلة وفى فترات متباعدة ، وازداد هذا التسلل بمرور الزمن بسبب الضغط الذى مثلته الشعوب الأجنبية على سوريا والذى قد وقع خلال تلك الفترات المتسمة بالفوضى والاضطراب التى ضعفت فيها الحكومة المركزية المصرية والتى لم تعد بقادرة على حماية الحدود الشرقية .. واستمر الحال هكذا حتى جاء وقت حاول فيه الهكسوس فرض سيطرتهم بالقوة على المصريين فوقع الصدام العنيف بين الغزاة الأسيويين وأهل البلاد ، فقام الهكسوس بإحراق المدن وتدمير المعابد واستعراض القوة ، وأنتهى الأمر باستيلائهم على العاصمة المصرية القديمة منف وأصبحت لهم الكلمة العليا فى حكم مصر .. ويرى الكثير من المؤرخين أن التسلل الأسيوى الذى قام به الغزاة الهكسوس والذى فشل ملوك الأسرة الثالثة عشرة فى ايقاف زحفه قد أعقبه صدام حربى عنيف بين الغزاة وبين المصريين قبل نجاح الغزاة فى فرض سيطرتهم واستيلائهم على العاصمة منف ، وقد انتهى هذا الصدام بهزيمة منكرة للمصريين الذين واجهوا للمرة الأولى فى تاريخهم شعوب محاربة بهذا القدر من الغلظة والشراسة ، حيث امتلك الهكسوس عدة وعتاداً حربياً عظيماً لا قبل للمصريين به ، وذلك بفضل استخدامهم للأسلحة البرونزية ومعرفتهم استخدام الخيول والعربات (المركبات) الحربية التى أدخلت إلى آسيا بواسطة الآريين منذ قرنين أو ثلاثة من قبل ، وتعلم استخدامها عنهم الهكسوس .. ولنا أن ندرك مدى فزع المصريين وجزعهم ، عندما كان عليهم أن يواجهوا لأول مرة هذه العربات المقاتلة.

ولقد قام الهكسوس بالتمركز فى شرق الدلتا واتخذوا من مدينة أواريس عاصمة لملكهم بعد أن أصبحت الدلتا ومصر الوسطى تحت حكمهم المباشر ، واكتفوا بفرض الجزية على مصر العليا (الصعيد) تاركين الإدارة المحلية المصرية كما كانت عليه قبل الغزو .. ومن ناحية أخرى كان الكوشيون قد استغلوا فرصة انهيار المملكة المصرية وبعد ملك الهكسوس عنهم

وتمركزه فى الدلتا لكى يؤسسوا لأنفسهم مملكة كوشية مستقلة فى جنوب الجندل الأول اتخذت من كرما عاصمة لها .. وهكذا انقسمت مصر إلى ثلاث كيانات سياسية بعد غزو الهكسوس المهين خلال تلك الحقبة المؤلمة والعصيبة من تاريخها.

سقنن رع وبداية النضال ..

من المؤكد أن غزو الهكسوس قد أصاب المصريين بصدمة بالغة لم يكن من السهل تجاوزها بين عشية وضحاها .. فهاهى مصر العظيمة تسقط أمام الغزو الأجنبى للمرة الأولى فى تاريخها على يد عدو همجى وشرس عمل على إهانة المصريين فى كبريائهم الوطنى وفى مشاعرهم الدينية كذلك ، وكان على الأمة المصرية أن تمتص هذه الصدمة المؤلمة حتى تجد طريقاً للنصر والتحرير واستعادة التراب الوطنى والكرامة المصرية مرة أخرى .. وفى هذا الصدد يقول عالم المصريات الفرنسى الشهير « جاستون ماسبيرو » : « إن هذه الأمة المصرية العتيقة دون سائر الأمم والشعوب تدل طبائع ابنائها كما تدل آثارها على البقاء والخلود .. فكم من مرة اجتاحها الغاصبون الأقوياء وظنوا أنهم حولوا أرضها رماداً تذروه الرياح ، وظنوا أنهم قلبوا مدنها وقراها انقاضا فوق سكانها .. فإذ بأؤلئك السكان ينفضون عنهم ما ظنه الغاصبون فناءًا ويبعثون من تحت الانقاض ليعيدوا البناء والكفاح من جديد »..

بعد أن فرض الهكسوس سيطرتهم على مصر تكونت منهم الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة فى تاريخ مصر القديمة ، وتمكنوا من انهاء حكم الأسرة الثالثة عشرة المصرية قرابة عام ١٦٥٠ ق. م ، وكذلك انهاء حكم الأسرة الرابعة عشرة المصرية التى كانت تتمركز فى خويس بغرب الدلتا بعد الاستيلاء على ما تبقى من نفوذ لها هناك قرابة عام ١٦٠٣ ق. م. وفى هذه الأثناء بدأ يظهر فى الجنوب فرع جديد من الأمراء الطيبيين أشار إليهم بعض المؤرخين القدامى مثل « أفريكانوس » و« مانيتو » على أنهم شكلوا جذور الأسرة السابعة عشرة المصرية ، ويبدو أن منطقة نفوذ أمراء طيبة لم تتجاوز الأقاليم الثمانية الأولى من مصر العليا ، والتى تمتد من إليفنتين فى الجنوب وإلى أبيدوس فى الشمال .. وبمرور الوقت بدأ أمراء طيبة فى العمل على توطيد نفوذهم السياسى فى الجنوب وعلى احياء القومية المصرية ومناهضة تواجد المحتل الأسيوى القابع فى شرق الدلتا ، فبدأوا فى استفزاز الهكسوس

واعتبروا أنفسهم حكاماً فى أقاليمهم ، وفعلوا كما فعل ملوك مصر من قبلهم ، حيث وضعوا أسماءهم داخل خراطيش ملكية ، وحملوا الألقاب التقليدية التى تدل على أنهم ملوك للوجهين القبلى والبحرى .. وتشير الوثائق التاريخية إلى أن حاكم طيبة الملك " سقنن رع تاعو الثانى " هو أول من عمل على جمع كلمة حكام الأقاليم المصرية فى الجنوب من أجل مواجهة الهكسوس وقد شاءت الأقدار أن يطلق هذا الملك الباسل شرارة حرب التحرير ضد الغزاة الأسيويين.

ويبدو أن هذا الحراك الوطنى قد أثار ملك الهكسوس " أبيبى " (أبوفيس) ، والذى رأى أنه عليه القيام برد فعل مضاد للطيبيين قبل أن يستفحل الشعور الوطنى المناهض لوجود الهكسوس فى مصر والذى كانت تقوده طيبة ، فتشير بردية ساليه رقم ١ – التى كتبت خلال عصر الأسرة التاسعة عشرة أى بعد خروج الهكسوس من مصر بعدة قرون – إلى أن " أبيبى " (أبوفيس) قد بدأ التحرش بالطيبيين واستفزازهم فى مشاعرهم الدينية حتى ينجر الملك الطيبى إلى حرب لم يستكمل عدته لها. ومن ثم فقد أرسل الملك الهكسوسى مبعوثيه إلى طيبة الذين حملوا رسالة للملك المصرى تحمل اتهاماً سخيفاً مؤداه أن فرس النهر فى طيبة ، والتى كانت على مبعدة أربعمائة ميل إلى الجنوب من مقره فى أواريس ، كان يصدر خواراً فى الليل يمنعه من النوم ، وطلب منه أن يعمل على أن يطرد فرس النهر الذى فى حوش مدينته (طيبة) لأنه يقضى مضجعه نهاراً وليلاً ، وأن الضوضاء تؤذى أذنه .. وعلى الرغم من هذا فقد تظاهر " سقنن رع " بالاقتناع وأمر بإكرام الرسل القادمين من " أبوفيس " ، وأن تقدم لهم الأشياء الطيبة ، وأبلغ الرسل أن يبلغوا سيدهم باستجابته لمطالبهم. وما كاد رسل الهكسوس يعودون إلى أواريس ، إلا ويستدعى " سقنن رع " مستشاريه ويحيطهم علما بالأمر ، ويطلب منهم النصح والمشورة ، إلا أنهم سكتوا جميعاً وينقطع نص البردية عند هذه النقطة.

ويرى غالبية المؤرخين أن هذا الاستفزاز فى المشاعر الوطنية بالإضافة إلى الاختلاف الدينى المذهبى بين الطيبيين والهكسوس قد كان له أثره العميق فى اندلاع الحرب بين الطرفين ، فقد جعل " أبيبى " (أبوفيس) ملك الهكسوس من سوتخ إلهه الرئيس وجعله فوق كافة الآلهة المصرية الأخرى كما طلب من الملك المصرى عبادته ، بينما حرص " سقنن رع " على أن يكون آمون إله طيبة رب الأرباب جميعاً ، ولم يكتف الطيبيون بذلك بل بدأوا فى إحياء

طقوس فرس النهر فى بركتها أو قناتها ، وكفلت تلك الشعيرة بين أشياء أخرى سلامة الملكية المصرية ، وكان ذلك الأمر ضاراً بالهكسوس ، نظرا لكون فرس النهر صورة لإلههم الرئيس سوتخ .. ويبدو أن « سقنن رع » قد قدر له أن يكون الشهيد الأول فى معركة مصر ضد الغزاة كما قدر له أن يشعل الشرارة الأولى لحرب التحرير المجيدة ، حيث تدل مومياءه المحفوظة الآن فى حجرة المومياوات بالمتحف المصرى بالقاهرة – والتى نرى فيها أكثر من جرح فى الصدر والرأس – على الدور البطولى الباسل الذى قام به فى معركة التحرير وعلى أنه قد مات متأثراً بجراحه فى ساحة الوغى ، كما يبدو أنه قد مات وهو ما يزال بعد فى شرخ الشباب لم يتجاوز الثلاثين من عمره.

كامس والزحف المقدس ..

بعد استشهاد « سقنن رع » حمل لواء التحرير ابنه « واج خبر رع كامس » ، وحفظت لنا أخبار حروبه على لوحتين من الكرنك أشهرهما لوحته الثانية التى كشف عنها عام ١٩٥٤م ، وكذلك على لوح كارنارفون رقم ١ الذى كشف عنه عام ١٩٠٨م وكان مكتوبا بالخط الهيراطيقى وهو يروى المراحل الأولى من الصراع .. وجاء فى بداية لوح كارنارفون : « فى العام الثالث للملك القوى فى طيبة ، كامس ، الذى عينه رع ملكاً حقيقياً ومنحه القوة فى رضا تام ، تحدث جلالته فى قصره إلى مجمع الكبراء الذين فى حاشيته قائلاً : أريد أن أعرف مدى قوتى وسلطانى ، فهناك فى أواريس يجلس ملك أجنبى ، وهناك فى كوش يحكم ملك آخر ، بينما أجلس أنا بينهما ، هنا فى طيبة ، وكل منهما يقتسم مصر معى . انظروا ، فإنكم ستجدون الأسيويين قد حكموا مصر حتى الأشمونين ، لقد هدموا كل الأبنية وخربوها ، ولكننى سأهاجم ملكهم ، وأبقر بطنه بيدى ، وكل أملى أن أخلص مصر من الأسيويين ، وأطردهم شر طردة ». وقد رد رجال الحاشية على الملك « كامس » بقولهم : « إذا كان الهكسوس قد توغلوا فى مصر حتى الأشمونين ، وإذا كانوا يدعون كذباً بأننا نناوشهم ، فإننا نعيش فى سلام فى منطقتنا ، ولازالت أسوان حصناً قوياً لنا ، ونحن نحكم من أسوان حتى الأشمونين ، ونمتلك أحسن مناطق مصر ، ثم أن ماشيتنا لا تزال ترعى فى كل أجزاء مصر فى أمان ، دعهم يا صاحب

الجلالة ، فهم يحكمون فى الشمال ، ونحن نحكم فى الجنوب. أما إذا اعتدى علينا أحد ، فإننا لن ندخر وسعاً فى مقاومته » .. وهنا غضب الملك غضباً شديداً وقال لهم : « سأقاتل الهكسوس حتى يقسم كل مصرى باسمى ، إننى أريد أن يتحدث كل منهم عنى قائلاً هاهو كامس محرر مصر ».

ومن خلال المصادر التاريخية التى تحدثت عن حروب وحملات « كامس » ضد الهكسوس (لوح كارنارفون رقم ١ ولوحتيه من الكرنك) ، تبين أن « كامس » قد بدأ حملاته الحربية ضد الهكسوس فى العام الثالث من حكمه بعد أن جمع جيشاً مكوناً من عدة فرق ، حيث أبحر من طيبة عبر النيل إلى الشمال تحت راية الإله الطيبى آمون ووصل إلى بلدة نفروسى الواقعة شمال القوصية وكانت تقبع بها إحدى الحاميات المصرية الموالية للهكسوس ، وتمكن « كامس » بواسطة قوات المجاى فى جيشه من الاستيلاء على هذه الحامية الهامة .. ووصل « كامس » فى زحفه شمالا حتى الأشمونين وتمكن من طرد الهكسوس من مصر الوسطى ، وبذلك أصبحت مصر العليا والوسطى تحت سلطة « كامس » ، وعلى ذلك فقد أرتد الهكسوس إلى الشمال حيث تحصنوا بعاصمتهم أواريس.

وقد تحدثت لوحة « كامس » الثانية من الكرنك عن قيامه بالهجوم على عاصمة الهكسوس أواريس بشرق الدلتا ، ويشير النص إلى وصول الأسطول المصرى إلى مقاطعة أواريس ، حيث تذكر النصوص أن « كامس » حامى مصر قد بدأ فى حصار الهكسوس إقتصادياً ، بأن قطع الامدادات التى كانت تصلهم عبر فروع النيل ، وأحرز عليهم النصر فى عدد من المواقع النهرية .. ووفقاً لما ورد فى هذه اللوحة ، وبعد التحرك شمال نفروسى ، قام جنود « كامس » بإلقاء القبض على أحد موظفى بلاط ملك الهكسوس ، كان يحمل رسالة من ملك الهكسوس « عا أوسر رع أبيبى » (أبوفيس) فى أواريس إلى حليفه حاكم كوش فى الجنوب ، حيث طلب منه الدعم والمساعدة والقيام بهجوم مشترك ضد الطيبيين للقضاء عليهم. ويبدو أن « كامس » قد أرسل فرقة من قوات جيشه لاحتلال الواحات البحرية فى الصحراء الغربية والتى كانت من أهم مراكز الطريق الصحراوى بين الشمال والجنوب ، ليكون فى مأمن من أى مراسلات أو اتصالات تقع بين أعدائه الهكسوس فى الشمال والكوشيين فى الجنوب .. وفى أعقاب هذا قام « كامس » بالابحار جنوباً نحو طيبة عبر النيل ليقوم بالاحتفال بنصره العسكرى الكبير على

الهكسوس بعد أن نجح فى دفع الحدود بينه وبين عدوه نحو الشمال من القوصية التى تسبق الأشمونين فى مصر الوسطى ، التى أصبحت بمثابة الحد الفاصل بين الأسرة السابعة عشرة الطيبية فى الجنوب والأسرة الخامسة عشرة الهكسوسية فى الشمال.

ويختلف المؤرخون فى نتائج حروب « كامس » ، فهناك من يرى أنها قد دفعت الحدود بين الهكسوس وبين أمراء طيبة إلى الشمال ، حتى أطفيح عند مدخل الفيوم ، بينما يرى آخرون أنه قد وصل إلى جدران أواريس نفسها. ومع ذلك فإنه مما لا شك فيه قد تمكن من تحرير مصر الوسطى نهائياً من الهكسوس ، وأن حملاته فى الدلتا قد أجهضت نفوذ الهكسوس فيها ، وأضعفت من جيوشهم ، مما ساعد على وصول القوات المصرية إلى عاصمة الهكسوس أواريس .. ومات « كامس » بعد حكم قصير ، حيث وضع جسده فى تابوت بسيط للغاية ، وأشرف على دفنه أخوه « أحمس » ، وقد يشير ذلك إلى أنه قد مات فجأة ، ومن ثم فلم يمكن تجهيز الأثاث الجنائزى اللائق به وبمكانته لأن مصر كانت لا تزال فى حربها الشرسة ضد الهكسوس.

أحمس وملحمة التحرير ..

أتبع الملك « أحمس الأول » سياسة جديدة فى حرب المصريين ضد الهكسوس ، تعتمد على التعبئة العامة وتجنيد كل الرجال ، ثم صبغ حكمه بالصبغة العسكرية ، وساعده على ذلك أن المصريين كانوا قد تذوقوا طعم الحروب ولمسوا قيمة النضال واستفادوا من حروب سلفيه ، فتمرسوا على استعمال كل الأسلحة الجديدة التى جلبها الهكسوس معهم إلى مصر وتعلموا طرق الكفاح والنضال .. وعاصرت « أحمس الأول » ثورة اجتماعية تهدف إلى تمجيد الجندية ، فلقد عرف المصريون فى ذلك الوقت أن الحروب تعود على المنتصر بالغنائم الكثيرة ، وأن فى ميادينها متسعا لأعمال البطولة ، وأن الحاكم يعترف بها ويكافئ عليها ، مهما كانت الطبقة التى ينتمى إليها المحارب ، فسارع أفراد الطبقة الوسطى إلى الالتحاق بالخدمة العسكرية ، نظراً لأن الجندية ترفع من مركزهم الأدبى بترقيتهم فى الجيش .. وهكذا أندفع الشعب المصرى فى حماسة تفوق الوصف فى التيار العسكرى ، حتى أمراء الدولة نفسها تسابقوا إلى الانخراط فى

الجندية بهدف الحصول على الأوسمة والألقاب .. وقد أشعل « أحمس الأول » هذه الروح الجديدة ، فتجمعت حوله أفواج الشعب على هدف واحد يتمثل فى تطهير مصر من الهكسوس تطهيراً كاملاً من أى أثر لهذا الاحتلال الأجنبى البغيض.

والتقرير الوحيد المعاصر عن طرد الهكسوس من مصر منقوش على جدران مقبرة أحد أشهر قواد الملك « أحمس الأول » وهو القائد « أحمس بن إبانا » الموجودة بالكاب (٢٠ كم شمال إدفو) ، ولقد تحدث من خلال نصوصه عن حصار المصريين لعاصمة الهكسوس حوت وعرت (أواريس) ، وأشار إلى هزيمة الهكسوس النهائية بقوله : « لقد نهبوا أواريس ، لقد أحضرت غنيمة من هناك ، رجل وثلاث نساء ، المجموع أربعة رؤوس ، لقد منحنى إياهم جلالته لأتخذهم عبيداً ». كما ذكر أن الفرعون قد قام بالهجوم على أواريس ثلاث مرات أثناء حصاره لها قبل أن تسقط المدينة فى أيدى المصريين أثناء الهجوم الرابع .. ويبدو أن حصار أواريس قد وقع فى العام الثامن من حكم الملك « أحمس الأول ».

ويرى جانب كبير من المؤرخين أن الجيش المصرى فى مسيرة التحرير المقدسة قد تحرك عبر الطريق البرى لسبب استراتيجى سواء كانت الدلتا مأمونة أم غير مأمونة ، حيث يبدو أن الملك « أحمس الأول » قد سعى لأثر المفاجأة ، ولهذا قطع الطريق بسرعة إلى اليابسة وبدأت عمليات الحصار على أواريس مباشرة ، وبعد ذلك لم يتأخر الأسطول البحرى فى الوصول. وأغلب الظن أن الجيش المصرى بقيادة « أحمس » قد أستولى على العاصمة المصرية التليدة منف وهو يقوم بزحفه نحو الشمال إلى عاصمة الهكسوس .. ولقد منحتنا بردية ريند الحسابية معلومات مهمة عن الاستراتيجية الحربية التى قد أتبعها « أحمس الأول » فى الهجوم على الدلتا أثناء حرب التحرير. فعقب استيلائه على هليوبوليس (الواقعة شمالى منف) ، تحرك الفرعون بقواته إلى أقصى شرق الدلتا للاستيلاء على قلعة ثارو الاستراتيجية المهمة ، والتى كانت بمثابة أقوى وأهم التحصينات الموجودة على طريق حورس الحربى الممتد بين مصر وكنعان (فلسطين) ، متحاشياً بهذا الهجوم على أواريس عاصمة الهكسوس. ومن ثم فباستيلاء الفرعون على ثارو ، تمكن من قطع الطريق بين كنعان وأواريس ، مانعاً عاصمة الهكسوس من الحصول على أى إمدادات أو مساعدات قد تصلها فى المستقبل من كنعان أثناء حصاره

لها ، ثم أعقب هذا كما تشير بقية المصادر المصرية استيلاء القوات المصرية على عاصمة الهكسوس أواريس. ومن ثم فقد كان يبدو واضحاً أن المصريين قد قاموا بمحاصرة عاصمة الهكسوس من الشمال الشرقى والجنوب الغربى باستيلائهم على ثارو وهليوبوليس.

وبعد أن تم طردهم من مصر تحصن الهكسوس فى شاروهين ، وهو موقع فى جنوب غرب فلسطين ، وعندما وصل الجيش المصرى إلى شاروهين وجدوا أن الهكسوس قد تحصنوا بداخلها ، وأعدوا العدة لأن يصمدوا كثيرا فى وجه المصريين ، بل أنهم كانوا يطمعون فى الانتصار على الجيش المصرى وإرجاعه إلى الدلتا مهزوماً ، والانتقام لما فقدوه فى عاصمتهم أواريس ، إلا أن الملك " أحمس الأول " وجنود الجيش المصرى كانوا أشد بأساً وأقوى عزيمة ، وقد ضربوا الحصار مدة ثلاث سنوات حول شاروهين ، حتى تم لهم النصر وتم إجلاء الغزاة الهكسوس عنها وتشتيتهم إلى داخل أراضى فلسطين وسوريا .. وبسقوط حصن شاروهين آخر معاقل الهكسوس على الحدود المصرية الشرقية مع فلسطين فى أيدى الجيش المصرى بعد هذا الحصار الطويل ، يكون الفرعون " أحمس الأول " قد أنجز مهمة تأمين الحدود المصرية ، ونجح فى وضع أول لبنة فى صرح الإمبراطورية المصرية فى آسيا.

ولقد سجل " أحمس بن نخبت " أحد قواد الملك " أحمس " على جدران مقبرته بالكاب أنه قد تابع الملك " أحمس الأول " فى حروبه ضد الهكسوس حتى جاهى ، وهو مصطلح جغرافى أثبتت التقارير العسكرية فى عهد خلفاء " أحمس الأول " أنه كان يطلق على المنطقة الممتدة على الساحل بين كنعان (فلسطين) ولبنان ، وقد نجح الفرعون فى إحراز نصر كبير عليهم هناك. وقد يشير ذلك إلى أن الملك " أحمس الأول " أخذ فى مطاردة الهكسوس بعد شاروهين حتى لبنان ، ويعنى ذلك إجلاؤهم عن المناطق التى سكنوها أو لجأوا إليها ، وسكنها أقوام ينتمون إلى جنسهم ، وأنه لم يطهر مصر منهم فحسب ، بل طهر كذلك فلسطين وسوريا حتى يغدو بمأمن من غدرهم ومعاودتهم العدوان .. ولقد سعى الملك " أحمس الأول " من وراء انتصاراته العسكرية فى آسيا إلى فتح الطريق أمام القوات العسكرية البرية والبحرية المصرية لتأسيس أول قاعدة عسكرية مصرية فى بلاد جاهى ، لتكون بمثابة نقطة دفاع متقدمة إذا ما فكر الهكسوس فى إعادة تنظيم أنفسهم وحاولوا غزو أو مجرد الإغارة على الحدود المصرية مرة أخرى.

أبطال التحرير ..

لم يكن تحرير مصر من دنس الغزاة الهكسوس أمراً قد تم بإرادة فردية ، بل إن كل انجاز أو اعجاز قد تم تحقيقه فى تاريخ مصر القديمة كان يحدث بإرادة وعزيمة تحركها دماء وصمود شعب مصر العظيم .. ومن المؤكد أن المصادر التاريخية قد ضنت علينا باسماء وسير عشرات الشهداء الأبرار والرجال البواسل الذين خاضوا معارك التحرير المجيدة ضد الغزاة وبذلوا فيها كل غال ونفيس من أجل استعادة الأرض والكرامة المصرية ، كما أنه قد دأب المؤرخون دائماً عند سرد الانتصارات على نسب الفضل للملوك دون الاعتناء كثيراً بالشعب الذى استجاب لإرادة ملوكه البواسل ، على الرغم من أن الحاكم والشعب قد شكلا معاً ملحمة التحرير الخالدة فى صفحات التاريخ.

وهنا يتجلى لنا فى نضال مصر ضد الهكسوس اثنان من القادة العسكريين البواسل اللذان سجلا اسميهما بحروف من نور فى تاريخ نضال الأمة المصرية ضد الغزاة عبر التاريخ ، وهما القائد " أحمس بن إبانا " والقائد " أحمس بن نخبت " وكلاهما من أبناء مدينة الكاب بأسوان .. و" أحمس بن إبانا " هو أحد أشهر وأهم قواد الجيش المصرى خلال مطلع الأسرة الثامنة عشرة ، وقد قدم خدماته العسكرية فى عهود الملوك الثلاثة الأوائل للأسرة الثامنة عشرة " أحمس الأول " و" أمنحتب الأول " و" تحوتمس الأول " ، وترك نصوص سيرته الذاتية منقوشة على جدران مقبرته بمسقط رأسه ببلدة نخب (الكاب الحالية بأسوان) ، والتى منحتنا معلومات تاريخية بالغة الأهمية عن أحداث حرب التحرير ضد الهكسوس وعن تاريخ مصر خلال نهاية الأسرة السابعة عشرة وبداية الأسرة الثامنة عشرة. ذكر " أحمس بن إبانا " من خلال نصوص سيرته الذاتية أن والده كان جندياً يدعى " بابا " ، وقد قدم هذا الوالد خدماته العسكرية فى عهد الملك " سقنن رع تاعو الثانى " سلف الملك " أحمس الأول " ، أثناء الحملات الحربية الأولى التى خاضها المصريون ضد الغزاة الهكسوس ، أما عن والدته والتى نسب إليها فقد كانت تدعى " إبانا ". وقد بدأ " أحمس بن إبانا " حياته العسكرية شاباً فى عهد الملك " أحمس الأول " قبل أن يتزوج ، حين عمل جندياً فى السفينة المسماة " الثور الوحشى " ، وأشارت نصوصه إلى بطولاته العسكرية المختلفة التى قدمها فى تاريخه ، حيث

ذكر أنـه قد خاض القتـال والمعارك فـى البر والنـهر ، وشـارك فـى معارك حرب التحرير ضد الهكسـوس تحـت قيـادة الملـك " أحمس الأول " كواحـداً مـن رجـال الحرس الملكـى للفرعـون ، وعمل فى السفينـة الحربية التى كان يقودها الملك المسماة " الظهور فى منف " ، كذلك ذكر أنـه قد خاض القتال ضد الغزاة الهكسوس فى معقلهم وعاصمتهم أواريس بشرق الدلتا حيث قام بقتل اثنين من الأعداء ومنح ذهب الشجاعة مرتين ، ومنحـه الفرعون بعض العبيد والأسلاب عقب الاستيلاء علـى أواريس. كمـا تواجـد ذلك القائد العسكرى الشجاع فى الحصـار الطويل الذى ضربه المصريون حول مدينـة شـاروهين بجنـوبى كنعان (فلسطين) ، والتـى لجأ إليها الهكسـوس بعد طردهم مـن مصـر ، وقد أبلـى القائـد " أحمس بن إبانـا " فى تلك الحرب بـلاءاً حسناً .. وبالإضـافة إلـى ذلك فقد شـارك القائـد " أحمس بن إبانـا " فى حروب الملـك " أحمس الأول " فى بلاد النوبة (كـوش) ، حيث ذكر من خلال نصوص مقبرته الحملات الحربية الثلاث التى قام بها الفرعون هناك. وعقب وفاة الملك " أحمس الأول " شـارك " أحمس بن إبانـا " فـى حملات الملك " أمنحتب الأول " علـى بـلاد النوبـة ، ومـنح الـذهب وبعض العبيد كمكافئـة بسبب شجاعته فى القتال ، وفى عهد الملك " تحوتمس الأول " شـارك " أحمس " فـى الحملـة البحريـة ضد القبائل النوبية فى وادى النيل ، ورقى أثنـاء هذه الحملة إلى رتبـة " رئـيس البحـارة " ، كمـا شارك فى حملة الفرعون الأسيوية على نـهرين والتـى بلغت نـهر الفرات .. والجدير بالـذكر أن القائـد " أحمـس بـن إبانـا " قد نـال تقـدير الملـك " أحمـس الأول " ، فـأنعم عليـه بمنحـه ذهـب الشجاعة فـى سبعة مناسبات ، كمـا أغدق عليـه عدة أفدنـة مـن الأرض الزراعيـة ، فضلاً عن تسعة عشرة من الرقيق ، تقديراً لشجاعته وبطولاته العسكرية التى قدمها خلال خدمته بالجيش المصرى. وترجع أهمية نصوص القائـد " أحمس بن إبانـا " – الموجودة فى مقبرتـه بالكـاب – إلى أنـها المصدر الوحيد والمعاصر للمعارك النـهائية لطرد الـهكسوس مـن مصر علـى يد الملـك " أحمـس الأول " ، بالإضــافة إلــى نصـوص مقبـرة القائـد " أحمـس بـن نخبـت " ، حيـث أن التسجيلات الملكية لـهذه الفترة التاريخية الـهامة قد تلاشت.

أما عن القائد " أحمس بن نخبت " فقد بدأ خدماته العسكرية فى عهد مؤسس الأسرة الثامنـة عشرة الملك " أحمس الأول " واستمرت مشاركاته فى الحملات الحربية للجيش المصرى حتـى عهد الملك " تحوتمس الثالث " ، كمـا كـان أحد نبـلاء نخـب (الكـاب الحالية) مثله مثل القائـد

العسكرى الشهير والمعاصر لـه « أحمس بن إبانـا » .. ولقد سجلت كذلك علـى جدران مقبرتـه بالكاب النصوص المتعلقـة بأحداث حرب التحريـر ضد الهكسـوس ، وقد ذكـر مـن خـلال هذه النصوص دوره ومشـاركته فـى حمـلات الملـك لمطـاردة الغـزاة الأسـيويين ، وذكـر قيـام الملـك « أحمس الأول » بحملة على جاهى بلبنان ، حيث لم يتم ذكر هذه الحملة الحربيـة فـى أى مصدر تاريخى آخر .. استمر تواجد القائد العسكرى « أحمس بن نـخبت » فى صفوف الجيش المصرى خلال عهد الملك « أمنحتب الأول » حيث خاض القتال معه فى كوش ، وكذلك الملـك « تحـوتمس الأول » حيث خاض القتال معه فى كوش ونـهرين ، ولقد ذهب مع الملك « تحوتمس الثانى » فـى حملة حربية ضد بدو الشاسو .. ولقد تبين من خلال نصوص السيرة الذاتية للقائـد « أحمس بـن نخبت » أنـه قد نـال الكثيـر مـن التكريم والتقدير أثنـاء عملـه العسكرى مـن قبـل ملـوك مصـر المحـاربين ، حيـث أعطـى الكثيـر مـن الأنـواط العسـكرية المصـنوعة مـن الـذهب وكـذلك الحلـى والأسلحة الذهبية بسبب شجاعته وبطولاته العسكرية التى قدمها فى ساحات القتال.

ولم يغب دور المرأة المصرية عن النضال فى حرب التحرير ، وقد بدا هذا الدور واضحا فى شـخص الملكـة العظيمـة « إعـح حتـب » زوجـة الملـك « سـقتن رع » وأم الملكـين « كـامس » و« أحمس الأول » ، ويدل علـى ذلـك نـص علـى لوحـة حجريـة عثـر عليهـا أمـام الصـرح الثـامن بالكرنك يبدأ بألقاب الملك « أحمس » وأعماله ، ثم تأتى بعد ذلك فقرة خاصة بأمه الملكـة « إعح حتب » يـأمر فيهـا الجميـع بتمجيـدها كالتـالى : « امـدحو سيدة الأرض ، سيدة الحـاونبو (جـزر البحـر المتوسـط) ، زائعـة الصيت فـى كـل بلـد أجنبـى ، هـى التـى تضـع الخطـط للنـاس ، زوج الملك ، أخـت الملـك ، فلـتعش سليمة معافـة ، ابنـة الملـك ، أم الملـك ، النبيلـة ، العالمـة (التـى تعـرف الأشـياء) ، التـى تـرعى شئون مصـر ، والتـى اهتمـت بـأمر جيشـهـا ، ووضعـت تحت رعايتها ، هى التـى أعـادت الـهـاربين ، وجمعت الفـارين ، هـى التـى هدأت الجنـوب ، وأخضـعت ثائريه ، زوج الملك ، إعح حتب ، فلتحيا » .. هذه الأوصاف التى خلدها الملك « أحمس الأول » على هذه اللوحـة تـدل دلالـة واضـحة علـى الـدور الكبيـر الـذى لعبتـه أمـه فـى صـراع مصـر ضـد الغزاة الـهكسوس ، فهـى القـوة التـى ساعدت علـى خلـق الـروح الوطنيـة واشـعال نـارهـا ، وهـى الـروح التـى بثـت فـى المصـريين الشـجاعة ، فـدفعتهم لأن يهبـوا دفعـة واحـدة يطـالبون بالحريـة والاستقلال وطرد الغزاة من البلاد .. ولقـد ظلت « إعح حتـب » تكافح مع زوجها إلى أن قتـل فـى

معركة الشرف ، فدفعها ذلك إلى أن تحمل العبء فساعدت ابنها « كامس » بكل ما أوتيت من قوة ، ثم جاء من بعده « أحمس » الذى أخذ على عاتقه مهمة تخليص مصر من براثن المحتلين ، ليعيد إليها كرامتها المسلوبة ويزيح عنها ما لحق بها من هوان.

فجر جديد ..

وهكذا بدأت مصر حقبة جديدة ومجيدة من تاريخها بعد تحرير الأرض ودحر المحتلين الهكسوس واستئصال شأفتهم من صفحات التاريخ .. واعتبر الملك « أحمس الأول » بطل التحرير من قبل المؤرخين بل ومن قبل المصريين القدامى أنفسهم قائداً لأمة منتصرة ولأسرة حاكمة جديدة هى الأسرة الثامنة عشرة على الرغم من ارتباطه بالأسرة السابعة عشرة ، إلا أن انتصاره التاريخى الفريد قد جعل المصريين فى نصوصهم التاريخية وكذلك المؤرخ المصرى « مانيتو » يضعونه على رأس الأسرة الثامنة عشرة .. وعرفت تلك الحقبة الجديدة والفريدة من تاريخ مصر باسم عصر الدولة الحديثة أو عصر الإمبراطورية المصرية ، والتى بدأت تاريخياً ببداية عهد الملك « أحمس الأول » عام ١٥٥٠ ق. م وسوف تستمر حتى عام ١٠٦٩ ق. م .. ويمكننا القول أن « أحمس الأول » كان بمثابة الأب الروحى للإمبراطورية المصرية فى منطقة الشرق الأدنى والتى أفضل أن أطلق عليها إمبراطورية الشمس ، وتجدر الملاحظة أن « أحمس الأول » فى حربه مع الهكسوس قد حرص وبكل إصرار وتصميم على محوهم وإبادتهم وليس على تحرير تراب مصر من دنسهم فحسب ، ويدل على هذا إصراره على حصارهم فى شاروهين بجنوب كنعان (فلسطين) ومطاردتهم حتى منطقة جاهى الممتدة على سواحل بلاد الشام ، حتى أن ذكرهم فى صفحات التاريخ من خلال النصوص المصرية فى الفترات التى ستعقب عهده سيتلاشى تدريجياً إلى أن يتحول لمجرد ذكرى لشعب مغتصب محتل أسقطته مصر الخالدة كنانة الله فى أرضه !

* * * * *

المراجـع

- Gardiner, A.H., ‘The Defeat of the Hyksos By Kamose: The Carnarvon tablet, No. 1’, JEA 3 (1916).
- Gunn, B. and Gardiner, A.H., ‘The Expulsion of the Hyksos’, JEA 5 (1918).
- Habachi, L., ‘Preliminary Report on Kamose Stela’, ASAE 53 (1955).
- Habachi, L., The Second Stela of Kamose, and his Struggle against the Hyksos Ruler and his Capital, Glückstadt (1972).
- Hayes, W.C., ‘Egypt from the Death of Ammenmes III to Seqenenra II’, CAH, Vol. II, Cambridge (1962).
- Montet, P., Le Drame d’ Avaris, Paris (1940).
- Redford, D.B., History and Chronology of the Eighteenth Dynasty of Egypt, Toronto (1967).
- Redford, D.B., History and Chronology of Seventeenth Dynasty of Egypt, Toronto (1967).
- Ryholt, K., The Political Situation in Egypt during the Second Intermediate Period, c. 1800-1550 BC., Copenhagen (1997).
- Smith H.S. and Smith, A.L., ‘A Reconsideration of the Kamose Texts’, ZÄS 103 (1976).
- Stadleman, R., ‘Ein Beitrag zum Brief des Hyksos Apophis’, MDAIK 20 (1965).
- Stadleman, R., ‘Auaris’, LÄ I (1975).
- Vandersleyen, C., Les Guerres d’ Amosis, fondateur de la XVIII dyanstie, Brussels (1971).
- Vandersleyen, C., ‘Ahmose Sohn der Abina’, LÄ I (1975).
- Vandersleyen, C., ‘Seqenenre’, LÄ V (1984).

الفصل الثانى

بزوغ شمس الإمبراطورية المصرية فى الشرق الأدنى القديم

حين تخلصت مصر من احتلال الهكسوس البغيض بعد معارك حرب التحرير المجيدة التى خاضها الجيش المصرى بقيادة الملك « أحمس الأول » (١٥٥٠ – ١٥٢٥ ق.م) مؤسس الأسرة الثامنة عشرة وأول ملوك عصر الدولة الحديثة ، والذى عمل على تتبع الهكسوس حتى جاهى واستئصال شأفتهم تماماً ، رأى الملوك الأوائل للأسرة الثامنة عشرة أن خير وسيلة للحفاظ على أمن البلاد هو اتباع استراتيجية التوسع العسكرى شرقاً وجنوباً بغية تكوين الإمبراطورية المصرية ، ولحماية حدود مصر من تكرار مثل هذه النوعية من الغزوات المريرة مرة أخرى .. ومن ثم فقد قام الملوك الأوائل للأسرة الثامنة عشرة بمجموعة من الحملات الحربية المهمة على سوريا وفلسطين والنوبة ، كانت ذات أثر كبير فى توطيد النفوذ السياسى والحربى لمصر فى منطقة الشرق الأدنى القديم ، والتى شهدت بزوغ شمس الإمبراطورية المصرية فيها.

أحمس الأول وغزو النوبة ..

بمجرد أن أنتهى الملك « أحمس الأول » من حروبه ضد الهكسوس ، وبعد أن قام بالاستيلاء على شاروهين (جنوبى غزة) ، واستطاع أن يؤمن الحدود الشرقية لمصر الموحدة ، أتجه إلى بلاد النوبة ، والتى يبدو أن أصحاب بعض من مناطقها قد استغلوا فرصة ضعف الرقابة عليها ، وانشغال المصريين بمحاربة الهكسوس ، فشقوا عصا الطاعة ، وأغاروا على الممتلكات المصرية ، وخربوا حصن النوبة ، مما دفع « أحمس » إلى الاتجاه نحو الجنوب لاستعادة السيادة المصرية هناك بثلاث حملات حربية .. ويرى بعض المؤرخين أن توجه « أحمس الأول » إلى غزو النوبة قد حدث فى العام الثانى والعشرين من حكمه. والجدير بالذكر أن أهم مصدر لنا عن هذه الحملات قد عرفناه من نصوص القائد العسكرى « أحمس بن إبانا » المسجلة على جدران مقبرته بالكاب.

ولقد تمكن الملك « أحمس الأول » من تحقيق النصر فى حملاته الحربية على النوبة ، ولا نعرف تحديداً إلى أى مدى وصلت حملات الفرعون جنوباً ، وإن كانت الآراء تتجه إلى منطقة الجندل الثانى على الأقل ، وأن الفرعون بسط نفوذه على أطلال قلعة بوهن القديمة. وقد عين « أحمس الأول » رجلاً يدعى « تورى » قائداً لحصن بوهن ، وهو نفس الشخص الذى حكم النوبة وأول من حمل اللقب المميز لحكام النوبة خلال عصر الدولة الحديثة « ابن الملك المشرف على الأراضى الجنوبية » أى نائب الملك فى النوبة ، وذلك خلال عهد الملك « أمنحتب الأول » (١٥٢٥ ـ ١٥٠٤ ق. م) فى العام السابع من حكمه .. ولقد ظهر اسم الملك « أحمس الأول » على قلعة تم انشاؤها بجزيرة صاى إلى الشمال من الجندل الثالث ، مما يؤكد على وصول الجيوش المصرية إلى هناك خلال عهده.

رؤية إستراتيجية جديدة ..

فى أعقاب تحرير مصر من الهكسوس رأى الملوك الأوائل للأسرة الثامنة عشرة أنه من الأفضل الاتجاه نحو آسيا على حساب الاتجاه نحو الجنوب ، وذلك على عكس ملوك عصر الدولة القديمة وملوك عصر الدولة الوسطى ، فقد أعتقد ملوك طيبة أن سياسة تأمين الحدود الجنوبية قد حققت أهدافها وذلك بعد الوصول إلى الجندل الرابع بالقرب من نباتا خلال إعادة غزوهم للنوبة مرة أخرى فى مطلع الأسرة الثامنة عشرة والذى سنشير إليه لاحقاً. فبينما كان الطابع العام للسياسة الخارجية فى عصر الدولتين القديمة والوسطى هو الدفاع ، بدأ ملوك الدولة الحديثة سياسة الهجوم ، ويمكن أن نقول عنها أيضاً سياسة الدفاع وتأمين الحدود فى الوقت نفسه .. هذا الاتجاه كان جديداً فى مصر ، فقد كانت السياسة التقليدية لملوك مصر تجاه آسيا هو الحذر والدفاع ، ولكن هذه السياسة باءت بالفشل بسبب طبيعة الأحداث نفسها وحدوث الغزو الأجنبى لمصر على يد الهكسوس ، وهو الغزو الأجنبى الأول فى تاريخها. وعلى مدى أكثر من قرن ، قاست مصر من نير الاحتلال الأجنبى ، فأخذت مصر تبحث عن طريقة تتجنب بها عودة مثل هذه الكوارث الخارجية مرة أخرى ، وأعتقد ملوك هذا العصر أن التحرك والهجوم هما الوسيلتان الفضليان لمنع الغزوات المهينة التى تعرضت لها البلاد على غرار غزو الهكسوس ، فتركز اهتمامهم على الجيش وتنمية قدراته الدفاعية والهجومية ، وقد أثبتت

الأحداث نفسها صحة هذا الاتجاه .. ولقد أدرك المصريون كذلك أنه لا أمان لتجارتهم الخارجية من اعتداءات الهكسوس إلا إذا أبعدوهم عن مسالكها جهد ما يستطيعون ، وأنه لا أمان لهم من غزو هجرات شعوبية جديدة إلا إذا سيطروا بأنفسهم على مداخل الهجرات فى شمال سوريا وأطراف العراق. ويبدو من شواهد الأحوال أن فلول الهكسوس بعد هزيمتهم الأخيرة أمام الملك « أحمس الأول » فى شاروهين ، قد اضطربوا فى بقاع الشرق القريب يضربون بين أقاليمه المختلفة ابتغاء الفتنة ، وأنهم أحسوا صدى دعوتهم فى بلاط بعض الأمراء السوريين الذين باتوا يخشون خطر المصريين وازدياد قوتهم وتقدمهم فى الزحف بين بلاد الشرق الأدنى القديم.

وانطلاقاً من كل هذا ، فلقد أدرك المصريون حقيقة الخطر القائم عند الحدود الشرقية ، وعلى ذلك فقد أيقنوا أن حدودهم الشرقية إنما تبدأ فى سوريا ، وأن البوابة الفعلية تقع عند جبال طوروس ، وأن البلاء الذى قد يحل بمصر لابد أن يقضى فى طريقه على بلاد الشام ، فهو بلاء مشترك لا تستطيع الدويلات السورية أن تصده وحدها ، فهى ليست لها الكيان السياسى للدولة الموحدة – كما كان الأمر فى مصر منذ أكثر من ستة عشر قرناً – ومن ثم فهى ليست بقادرة على صد هجرات جديدة أو كسر شوكة الهجرات الموجودة على أطرافها ، دون دفع داخلى أو عون خارجى .. ومن هنا توسعت الإمبراطورية المصرية إلى حدودها القصوى كلما أمكنها ذلك ، لا كالاستعمار بالمعنى المفهوم ، وإنما لنشر السلام المصرى ، حتى أنه ليمكن القول أن الإمبراطورية المصرية كانت فى جوهرها ، وفى معنى ما « إمبراطورية دفاعية » أساساً ، حتمتها ظروف الصراع الاقليمى والاستراتيجية العريضة فى الشرق الأدنى القديم .. وعلى ذلك فقد أدرك فراعنة مصر خلال عصر الدولة الحديثة أن السياسة الوحيدة الفعالة إبان تلك الحقبة هى السيطرة الحربية لطريق الغزو من وديان العاصى (الأورنت) والأردن أو سوريا وكنعان ، ووضع قوة لمنع الاحتكاك عند مدخل ممر الغزو فى إقليم حلب بين الفرات والعاصى.

ومن ثم فقد هدفت الاستراتيجية العسكرية المصرية خلال عصر الدولة الحديثة إلى تكوين مناطق خاضعة للنفوذ المصرى سياسياً فى سوريا ، وذلك دون أن يكون من وراء هذه السياسة أى فكر استعمارى للتوسع أو للاحتلال أو حكم شعوب أخرى بالقوة العسكرية ، ولكن سعى

المصريون إلى تكوين سياج من الصداقة من أجل المحافظة على المصالح المتبادلة والدفاع عن الموالين لصداقة مصر والتصدى لأعداء النفوذ المصرى .. وفى الواقع فقد كانت سياسة ملوك مصر الخارجية منذ عصر الدولة القديمة خالية من فكرة التوسع أو الجور على الآخرين لأن هذا كان جزءاً من طبيعة وتكوين الشخصية الحضارية المصرية ، ولم تكن تميل هذه السياسة إلى تكوين إمبراطورية مترامية الأطراف أو حكم شعوب أخرى بالقوة العسكرية كما كان يروج دائماً بعض علماء الدراسات المصرية من الغربيين ، وهو الأمر الذى لا يتفق معه بعض علماء المصريات من المصريين.

أما عن الاستراتيجية المصرية نحو الجنوب ، فقد أصبحت الحملات الحربية المصرية على بلاد النوبة (كوش) هدفاً استراتيجياً دائماً بالنسبة للجيش المصرى طوال عصر الدولة الحديثة ، وقد دأب ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة على شن الحملات الحربية هناك بغرض القضاء على أى تمرد قد تلقاه السيادة المصرية ولتوطيد الحكم المصرى فى تلك الجبهة الجنوبية ذات الأهمية البالغة بالنسبة لمصر ولإمبراطوريتها الشاسعة ، وهو الأمر الذى أكدت عليه الأدلة الأثرية والنصية المختلفة التى أوضحت لنا السياسة الحربية المصرية تجاه الجنوب خلال عصر الدولة الحديثة .. وترجع أهمية النوبة لمصر إلى حاجة مصر إلى مواد خام معينة تفتقر إليها أو يندر وجودها فيها ، وفى مقدمتها الذهب الذى وجدت مناجمه فى وادى حلفا ، هذا إلى جانب حاجة المصريين إلى الإبقاء على طريق الجنوب مفتوحاً ، فالبخور والصمغ والعاج والأبنوس والفهود انما كانت تأتى من وراء الجندل الثانى بمسافات طويلة فى اتجاه الجنوب ، كما كان للنوبة دورها كممر تجارى فى إقامة حلقة اتصال بين منتجات أفريقيا ودول البحر المتوسط وغربى آسيا منذ الألف الرابع قبل الميلاد على الأقل.

أمنحتب الأول وبداية الزحف ..

خلف « أحمس الأول » على عرش مصر ابنه « أمنحتب الأول » (١٥٢٥ – ١٥٠٤ ق.م) ، فأتبع خطى والده وسار على نفس سياسته ، فخرج على رأس جيشه إلى ما وراء الحدود المصرية فى الشمال الشرقى. وتعوزنا الأدلة الأثرية والنصية التى توضح تفاصيل حروبه فى بلاد الشام ، وإن كان يستدل من نص كتبه ابنه وخليفته « تحوتمس الأول » حين ولى العرش

وذكر فيه أن مملكته تمتد إلى الفرات ، مع أنه لم يكن قد قام بعد بحملة ما ، مما يشير إلى أن إخضاع المنطقة الواقعة إلى الشمال الشرقى من مصر حتى الفرات قد تم فى عهد سلفه. كما يلاحظ كذلك ورود اسم دولة ميتانى فى نصوص أحد رجال الملك " أمنحتب الأول " وذلك لأول مرة فى النصوص المصرية ، ويشير ذلك إلى أن جهود " أمنحتب الأول " الحربية قد ترتب عليها زيادة المعرفة بأحوال الشرق القديم وأحوال دوله. وقد كانت دولة ميتانى ، دولة آرية الأصل ، نزلت جماعاتها فى شمال شرق سوريا وأطراف العراق منذ أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد وتركزت أهم مدنها على نهرى الخابور والفرات.

ولم تغب الجبهة الجنوبية فى بلاد النوبة عن حملات الجيش المصرى خلال عهد الفرعون " أمنحتب الأول " ، ففى العام الأول من حكمه اضطر الملك الشاب للذهاب إلى النوبة لإخماد تمرد قام به السكان المحليين ، الذين ظنوا فيما يبدو أن الفوضى التى صاحبت تغيير الحكام فرصة ممتازة يمكن أن يغتنموها للتخلص من السيطرة المصرية ، والتهرب من أداء الجزية. وتؤكد الأدلة الأثرية أنه قد وقعت على القائد " أحمس بن إبانا " الكابى مسئولية نقل الملك وقواته إلى الجنوب ، ويبدو أن الفرعون قد أشترك شخصياً فى المعركة ، وأنه " ... كان يزأر كالنمر ، وأطلق جلالته أول سهم فغرس فى عنق العدو " ، وقد رقى القائد " أحمس بن إبانا " أثناء هذه الحملة إلى رتبة " رئيس البحارة " .. وأنتهت الحرب بسرعة وهدأ النوبيون مرة أخرى ، وعلى الصخور الجرانيتية فى الضفة الشرقية المقابلة لجزيرة تومبوس بمنطقة الجندل الثالث ، عثر على نقش مؤرخ بالعام الثانى من حكم " أمنحتب الأول " يصف بعبارات شعرية انتصاراته الحربية العظيمة ، فنقرأ " تقدم إلى نهاية العالم بقوته الظافرة ، باحثاً عن أحد يحاربه ، فلم يجد أحداً يمكنه أن يقف فى وجهه ، إنه سار فى وديان لم يرى فيها أحداً من الملوك السابقين ، وخضعت له جزر النهر ، وكل الأرض أصبحت تحت قدميه ... ".

ويبدو أن الفرعون قد قام بحملتين أو ثلاث فى بلاد النوبة وما وراءها ، فيتضح لنا من خلال النصوص التى تركها لنا القائدان الشهيران " أحمس بن إبانا " و" أحمس بن نخبت " ، أن الأول قد ذهب فى حملة مع الفرعون ضد الأونيتيو (النوبيين) الذين ربما سكنوا الصحراء إلى الشرق أو الغرب من وادى النيل واعتادوا أن يغيروا على السكان الذين يقطنون النوبة المصرية ، وقد ذهب إلى هناك ليوسع حدود مصر على حد قوله ، حيث يقول فى نصوصه :

" أبحرت مع الملك جسر كارع (أمنحتب الأول) المبجل عندما توجه جنوباً إلى كوش لتوسيع حدود مصر ، وقبض جلالته على الحاكم الكوشى وسط جنوده ". ويذكر الثانى حملة واحدة ضد كوش نجح أثناءها فى القبض على أسير.

أما عن حملات " أمنحتب الأول " فى الجبهة الغربية (الليبية) ، فقد أشار القائد الشهير " أحمس بن نخبت " إلى ذلك الأمر من خلال جملة واحدة فى نقوش مقبرته ، حيث أشار إلى أنه ذهب فى حملة حربية مع الملك ضد الليبيين ، وأنه استولى على ثلاثة أسرى فى شمال ايامون بلاد كهك (أو ايامو كهك) ، وربما وقعت هذه الأماكن فى الصحراء الليبية لأنها غير معروفة حتى الآن.

تحوتمس الأول وبلوغ الفرات ..

يعد الملك " تحوتمس الأول " (١٥٠٤ – ١٤٩٢ ق. م) هو أول من وضع اللبنة الأولى فى سياسة تكوين مناطق نفوذ خارجية لمصر فى آسيا ، وربما أيضًا كان سببًا فى نجاحها واستمرارها لفترة ما. فبعد أن عاد الملك " تحوتمس الأول " من حملته الحربية الأولى على بلاد النوبة ، قام بحملة على فلسطين وسوريا ، ثم وصل إلى نهر الفرات فى العراق ، والذى أسماه المصريون باسم (النهر ذو المياه المعكوسة) ، إشارة إلى أنه يجرى من الشمال إلى الجنوب ، أى عكس نهر النيل الذى يجرى من الجنوب إلى الشمال. وبعد أن أقام لوحته على ضفاف الفرات معلنًا انتصاره وحدود إمبراطوريته ، قضى هناك بعض الوقت فى الصيد ، وخاصة صيد الفيلة فى منطقة نى ، وأرسل عددًا منها إلى معبد آمون بالكرنك .. ويبدو أن الهدف من الحملة على سوريا لم يكن سوى مظاهرة عسكرية لإظهار قوة مصر. ولقد نجح الفرعون من خلال حملته الحربية هذه فى اختراق منطقة الفرات إلى بلاد نهرين حيث يحكم ملك ميتانى فى شمال شرق سوريا ، قرب نهر الخابور والفرات ، وقد استعان " تحوتمس الأول " بالتحركات القوية الخاطفة ، ومرق بجيشه من مصر عبر سوريا فى سرعة غريبة دون مقاومة كبيرة ، حتى بلغ أرض نهرين (ميتانى) ، حيث أقيمت لوحة تذكارية عند قرقميش ، وحيث حدثت مذبحة ضخمة ، وأخذ الكثيرين من الأسيويين كأسرى.

ويمكننا القول بأن الملك " تحوتمس الأول " قد واصل سياسة أسلافه فى بلاد الشام ، فعمل

على السيطرة على مداخل التجارة ومداخل الهجرات فى شمال سوريا وأطراف العراق .. والجدير بالذكر أن الفرعون " تحوتمس الأول " قد ذكر عن نفسه من خلال أحد النصوص ما يدل على طبيعته العسكرية فذكر " إن ساعة الحرب أشهى عندى من يوم هنى ". كما وصفت النصوص المصرية حملاته الحربية بأنه استطاع أن يمد حدود مصر " من قرن الأرض فى الجنوب ، إلى أطراف المياه المعكوسة فى الشمال " ، أى من جبل البرقل والجندل الرابع فى الجنوب ، حتى أطراف مياه الفرات فى الشمال .. ولعل خير وصف لتلك الحروب التى قد خاضها والانتصارات التى حققها " تحوتمس الأول " فى الشرق والجنوب قد تجسد من خلال تلك العبارة التى سجلها على إحدى لوحاته قائلاً : " لقد أطلقت حدود مصر إلى ما تحيط الشمس به ، وعوضت أهلها بعد خوفهم قوة ، وأقصيت الشر عنها .. وجعلتها فوق رأس الدنيا كلها ، وجعلت الجميع أتباعاً لها ".

القضاء على مملكة كوش وبلوغ الجندل الرابع ..

كانت تلك الحملة الحربية الحاسمة التى خاضها " تحوتمس الأول " فى بلاد النوبة سابقة لحملته الأسيوية التى تحدثنا عنها والتى بلغ فيها بالجيش المصرى نهر الفرات ، ولقد سجلت تفاصيل هذه الحملة من خلال نقش صخرى كبير ، عثر عليه منحوتًا فى الصخر فى مواجهة جزيرة تومبوس (وراء الجندل الثالث) ، وعلى مبعدة ٣٢٠ كم جنوبى وادى حلفا ، فضلاً عن نصوص السيرة الذاتية للقائد " أحمس بن إبانا " فى مقبرته بالكاب ، حيث تشير النصوص إلى أن الغرض من هذه الحملة كان مد الحدود الجنوبية لمصر إلى الحد الذى كان الفرعون يعتقد أنه مداها الطبيعى ، حتى وصل إلى منطقة تقع على مقربة من الجندل الرابع .. وقد ذكرت نصوص الفرعون حدوث تمرد من قبل كوش على السيادة المصرية مع بداية حكمه ، فقاد الفرعون جيشه عبر النهر للقضاء على التمرد وحقق النصر على الكوشيين فى معركة حاسمة ، ومع انتصاره فى المعركة قام الفرعون بقتل حاكم كوش بنفسه ، بل وعلق جثمانه فى سفينته التى عاد بها عبر نهر النيل إلى العاصمة طيبة محتفلاً بانتصاره على الكوشيين .. ويبدو أن الجيوش المصرية بقيادة الفرعون قد وصلت حتى منطقة الجندل الخامس ، بعد أن قام بالهجوم على مدينة كرما واستولى عليها ، ليضع بذلك نهاية حاسمة لمملكة كوش.

وقد شيد « تحوتمس الأول » سلسلة من الحصون فى تومبوس وعلى جزيرة صاى كما تشير لوحته التى أقامها فى تومبوس ، ولا شك أنه فى أواخر عصره كانت النوبة فى يد قوية. كما عمل الفرعون على إعادة بناء الكثير من حصون الدولة الوسطى ووسع بعضها ، ويبدو أن هذا العمل قد تم إنجازه تحت إشراف حاكم النوبة وقتها « تورى ».

تحوتمس الثانى وقهر التمرد فى البقاع الجنوبية ..

بدأ الملك « تحوتمس الثانى » (١٤٩٢ – ١٤٧٩ ق. م) حكمه بالقضاء على ثورة فى الجنوب ، بالقرب من الجندل الثالث ، على أنه لم يقم بحملة تأديبية ، بل أغلب الظن أنه قد اكتفى بقضاء القوات العسكرية التى كانت تقطن فى المنطقة على الثورة ، وذلك قبل وصول قوات الملك ، ولكنه وصل حتى الجندل الأول ، واستعرض الأسرى الذين جىء بهم من الجنوب .. وقد جاء ذكر هذه الثورة فى بلاد كوش على لوحة أقيمت على الطريق بين أسوان وفيلة ، وتذكر نقوشها أنه « لما علم جلالته بذلك ثار كالفهد ، وأقسم أنه لن يدع أى رجل من هؤلاء حياً » ، وبالفعل قضى على هؤلاء الثوار. ويذكر النص : « جاء أحدهم ليبلغ جلالتى بالآتى .. إن كوش الخاسئة بدأت تثور ، هؤلاء الذين كانوا تحت إمرة سيد الأرضين يعتزمون العدوان وبدأوا يضربون .. ثم وصل جيش جلالته إلى كوش الخاسئة .. إن جيش جلالته قد قهر البرابرة ، ولم يترك أحداً من ذكورهم حياً ، وذلك حسب أوامر جلالته ، ووضعوا تحت أقدام الملك الطيب ، إذ إن جلالته ظهر على عرشه عندما أحضروا الأسرى الأحياء الذين قبض عليهم جيش مصر .. وأصبحت هذه الأرض تابعة لجلالته كما كان الحال من قبل ».

والجدير بالذكر أن الجبهة الأسيوية قد شهدت تحركاً عسكرياً مهماً من قبل الملك « تحوتمس الثانى » ، حيث قام بحملة حربية فى آسيا ضد قبائل بدو الشاسو ، وقد ذكر القائد « أحمس بن نخبت » من خلال نصوصه مرافقته للفرعون فى هذه الحملة فى فلسطين.

* * * * *

المراجـع

- Emery, W.B., Egypt in Nubia, London (1965).
- Gardiner, A.H., Egypt of the Pharaohs, Oxford (1964).
- Grimal, N., A History of Ancient Egypt, Oxford (1992).
- James, T.G.H., 'Egypt: From the Expulsion of the Hyksos to Amenophis I', in: CAH, II, Part 2, Cambridge (1973).
- Leclant, J., Egypt in Nubia during the Old, Middle and New Kingdom, New York (1978).
- Morkot, R.G., Historical Dictionary of Ancient Egyptian Warfare, Oxford (2003).
- Newby, P.H., Warrior Pharaohs, London (1980).
- Säve-Söderbergh, T., Ägypten und Nubien, Berlin (1941).
- Spalinger, A.J., War in Ancient Egypt, Malden (2005).
- Taylor, J.H., Egypt and Nubia, London (1991).
- Trigger, B.G., Nubia under the Pharaohs, London (1976).
- Weigall, A., Histoire de L' Egypte Ancienne, Paris (1968).

الفصل الثالث

تحوتمس الثالث وذروة المجد الحربى

فى العام ١٤٥٦ ق. م كانت مصر والشرق الأدنى القديم على موعد مع ملك فريد وقائد عسكرى فذ وسياسى محنك هو الفرعون المحارب العظيم « تحوتمس الثالث » ، الذى أنفرد بحكم مصر فى هذا العام على الرغم من أن سنوات حكمه الرسمية كانت تعود إلى العام ١٤٧٩ ق. م ، إلا أن استيلاء الملكة « حتشبسوت » على حقه الشرعى فى حكم مصر وتنحيته جانباً مستغلة نفوذها السياسى القوى فى البلاط الملكى والدولة من ناحية وصغر سنه من ناحية أخرى قد حالا دون أن يخلف والده « تحوتمس الثانى » على عرش مصر مباشرة ، حتى واتته الفرصة أخيراً عقب وفاة الملكة الفرعون فى الانفراد بحكم مصر.

ارتبط « تحوتمس الثالث » فكرياً وعقائدياً بحروب وغزوات أجداده الملوك الأوائل للأسرة الثامنة عشرة فى آسيا والنوبة .. ويبدو أن مصر لم تكن قد تناست بعد تجربتها التاريخية المريرة مع الغزاة الهكسوس الذين استعبدوا الشعب المصرى مدة قرن ونصف قرن من الزمان ، وكان لا يزال عالقاً فى أذهان المصريين أن بقايا هؤلاء الغزاة كانوا لا يزالون يقطنون آسيا ، على الرغم من امتداد فتوح الملوك الأوائل للأسرة الثامنة عشرة حتى نهر الفرات .. كما يبدو أن « تحوتمس الثالث » قد تشرب هذه الروح الحربية والوطنية من كهنة آمون الذين نشأ بينهم فى الكرنك ، حيث كان آمون إله طيبة هو الذى حارب المصريين الغزاة الهكسوس تحت رايته وحققوا النصر والتحرير – فيما اعتقدوا – بمشيئته ، والذى سوف يخوض « تحوتمس الثالث » غزواته وفتوحاته تحت رايته كذلك ، مؤمناً بأنه يخوض حرباً دينية مقدسة لاخضاع العالم القديم لآمون رع رب الأرباب وسيد طيبة ، فيبدأ نصوصه الحربية التى سجلها عن معاركه وحملاته الكبرى على سوريا وفلسطين بالكرنك قائلاً : إنه يريد « أن يقهر العدو الخسيس ، وأن يمد حدود مصر ، وفق أوامر أبيه آمون » .. فهكذا كانت العقيدة الدينية والوطنية التى حارب الجيش المصرى تحت رايتها بقيادة هذا الفرعون المحارب العظيم ، والتى تجسدت فى تقديس حدود مصر إلى أقصى مدى والعمل على توسعتها وفقاً لمشيئة آمون رع

سيد طيبة .. ومن ثم فإنه لم يكن غريباً أن نشاهد فى نصوص وآثار « تحوتمس الثالث » ارتباطه الوثيق بالملك المحارب العظيم « سنوسرت الثالث » فاتح بلاد النوبة وصاحب اللوحة العظيمة التى حذر فيها خلفائه من ملوك مصر وبنى وطنه ألا يتراخوا فى المحافظة على الحدود المصرية التى قام بمدها حتى الجندل الثانى جنوباً بحد السيف ، فقام « تحوتمس الثالث » بتمجيده وتقديسه ورفعه إلى مصاف الآلهة بعد وفاته بحوالى خمسمائة عام ، وقد تجلى هذا على جدران معبد عمدا ببلاد النوبة.

وعلى أية حال فقد كان « تحوتمس الثالث » واحداً من أبرع وأعظم وأقدر وأشهر القادة المحاربين فى تاريخ العالم على وجه الاطلاق ، وقد رأى الكثير من المؤرخين أنه لم يكن أعظم الملوك المحاربين فى عصر الأسرة الثامنة عشرة أو تاريخ مصر القديمة فحسب ، بل فى التاريخ القديم على وجه الاطلاق .. وكان ذلك مرجعه إلى الرؤية الاستراتيجية والمقدرة العسكرية الفذة التى تمتع بها فرعون مصر المحارب ، والتى استطاع تنفيذها من خلال المعارك التى قاد فيها جيش مصر لتحقيق انتصارات حربية ساحقة فى آسيا كان لها الفضل فى جعل مصر القوة السياسية والحربية الأولى والعظمى فى منطقة الشرق الأدنى القديم لسنوات طويلة .. كما كان للتكتيكات العسكرية وخطط التطوير الاستراتيجى التى عمل « تحوتمس الثالث » على تحقيقها داخل المؤسسة العسكرية المصرية عظيم الفضل فى وصول الجيش المصرى إلى درجة رفيعة من التطور والتنظيم جعلته القوة الضاربة الأكبر والأعظم فى التاريخ القديم ، وذلك حسبما أتفق الغالبية العظمى من المؤرخين.

والجدير بالذكر أن حروب وحملات « تحوتمس الثالث » قد خلدت على جدران بعض ردهات معبد آمون بالكرنك وعرفت هذه التقارير الحربية والنصوص التاريخية المنقوشة هناك لدى المؤرخين باسم « حوليات تحوتمس الثالث » ، والتى كانت واحدة من أطول وأهم النصوص التاريخية فى مصر القديمة ، بالإضافة إلى كونها تعد السجل الأكثر تكاملاً للمشروعات العسكرية التى قام بها أى ملك من ملوك مصر القديمة .. كما حرص الفرعون على تسجيل الكثير من أعماله الحربية من خلال لوحته التى عثر عليها فى معبد آمون بجبل البرقل بالقرب من الجندل الرابع ببلاد النوبة.

معركة مجــدو ..

فـى نـهايـة عهـد الملكـة " حتشبسـوت " بـدأ التململ مـن الحكـم المصـرى يسـود العديـد مـن الولايات الأسيوية ، وقد ساعدهم على ذلك انصراف الملكة عن الاهتمام بالشئون الخارجيـة فـى آسيا إلى الاهتمام بالشئون الخارجية لمصر فى أفريقيا. وقد ظهرت هذه التيارات فى نـهاية حكم " حتشبسوت " على هيئة خروج على الحكم المصرى لم يأخذ صـورة فرديـة أو قبليـة ، بـل كـان مؤامرة منظمة ضد السيادة المصرية ، أمسك بخيوطها أمير مدينة قـادش السـورية الـذى انتهز الفرصة ليوغر صدور الأعداء عليها .. وكانـت دولـة ميتـانى الآريـة الأصل الطامحـة فـى فرض نفوذها السياسى والحربى فى المنطقة ، تعمل فى الظل وتساند هذا التمرد القائم ضد النفوذ المصرى فـى آسيا ، حيـث كانـت تخشـى هـذا النفـوذ السياسـى والحربـى كثيراً علـى مصـالحها السياسية والاقتصادية فى المنطقة .. ويبدو أن الهكسوس الذين طردوا من مصر شر طردة لم يهدأوا فـى تـدبير المـؤامرات واذكـاء روح الثـورة والتمـرد ضـد السلطان المصـرى فـى آسـيا ، وسـعوا بكـل مـا أوتـوا مـن قـوة فـى جمـع شـتات القبائـل الأسـيوية وأمرائـها تحت زعامـة أمير قـادش ، ومـن ثـم فقـد ذكـر الملـك " تحـوتمس الثـالـث " فـى نصوصـه عـن نفسـه أنـه " حـارب الهكسـوس الـذين هـاجموه " ، وهـى العبـارة التـى لـم تـرد فـى عهـد أسـلافه بـل وردت فقـط فـى عهده ، وفى عهد خليفته وولده " أمنحتب الثانى " ، مما يؤكد النظريـة القائلـة باستمرار وجـود الهكسـوس فـى المنـاطق الأسـيوية ، واسـتمرار نفـوذهم وسـعيهم الـدئوب فـى مناوئـة الوجـود العسكرى المصرى فـى آسيا كقـوة محركـة خلـف السـتار ، وكمحـرض رئـيس لـدويلات المـدن الأسيوية على الثورة ضد مصر.

دفعت هذه الأسباب أمراء المدن الأسيوية والقبائل علـى انشـاء حلـف منـاهض لمصـر ، ضـم عـدداً كبيـراً مـن الأمـراء بلـغ عـددهم حـوالى ٣٣٠ أميـراً تحـت زعامـة أمير قـادش لأنـه كـان فيمـا يـرى الكثيـرون مـن أصـل ميتـانى ، أو أنـه كـان حليفـاً لهـا علـى أقـل تقـدير. وقـد أسـرع المتحالفون إلى احتلال حصن مجدو وهى تل المتسلم الحالية على الحافة الجنوبية لسهل جزرل وهو مرج بن عامر ، من المنحـدرات الشمالية الشرقية لجبل الكرمـل ، وبـذلك فقـد جعلـوا جبل الكرمل مانعاً طبيعياً فى مواجهة الجيـش المصرى ، فقـد كانت مدينـة مجـدو مركزاً حربياً ومانعاً

طبيعياً لوقوعها بين سلسلة جبال لبنان. وقد تمثلت أهمية مجدو التى قد يعنى اسمها الحصن أو القاطع ، فى أنها كانت تتحكم بموضعها فى الممرات الجبلية التى تعترض طرق التجارة بين العراق وسوريا من ناحية ومصر من ناحية أخرى .. ومن ثم فقد تولى « تحوتمس الثالث » عرش البلاد فى الوقت الذى كانت فيه الشعوب الخاضعة لمصر قد بدأت تخرج على الحكم المصرى ، وتظهر معارضتها له جهراً ، حتى لنرى هذا الملك يبدأ نصوصه الخاصة بحروبه وفتوحاته بقوله : « ابتداء من " يرزا " (شمال اليهودية قرب شاطئ فلسطين) ، وحتى مستنقعات النهر (الفرات) خرجوا على سلطانى ، وشقوا عصا الطاعة على ». ويبدو أن القطاع الجنوبى من فلسطين (بما فيه غزة وشاروهين) قد ظل موالياً للحكم المصرى ، كما يبدو أن الساحل الفينيقى لم يشترك فى الثورة ضد الحكم المصرى.

وتذكر النصوص المصرية أن الفرعون المحارب « تحوتمس الثالث » قد خرج على رأس الجيش المصرى من القاعدة العسكرية المصرية فى شرق الدلتا ثارو ليقود زحف جيشه ويجتاز الطريق الحربى الرئيس ، وكان ذلك فى العام الأول من حكمه (حوالى ١٤٥٦ ق.م) ، وكان هدفه كما ذكرت نصوصه « أن يقهر العدو الخسيس ، وأن يمد حدود مصر وفق أوامر أبيه آمون ». وقد أتبع طريق حورس الحربى ، وهو الطريق الذى يبدأ من حصن ثارو عند القنطرة شرق وينتهى عند رفح ، ووصل إلى غزة بعد تسعة أيام ، قطع خلالها ١٦٠ ميلاً ، وقطع المرحلة الثانية إلى يحم الواقعة على بعد ٩٠ ميلاً من غزة فى عشرة أيام ، وكانت القوات المصرية يبلغ تعدادها ما بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً أغلبهم من المشاة .. وهكذا وصل الفرعون إلى سفح جبل الكرمل ، حيث أقام معسكراً ، وجمع أعضاء مجلس الحرب ليستشيرهم فى أفضل الطرق وأكثرها أمناً لوصول الجيش المصرى إلى مجدو فى أقصر وقت ، ودون أن يتكبد خسائر كبيرة ، أو يتعرض لمفاجأة. وقال لهم : « إن العدو الخسيس فى قادش قد دخل إلى مجدو ، وهو هناك فى هذه اللحظة ، وقد استطاع أن يضم إليه أمراء الأراضى الموالين لمصر حتى نهرين ، من سوريين بخيلهم وجنودهم وشعوبهم ، وأنهم يحاربون فى مجدو ، فماذا ترون ؟ ». وخير « تحوتمس الثالث » أعضاء مجلس الحرب فى اتخاذ الطريق المناسب للوصول إلى مجدو ، وذكر لهم أن هناك ثلاث طرق تدور حول سفح جبل الكرمل ، أولهم ينفتح عند تاعناخ (تعاناقا) – على مبعدة ثمانية كيلومترات إلى الجنوب الشرقى من مجدو –

والثانى إلى ناحية الجانب الشمالى من جفنى وكلاهما رحب متسع ، غير أن كلاً منهما طويل ، وينعطف فى نهايته بعيداً عن مجدو بعض الشىء. وأما الطريق الثالث – وهو طريق عارونا – فهو صعب المرتقى ، وضيق ومحصور بين شعب من جبال الكرمل ، ولا يتسع لأكثر من عربة واحدة ، ولكنه ينفذ رأساً إلى مجدو.

ويعرض الفرعون على قادة الجيش المصرى أمر الطرق الثلاث ، ويطلب منهم الرأى فى اختيار الطريق المناسب ، ويكاد القادة يحسون أن فرعونهم يريد أن يسلك الطريق الصعب ، فيجيبونه : " كيف يستطيع انسان أن يسير على هذا الطريق البالغ الضيق ؟! ". هذا فضلاً عن أن بعضاً منهم قد بدأ يساوره الشك فى الأنباء التى بلغت الفرعون عن دخول الأعداء فى مدينة مجدو ، وخشوا أن يحتل الأعداء مرتفعات الطريق الضيق ويتعقبونهم ، أو أن يحتلوا مخرجه ويتصيدونهم ، فقالوا للفرعون : " هناك نبأ يقول بأن الأعداء ما يزالون فى الخلاء ، يفوقون الحصر عدداً ، ثم أنه لن يستطيع جواد أن يسير بجوار جواد آخر فى هذا الطريق ، فضلاً عن الجنود المدنيين ، وقد تقاتل مقدمتنا هناك ، بينما تظل مؤخرتنا هنا فى عارونا بغير قتال ، إن هناك طريقين ، الأول ينفتح عند تاعناخ ، والآخر إلى الجانب الشمالى من جفنى ، وكلاهما يصل بنا إلى مجدو ، فليسلك مولانا الهمام أى طريق يشاء من هذين الطريقين ، ولا يدعنا نتابع السير فى هذا الطريق الوعر " .. وهكذا دبر القادة أمرهم ، وحاولوا تبرير رأيهم ، وأرادوا أن يؤمنوا جيشهم ضد مفاجآت الطريق ، ولكنهم فضلوا الحذر واللياقة ، فتركوا لفرعونهم اختيار أصلح الطرق إلى مجدو. غير أن الفرعون المحارب العظيم " تحوتمس الثالث " قد أصر على أن يسلك الطريق الوعر حتى يستطيع أن يفاجئ العدو ، ورأى بثاقب نظره وبرؤيته العسكرية المتميزة أن يسلك ذلك الطريق الصعب ، على اعتبار أن العدو لن يتوقع اجتياز الجيش المصرى لهذا الطريق ، بل يستبعد حدوثه تماماً لأنه كان يعنى إفناء الجيش المصرى بأكمله ، ومن ثم فقد ضرب " تحوتمس الثالث " أروع الأمثلة فى القيادة ، حينما أقسم أن يتقدم الجيش فى عبور هذا الطريق على أن يتبعه الجميع ، وهكذا تم اختيار الطريق الأصعب والأكثر خطراً ، وسار الجيش حتى وصل إلى عارونا بعد مسيرة شاقة جداً ، استغرقت يوماً كاملاً ، دون أن تشعر بذلك قوات التحالف الأسيوى تحت زعامة أمير قادش .. وكانت قوات العدو قد تمركزت بالفعل عند الطريق الثانى ، معتقدة أن الجيش المصرى سيسلك

هذا الطريق ، ولكن عبقرية " تحوتمس الثالث " ساقته إلى الطريق الآخر المحفوف بالمخاطر ، حيث كان بإمكان جيش العدو – عند التنبه للأمر – إفناء الجيش المصرى بأكمله ، لكن ذلك كان خارج توقعاتهم .. وباغت " تحوتمس الثالث " العدو الأسيوى وهو مرابط حول مجدو ، وجناحه الأيمن فوق تل فى الجنوب الغربى ، وجناحه الأيسر حول شمالها الغربى. وأصدر الملك القائد أمره بالهجوم وهو على رأس الجيش ، وما لبث العدو أن تقهقر ثم ولى أدباره ، وأسرع تاركاً عتاده ليحتمى بالحصن.

وقد أدت الخطة التى نفذها الملك " تحوتمس الثالث " فى الهجوم على العدو إلى تقهقره للخلف بسبب عدم القدرة الدفاعية وضعف المهارة القتالية بالمقارنة مع كانت تتمتع به القوات المصرية المدربة على سرعة الانقضاض والتكتيك ، مما أدى إلى خلخلة صفوف العدو الأمامية ، وجعل الرعب يدب بين صفوفهم الخلفية كذلك ، فقد كان الهجوم الذى نفذه الجيش المصرى على شكل نصف دائرة ، بالإضافة إلى أن احتلال الجيش المصرى لوادى قنا فى جنوب مجدو ، وسيطرة الجناح الأيسر للجيش على شمال المدينة قد مكن الجيش المصرى من وجود فرصة للانسحاب لديه إذا جانبه التوفيق ، مغلقاً طريق الهروب أمام عدوه فى حالة النصر. كما أن هجوم القوات المصرية كان من القوة بحيث لم يسمح للعدو بالتقهقر أو الانسحاب المنظم ، فقد فروا هاربين تاركين وراءهم متاعهم وأسلحتهم وخيامهم المليئة بالنفائس ، كى ينجوا من الذبح أو الأسر فى خارج أسوار المدينة ، التى أغلقت أبوابها أثناء المعركة خوفاً من أن تقع المدينة فى قبضة الجيش المصرى ، فأدى ذلك الاجراء إلى بث الرعب فى نفوس المدافعين من جيش العدو الأسيوى واحساسهم بالخيانة وأنهم أصبحوا فى قبضة الجيش المصرى ، إذا لم يتمكنوا من دخول المدينة لا محالة ، فأخذوا يصرخون ويصيحون ، ويثبون فى الهواء حتى عطف عليهم من كانوا فى المدينة ، وأخذوا يدلون ثيابهم ليتعلقوا بها ويتسلقوا بها أسوار المدينة ، بينما كان الجنود المصريون فرحين بما حققوه من نصر ، ويجنون ثمرته بالاستيلاء على غنائم العدو التى خلفوها ورائهم.

ولم يواصل الجيش المصرى الهجوم ، ولم يتابع العدو ، بل انهمك فى الاستيلاء على الغنائم ، فترك للعدو فرصة يلم فيها شمله ، ويتحصن وراء الأسوار ، مما دعا " تحوتمس الثالث " إلى تأنيب جنده قائلاً : " لو تابعتم الهجوم واستوليتم على هذه المدينة ، لقدمتم للإله

رع قربانا هائلاً ، فرؤساء البلاد العاصية جميعاً فى داخل المدينة ، وإن الاستيلاء عليها يعدل الاستيلاء على ألف مدينة ". وأمر " تحوتمس الثالث " بمحاصرة مجدو ، وألا يسمح لواحد من أهلها بالاقتراب من المصريين ، إلا إذا جئ به كأسير حرب .. ولم تحتمل المدينة الحصار طويلاً لنفاذ المؤن فاستسلمت ، ولكن أمير قادش لم يكن من بين الذين استسلموا. ويبدو أنه استطاع الفرار سابحاً ، منتهزاً فرصة انشغال المصريين بجمع الغنائم التى سجلت على جدران معبد الكرنك ، وبلغت من كثرتها حدًا يثير الدهشة. فمنها مثلاً : ٩٢٤ مركبة حربية ، و ٢٠١٤ حصاناً ، و٢٠٠ درع ، و٢٠٠٠ رأس من العجول ، و١٩٢٩ من البقر ، و٢٠٥٠٠ رأس من الماشية. كما تم أسر حوالى ٢٥٠٣ من السادة والعبيد ، بالإضافة إلى الآف القطع الثمينة من المعادن والأحجار الكريمة.

هكذا نجحت الحملة فى أن تكون ذات أثر من ناحية استرجاع شمال فلسطين ، وتدعيم النفوذ المصرى فى آسيا الغربية .. وعاد " تحوتمس الثالث " بعد أن أقام العديد من الحصون ليؤمن بها ما أستولى عليه من مدائن ، وحتى يستطيع أن يضمن سلامة الطريق الذى شقه فى لبنان. وقبل أن يغادر سوريا ، أقام قلعة فى لبنان لتذكير الأمراء بقوة مصر ، وقد أسماها بأسمه وصفته " من خبر رع ، طارد البرابرة " .. ولم يغفل " تحوتمس الثالث " أمر المناطق الشمالية من سوريا ، فتركها لأمرائها الذين أظهروا ودهم وولائهم ، فعقد معهم تحالفاً ، رغم إدراكه بأنه لن يستمر طويلاً برغم وجود حاميات الحدود ، إلا بتنظيم دقيق وإشراف مباشر .. وعاد " تحوتمس الثالث " من حملته الأولى ، حيث أقيمت الاحتفالات فى طيبة ، وقدمت الغنائم إلى الإله آمون رع ، المعبود الرسمى الرئيس للدولة. ولقد سارع الأمراء الباقون فى سوريا إلى إعلان ولائهم بإرسال الهدايا إلى الفاتح المصرى ، وحتى ملك آشور أرسل من مقره البعيد على نهر دجلة نصيبه من الجزية وتتكون من قطع كبيرة من اللازورد وعدد من الأوانى الآشورية الغالية ، وأجبر الأمراء المهزومين على إرسال رهائن إلى مصر .. ورغبة فى تسجيل هذا النصر العظيم أمر " تحوتمس الثالث " بأن ينقش على الجدار الكبير للكرنك ثلاث قوائم من المدن المهزومة ، كل منها يمثلها خرطوش يحوى اسم المدينة بالكتابة الهيروغليفية تعلوه هيئة رجل يداه مقيدتان إلى الخلف ومن الواضح أنه سورى بدليل أنفه الكبيرة المعقوفة وعظام وجنتيه البارزة ولحيته المدببة ، وقد صور الفرعون على هيئة فاتح آسيا إذ يضع فوق

رأسه تاج مصر السفلى ويمسك بمجموعة من الأسيويين الراكعين من شعورهم وهو على وشك أن يسحقهم بهراوته ، بينما آلهة طيبة تتقدم من جهة اليمين وهى تقود فى الأغلال مجموعة من المدن السورية مربوطة بحبل تقدمهم إلى الملك.

حملات وإنتصارات ..

كانت حملة « تحوتمس الثالث » على مجدو فاتحة لحملات أخرى على سوريا وفلسطين بلغ عددها جميعا ستة عشر حملة ، وقد قاد الفرعون الجيش المصرى فى هذه الحملات المظفرة من أجل توطيد مكانة مصر السياسية والحربية فى المنطقة والحفاظ على إمبراطوريتها الأسيوية .. ومن خلال هذه الحملات قام الفرعون بالاستيلاء على مدن الساحل الفينيقى فى حملته الخامسة التى وقعت فى العام التاسع والعشرين من عهده ، كما قام بالاستيلاء على بعض المدن التى حاولت الثورة ضد السيادة المصرية .. وفى حملته السادسة التى وقعت فى العام الثلاثين من عهده ، قام بالاستيلاء على مدينة قادش المحورية الاستراتيجية الهامة فى شمال سوريا. وفى أعقاب سقوط قادش أتجه الفرعون إلى مدينة سشريت ومنها وصل إلى مدينة سيميرا ، حتى وصل إلى مدينة أرواد ، وكان هدف « تحوتمس الثالث » هو الانتقام من هذه المدينة بسبب خيانتها له وقيامها بالتمرد .. وقد هدفت حملته السابعة التى وقعت فى العام الحادى والثلاثين إلى جعل الموانئ الفينيقية بمثابة ثغور تساهم فى تسهيل المواصلات البحرية بين مصر وسوريا ، وكذلك إلى استخدامها كمستودعات للجزية التى يرسلها أمراء البلاد المنهزمة إلى مصر سنوياً ، بالإضافة إلى القضاء على عصيان قام به أهل مدينة أنراثو التى يظهر من نصوص الفرعون أنه لم يخضعها فى حملاته الحربية السابقة.

عبور الفرات وذروة الانتصار ..

وبمجرد انتهاء الفرعون المحارب « تحوتمس الثالث » من بسط سيطرته على بلاد جاهى الفينيقية ، بدأ يفكر فى المرحلة الثانية من حروبه الأسيوية ، فوجه بصره إلى دولة ميتانى ذات الثقل الكبير فى سياسة الممالك السورية ، والتى كانت لا تقل رغبة فى بسط سيطرتها ونفوذها على دويلات المدن فى سوريا وفلسطين عن مصر ، وإن لم يتحقق لها هذا الهدف فعلى الأقل

يكون ولاء وطاعة هذه الدويلات لها ، ومن ثم فقد كانت دولة ميتانى تمثل حجر العثرة فى وجه الجيش المصرى فى سبيل توطيد أركان السيادة المصرية فى آسيا .. ولقد طمح الفرعون المحارب " تحوتمس الثالث " فى حملته الثامنة أن يصل إلى أبعد مما وصل إليه أجداده وأن يقيم نصباً تذكارياً له على نهر الفرات مثلما فعل سلفه " تحوتمس الأول " .. وفى العام الثالث والثلاثين من حكمه قام الملك " تحوتمس الثالث " بحملته الحربية الثامنة ، وهى الحملة التى وصل فيها الفرعون إلى قمة مجده الحربى ، إذ فى غضونها عبر نهر الفرات غازياً بلاد " نهرين – ميتانى " ، وكانت أول حركة قام بها هى غزو أقاليم قطنة. وقد أعد الملك لهذه الحملة الكثير من السفن ليعبر بها النهر مخترقًا طريق جبيل وقطنة وتونيب ثم قرقميش ، حيث بنيت هذه السفن على مقربة من جبيل بأخشاب من جبال لبنان ثم نقلت بطريق البر إلى قرقميش على عربات تجرها الثيران ، ثم وجد نفسه أمام خصم عنيف هو ملك ميتانى ، فانتصر " تحوتمس الثالث ".. واتجه " تحوتمس الثالث " بعد ذلك شمالاً وشرقًا لتحطيم كل معاقل العدو ، وتحققت له أطماع طالما اشتاق لتحقيقها ، إذ وصل إلى أبعد مما وصل إليه سلفه " تحوتمس الأول " ، ذلك أن " تحوتمس الأول " قد وضع لوحة له عند قرقميش عند انحناءة الفرات ، أما " تحوتمس الثالث " فقد عبر النهر واتجه نحو بلاد ميتانى نفسها وخاض معركة هناك وأستولى على قرقميش ، حيث ترك لوحة سجل فيها أخبار انتصاراته بجوار لوحة جده " تحوتمس الأول " ، وهكذا وصلت مصر بعد هذه الحملة إلى قمة النصر الحربى فى آسيا .. ولقد كان لهذا الانتصار رد فعل كبير ليس على الميتانيين فحسب ، بل على جيرانهم من الذين لم يدخلوا الحرب بعد ضد مصر مثل الآشوريين والبابليين والحيثيين ، والذين رأوا أنه من الأفضل كنوع من الحرص إرسال الجزية إلى الفرعون المنتصر ، وهناك استقبل سفراء ملوك بابل وخيتا ، الذين كانوا يحملون هداياهم من فضة وأحجار كريمة وأشجار نادرة ، وبفضل الانتصار على ميتانى أصبح جزءًا كبيراً من فينيقيا خاضعاً لنفوذ مصر.

إحكام السيطرة على سوريا وتأديب ميتانى ..

تعود الأسباب التاريخية إلى قيام الفرعون " تحوتمس الثالث " بحملته التاسعة هو قيام ثورة ضد التواجد العسكرى المصرى فى آسيا تزعمه أهالى بلدة نوجس فى بلاد جاهى ، ومن ثم فقد قاد الفرعون جيشه وتوجه إلى منطقة الاضطرابات للقضاء عليها فى مهدها حتى لا تتفشى تلك الاضطرابات فى باقى المناطق الخاضعة لسيطرته فى آسيا. كما أستهدف " تحوتمس الثالث " من وراء هذه الحملة إظهار قوته العسكرية ، وما يتمتع به الجيش المصرى من كفاءة عسكرية ، وبراعة فى القتال والمواجهة ، لإرهاب المعارضين له فى آسيا ، وتحذيرهم من مغبة الثورة ضد السيادة المصرية ، بالإضافة إلى رغبته فى تحصيل الجزية من البلاد المنهزمة ، ومقابلة رسل ومبعوثى البلاد التى تطلب ود وصداقة الفرعون. ومن ثم فقد توجه " تحوتمس الثالث " إلى آسيا على رأس الجيش المصرى ، عن طريق الأسطول البحرى المصرى إلى مركز العصيان فى جاهى ، ولم يلبث الجيش المصرى أن قام بمحاصرة المتمردين فى عقر دارهم فى مدينة نوجس ، وأنزل بهم هزيمة ساحقة ، وقد قام الجيش المصرى بأسر عدد كبير من سكان هذه البلدة ، وأستولوا على كل ممتلكاتهم ، وجعلوا من هذه المدينة عبرة لكل من يفكر فى إعلان الثورة ضد السيادة المصرية .. وعلى أثر هزيمة نوجس ، أعلنت المدن المجاورة لها الاستسلام للقوات المصرية فى آسيا ، كما فرض " تحوتمس الثالث " على دويلات المدن فى سوريا وفلسطين تموين الموانئ الخاضعة لسيطرة الجيش المصرى .. وقد أدت هذه الانتصارات العسكرية المتتالية للقوات المصرية إلى فرض السيادة المصرية على البحر المتوسط ، مما جعل أمير قبرص يطلب ود وصداقة مصر ويرسل هدايا فى هذا العام ، كما أسرع أمراء رتنو إلى تقديم الجزية للفرعون.

وتعود أسباب الحملة الحربية العاشرة للفرعون إلى إعلان ملك ميتانى الحرب على الجيش المصرى ، ومن ثم فقد أعد " تحوتمس الثالث " جيشه لمنازلة هذا التحالف الأسيوى الذى يقف على رأسه ملك ميتانى الذى كان يسعى للثأر من المصريين بعد هزيمته أمامهم ، كما هدفت الحملة إلى إحضار الجزية من البلاد الأجنبية الخاضعة للسيطرة المصرية. ولقد وصل الجيش المصرى إلى مدينة أرينا ، ووجد الجيش الميتانى متحصناً داخل المدينة ، وكان عددهم كبيراً

جداً ، مما جعل الحوليات المصرية تصفهم بأنهم كانوا أكثر عددًا من رمال الشاطئ ، وكانوا على استعداد لمحاربة " تحوتمس الثالث ". وحين التحم الجيشان انهارت الصفوف الأمامية لقوات التحالف الميتانية مما زاد من حماس القوات المصرية التى كانت تهاجم بكل شراسة فأنهارت كل دفاعات العدو الميتانى ، وبدأ الرعب والخوف من الوقوع فى الأسر يدب فى نفوس قوات التحالف ، لذلك أسرعوا فى الهرب والانسحاب غير المنظم من ساحة القتال ، مما أدى إلى سقوط بعض الأسرى فى يد الجيش المصرى .. ثم جاء إلى الفرعون جزية حكام بلاد رتنو فى هذا العام فى أعقاب هذا النصر ، وقد أمر الفرعون بتموين الموانئ التابعة للجيش المصرى فى بلاد جاهى بما أحضره أهلها حتى تكون مستعدة لاستقباله فى العام القادم.

أما عن أسباب الحملة الحربية الثالثة عشرة للفرعون ، فمرجعها هو قيام ثورة فى شمال سوريا تزعمتها بلدة نوجس الواقعة فى جنوب لبنان ، وما أن جاءت الأنباء بحدوث ثورة فى آسيا ضد الحكم المصرى ، حتى تقدم " تحوتمس الثالث " على رأس الجيش المصرى بحراً إلى آسيا لإخماد هذه الثورة ولإلقاء القبض على العصاة وإحضارهم إلى مصر كأسرى حرب. ثم زحف الجيش المصرى بقيادة " تحوتمس الثالث " نحو المدينة التى تتزعم التمرد ، للقضاء على المتمردين وتفريق شملهم ، وإظهار قوة بأس جيشه حتى لا يفكروا فى الثورة ضده مرة أخرى ، وتمكن الجيش المصرى من القضاء على القوات المتمردة فى فترة وجيزة كما جاءت بذلك التقارير العسكرية التى ذكرت الحملة ، والتى نستشف منها كذلك أن ذلك العصيان قد وقع فى إقليم نوجس ، الذى استسلم أهله بالكامل للقوات المصرية بعد قيام المصريين بالهجوم على المدينة .. ثم أمر الفرعون عند رحيله بتموين الموانئ الساحلية التى كانت خاضعة للسيطرة المصرية من خلال الجزية التى كانت ترسلها بلاد لبنان وجاهى ، وذلك حتى تكون هذه الموانئ على أتم الاستعداد لاستقبال القوات المصرية فى العام المقبل إذا ما جاءت إليها ، ومن المؤكد أنه كانت تقطن هذه الموانئ حاميات مصرية للحفاظ على الأمن بها.

وتعود أسباب حملة الفرعون الرابعة عشرة فى آسيا إلى إعلان بدو الشاسو الذين يقطنون غرب آسيا وصحراء مصر الشرقية الثورة ضد الفرعون " تحوتمس الثالث " والقوات المصرية ، والجدير بالذكر أن الشاسو هم الذين سببوا الكثير من القلاقل على حدود مصر الشرقية ، فقد كان يغلب عليهم الطابع العسكرى ، وأغلب الظن أنهم كانوا عبارة عن قبائل

رحل ، يقومون بالإغارة على القوافل التى تمر بمنطقة تمركزهم ، وخاصة القوافل التجارية منها ، وقد هدفت هذه الحملة الحربية إلى القضاء على بدو الشاسو هؤلاء ، الذين سببوا ازعاجاً للحكومة المركزية المصرية. وبالفعل قامت القوات المصرية بقيادة الفرعون بالهجوم على الشاسو ، وعلى وجه الخصوص فى مناطق تمركزهم ، ومن المؤكد أن عملية إخضاعهم لم تستغرق وقتاً طويلاً ، فقد كانت عبارة عن هجمة منظمة ضد أماكن تجمعهم فى بلاد رتنو ، نجح الجيش المصرى من خلالها فى تشتيتهم تماماً ، ونجح الفرعون بذلك فى الحفاظ على استقرار طرق القوافل التجارية المصرية ، وتأمين المصالح المصرية فى فلسطين وسوريا .. وكان الغرض من الحملة الحربية الخامسة عشرة للفرعون جمع الجزية من قبرص وبلاد خيتا ورتنو ، والمقصود هنا هو مجئ وفود من هذه البلاد فى المنطقة التى تواجد فيها الملك فى رتنو لأنه لم يذهب إلى خيتا أو قبرص.

سقوط قادش وآخر حملات الفرعون السورية ..

كانت الحملة السادسة عشرة للفرعون « تحوتمس الثالث » هى آخر حملاته الأسيوية ، وقد وقعت فى العام الثانى والأربعين من حكمه ، وقد قام الفرعون خلال هذه الحملة بحصار مدينة قادش .. وتعود أسباب هذه الحملة إلى قرار أمير قادش بالثورة ضد السيادة المصرية فى آسيا بعد أن هب من كبوته بعدة أعوام ، بذل فيها جهداً شاقاً فى سبيل إعادة بناء مدينته التى دمرها الجيش المصرى من خلال معركته الأولى التى خاضها ضدها ، فأعاد أمير قادش بناء الأسوار التى تهدمت من قبل ، وجعل الحصون أقوى من السابق ، وأعاد تنظيم وتسليح جيشه ، وقام بتدريبه على أحدث تكتيكات الحرب فى ذلك الوقت. ولم يغب عن ذهن أمير قادش التحالف مع ملك ميتانى للتخلص من النفوذ المصرى وطرد القوات المصرية من آسيا .. وما أن اطمأن أمير قادش إلى قوة جيشه وكفاءة جنوده ، ووقوف حكام دويلات المدن الأسيوية إلى جواره ، وكذلك دولة ميتانى التى أرسلت قواتها لخوض المعارك ضد الجيش المصرى ، حتى أعلن الثورة ، وحشد جنوده للمعركة المرتقبة .. كما هدفت الحملة إلى تأمين إرسال الجزية السنوية التى تصل إلى مصر من بلاد جاهى ورتنو وآشور وقبرص وخيتا وبابل ، حيث كان من المحتمل أن يتسبب هذا التمرد فى حرمان مصر من الجزية السنوية .. وقد زحف الجيش

المصرى براً متوجها إلى مدينة عروكات والتى كانت من بين المدن التى أعلنت الثورة وتحالفت مع أمير قادش ، مما جعل " تحوتمس الثالث " يبدأ عملياته الحربية بالهجوم عليها ، وواصل الجيش المصرى زحفه حتى وصل إلى مدينة قنا وأستولى على هذه المدينة والمدن التى فى إقليمها. ثم واصل الجيش المصرى زحفه إلى مدينة تونيب وقضى عليها ، بل وأستولى على قمحها وقطع أشجارها ، واستمر زحف الجيش المصرى وتقدم بالقرب من نهر العاصى (الأورنت) مستولياً على كل ما يقع فى طريقه من مدن وحصون تابعة لأمير قادش ، حتى وصل الجيش المصرى إلى قادش وأستولى على ثلاثة مدن هناك .. ولم يترك الفرعون " تحوتمس الثالث " لأعدائه الفرصة لكى يحكموا تحصينهم داخل قادش فأصدر أوامره على الفور بمواصلة الهجوم على المدينة ، ونجح القائد " آمون إم حب " فى أسر اثنين من الماريانو (الأمراء المحاربين السوريين) وأهداهم للفرعون ، الذى أمر باختراق أسوار المدينة. واستطاع القائد " آمون إم حب " وإحدى فرق مشاة الجيش المصرى الخاصة التى أطلق عليها " شجعان الملك " أن يقوموا باختراق أسوار مدينة قادش ، حتى نجحت القوات المصرية فى القضاء على المقاومة ، والسيطرة على المدينة والإقليم بأكمله ، وقضى على آخر مقاومة للأسيويين فى عهد الملك " تحوتمس الثالث ".

وترجع أهمية حملة الفرعون " تحوتمس الثالث " السادسة عشرة والأخيرة إلى أن الفرعون قد استطاع من خلالها القضاء على التحالف الأسيوى الذى قام به أمير قادش مع بعض أمراء الولايات الأسيوية الأخرى ومن خلفهم أمير تونيب وملك ميتانى ، إلى جانب القضاء على قوة الهكسوس التى كانت تعاونهم ، وتأمين الحدود المصرية من بدو الصحراء. وبذلك تم سحق آخر أمل لأمير قادش وملك ميتانى وأعوانهما من شراذم الهكسوس التى لازالت تعيش فى آسيا ، من أن يحققوا نصراً أو تفوقاً عسكرياً على الجيش المصرى الذى أصبحت له السيادة فى الشرق الأدنى القديم بلا منازع. كما أن الاستيلاء على مدينة قادش الحصينة يعد انتصاراً ذا أهمية استراتيجية كبرى ، نظرا للأهمية الاستراتيجية الكبرى لموقع هذه المدينة فى شمال سوريا ، بالإضافة إلى أن هذه المدينة كانت تعد مركز المقاومة للنفوذ المصرى فى غربى آسيا. وقد نجح الجيش المصرى فى أعقاب هذا النصر فى أسر عدد كبير من الجنود الميتانيين الذين أرسلهم ملك ميتانى لمساعدة أمير قادش فى حربه ضد القوات المصرية ، لعلهم يحققوا النصر ، فيثأروا للهزائم التى لحقت بهم فى أعقاب حربهم مع الجيش المصرى.

إنتصار آخر فى الجنوب ..

وفى نهاية حكم الفرعون المحارب " تحوتمس الثالث " قام بحملته الحربية السابعة عشرة ، ولكنها لم تكن فى الجبهة الأسيوية هذه المرة كما أعتاد ، بل كانت على بلاد النوبة ، فذهب إلى هناك وقضى على ثورة محلية قد قامت فى الجنوب ، ولا نعرف تماماً الحدود الجنوبية التى قد وصل اليها الجيش المصرى ، وربما قد وصل إلى الجندل الرابع حيث عثر هناك على لوحة فى جبل البرقل تخلد ذكرى هذه الانتصار .. والجدير بالذكر أن الفرعون قد خلد ذكرى انتصاراته فى النوبة على جدران الصرحين السادس والسابع بمعبد الكرنك وذكر أسماء العديد من البلاد الجنوبية التى قد نجح فى الاستيلاء عليها.

عبقرية حربية فذة ..

وبكل المعايير تعتبر الحملات الحربية التى قام بها الملك " تحوتمس الثالث " والنصر الذى حققه فى معركة مجدو وعبور نهر الفرات لفتح بلاد ميتانى فى حملته الثامنة ، قمة للاستراتيجية الحربية تحدث لأول مرة فى تاريخ العالم القديم .. أما قيام " تحوتمس الثالث " بوضع خطة التعاون والتنسيق بين تحركات سفن الأسطول المصرى والجيوش البرية المصرية المتجهة بقيادته نحو الشمال ونحو الشرق ، فيعتبر من الأدلة القاطعة على العبقرية الحربية المتفردة لهذا الفرعون العظيم ، وعلى مدى قدرته الفائقة على تنظيم وإدارة الجيوش المصرية بطريقة تحدث لأول مرة فى تاريخ مصر العتيد .. لقد أدرك الفرعون أن للقوات البحرية أهمية خاصة فى تذليل المواصلات عند خروج الجيش من مصر ، إذ لا يمكن السيطرة على شرقى البحر المتوسط دون وجود قوة بحرية تسيطر على تلك المنطقة ، ومن ثم فقد وجه الفرعون عنايته الخاصة إلى الموانئ الفينيقية ، وعمل على تموينها .. وإذا وضعنا فى الاعتبار معايير ومبادئ الحرب التى مازالت مطبقة حتى الآن – من الناحية الأكاديمية – فى الجيوش الحديثة ، فإن الخطط الحربية التى نفذها " تحوتمس الثالث " والمناورات التى كان يجريها لجيوشه ، تعتبر أمثلة رائعة لتطبيق مبادئ وأسس الاستراتيجية على أعلى مستوى .. ولقد كانت أكثر التغييرات أهمية ، وأكثر التنظيمات العسكرية فاعلية ، تعزى إلى عبقرية الملك " تحوتمس

الثالث » ، أعظم فراعنة مصر المحاربين ، فلقد أشتهر الرجل العظيم فى التاريخ ، كقائد حربى من الطراز الأول يضع الخطط الحربية وينفذها ، ويبتكر أساليب جديدة فى فن القتال ، تشابه معه فيها من جاء بعده حتى العصر الحديث ، كما كان يتحلى بشجاعة نادرة ، ولا يطلب من جنوده أمراً لا يستطيع هو أن يفعله ، وأنه ما كان يقدم على خطوة جديدة دون دراسة وتمحيص للموقف ، ودون أن يعرف كل شىء عن العدو ، فمثلاً ، قبل اجتيازه ممر عارونا عرف عن طريق طلائع الكشافة مكان وجود العدو وتمركزه ، كما تأكد من خلو طريق عارونا من جند العدو ، وخاصة عند المخرج .. هذا فضلاً عن أن الرجل عندما وضع خططه الحربية انما كان قد قدر عنصر المفاجأة فى الحرب فضلاً عن عنصر المخاطرة ، كما كان « تحوتمس الثالث » هو أول من لجأ إلى الحرب الخاطفة المفاجئة ، فكان يهجم بعشرات المركبات الحربية ، يباغت بها العدو ، فينزل به الرعب والفزع ، ويضطره تحت هذا التأثير إلى الفرار ، وكان هو أول من قسم الجيش إلى قلب وجناحين ، وأول من استعمل القوات البرية والبحرية.

إمبراطورية الشمس ..

استطاع الفرعون المحارب العظيم « تحوتمس الثالث » فرض سيطرته وهيمنته العسكرية والسياسية على إمبراطورية عظيمة تمتد من أعالى نهر الفرات شمالاً حتى مدينة نباتا عند الجندل الرابع ببلاد النوبة جنوباً ، ولم يغب عن ذهن المحارب العظيم أن يحدد لأخلافه من ملوك مصر الذين سيأتون من بعده حدود إمبراطوريته كما فعل « سنوسرت الثالث » عندما وضع لوحة الحدود الشهيرة عند سمنة من قبل .. فحين قام « تحوتمس الثالث » بعبور الفرات فى حملته الثامنة أقام لوحة تذكارية فى الجهة الغربية من هذا النهر لتكون بمثابة آخر نقطة وصلت إليها فتوحاته فى الشمال ، أما فى الجنوب فقد قام بإقامة لوحة من الجرانيت عند جبل البرقل على مقربة من مدينة نباتا ، معلناً امتداد حدود الإمبراطورية إلى الجندل الرابع جنوباً.

وخلال تلك الحقبة التى بلغت فيها الدولة المصرية ذروة مجدها الحربى والسياسى فى منطقة الشرق الأدنى القديم تزايدت موارد الدولة بشكل مهول بفضل الجزى المختلفة القادمة من ولايات الإمبراطورية المصرية فى سوريا وكنعان (فلسطين) والنوبة ، والتى تدفقت على خزائن الدولة من خلال الحملات الحربية المتوالية للملك « تحوتمس الثالث » .. وأصبحت

العاصمة المصرية طيبة أعظم مدن العالم القديم على الاطلاق ، وقد زاد ثراؤها وثروات معبودها آمون ومعابده وكهنوته بشكل بالغ ، حيث تشير نصوص الفاتح العظيم " تحوتمس الثالث " إلى الهبات الكبيرة والجزى الهائلة التى جاء بها من حملاته لتمنح إلى معبود طيبة الذى حارب الفرعون تحت رايته وأعتقد المصريون أنه صاحب الفضل فى انتصاراتهم الحربية العظيمة التى غيرت وجه التاريخ آنذاك.

وقد رأى الكثير من المؤرخين أن الإمبراطورية المصرية المترامية الأطراف الممتدة من بلاد كوش جنوبًا إلى أعالى الفرات شمالاً ، لم تكن إمبراطورية قائمة على القسر والظلم والعدوان شأن معظم الإمبراطوريات القديمة ، وإنما كانت قائمة على العدل والمشاركة ، فقد عمل المصريون على نشر نور الحضارة المصرية فى بلدان الشرق الأدنى القديم ولم يعملوا على سلب خيرات تلك المنطقة وإذلال شعوبها. وإذا كانت تلك الإمبراطورية قد فتحت بسيف المحارب فإنها عاشت بعدل الحاكم ، وحكمة الإدارى ، وعلم المثقف ، وقامت على تبادل المنافع والتجارة والهدايا والمهارات .. ويلاحظ فى حروب وسياسة " تحوتمس الثالث " فى أقاليم الإمبراطورية المصرية فى سوريا وكنعان (فلسطين) أنه قد حرص على تنشئة أبناء أمراء البلاد المفتوحة من السوريين والكنعانيين داخل العاصمة المصرية طيبة ، لينشأوا نشأة مصرية خالصة ويشبوا على حب مصر وصداقتها والولاء لها ، وحتى يأخذوا بحظهم الوافر من الثقافة المصرية التى تتيح لهم فهم الحضارة المصرية الرفيعة ، وتسهل على الفرعون أن يجعل منهم حكاماً محليين لأقاليم الإمبراطورية المصرية فى آسيا ، يحملون أقصى قدر من الولاء لمصر ، ويقدرون الخطر المتربص بمصر وبأقاليم إمبراطوريتها من قبل القوى الكبرى المعادية لمصر فى المنطقة .. ويبدو أن الرؤية السياسية للفرعون المحارب العظيم قد كتب لها نجاحاً بعيد المدى فى توطيد نفوذ مصر السياسى والعسكرى والإدارى فى غربى آسيا ، حتى أنه بعد مائة عام من رحيل الفرعون تطالعنا إحدى النصوص التاريخية عن الأثر الجليل له على لسان أحد الأمراء السوريين الذى قال : " من الذى استعمر تونيب فيما خلا من الأيام ؟! .. ألم يستعمرها منخبريا (تحوتمس الثالث) ؟! ".

* * * * *

المراجـع

- Abdul-Kader, M., 'The Administration of Syro-Palestine during the New Kingdom', ASAE 56 (1959).
- Breasted, J.H., A History of Egypt, From the Earliest Times to the Persian Conquest, New York (1946).
- Della Monica, M., Thoutmosis III. Le plus grand des pharaons. Son époque, sa vie, sa tombe, Paris (1991).
- Faulkner, R.O., 'The Battle of Megiddo', JEA 28 (1942).
- Faulkner, R.O., 'The Euphrates Campaign of Thutmosis III', JEA 32 (1946).
- Gardiner, A.H., 'The Ancient Military Road between Egypt and Palestine', JEA 6 (1920).
- Gardiner, A.H., 'Tuthmosis III Returns Thanks to Amun', JEA 38 (1952).
- Hogarth, D.G., 'Egyptian Empire in Asia', JEA 1 (1914).
- Kemp, B.J., 'Imperialism and Empire in New Kingdom Egypt (c. 1575-1087 B.C.)', in: Imperialism in the Ancient World. The Cambridge University Research Seminar in Ancient History., Cambridge (1978).
- Morkot, R.G., Historical Dictionary of Ancient Egyptian Warfare, Oxford (2003).
- Redford, D.B., Egypt and Canaan in the New Kingdom, Leuven (1990).
- Säve-Söderbergh, T., The Navy of the Eighteenth Egyptian Dynasty, Uppsala (1946).
- Schulman, A.R., The Military Establishment of the Egyptian Empire, Chicago (1958).
- Spalinger, A.J., 'Some Notes on the Battle of Megiddo and reflections on Egyptian military writing', MDAIK 30 (1974).
- Spalinger, A.J., 'A New Reference to an Egyptian Campaign of Thutmose III', JNES 37 (1978).
- Spalinger, A.J., 'Some additional remarks on the Battle of Megiddo', GM 33 (1979).

- Steindorff, G. and Seele, K., When Egypt ruled the East, London (1942).
- Weigall, A., Histoire de L' Egypte Ancienne, Paris (1968).
- Weinstein, J., 'The Egyptian Empire in Palestine: A Reassessment', BASOR 241 (1981).
- Wilson, J.A., 'The Asiatic Campaign of Thutmose III', in: ANET (1966).
- Yeivin, S., 'The Third District in Thutmosis III's, List of Palestino-Syrian Towns', JEA 36 (1950).

الفصل الرابع

صراع القوى الكبرى

كان للحملات والانتصارات الحربية الحاسمة التى حققها الجيش المصرى فى سوريا وكنعان (فلسطين) بقيادة فرعون مصر المحارب العظيم " تحوتمس الثالث " عظيم الفضل فى توطيد أركان الإمبراطورية المصرية فى منطقة الشرق الأدنى القديم ، وفى جعل مصر القوة السياسية والحربية العظمى فى المنطقة لسنوات طوال .. ومن ثم فقد عمل الخلفاء المباشرين للملك " تحوتمس الثالث " على السير على نهجه إلى حد بعيد ، ومواصلة الحملات الحربية المصرية فى سوريا وكنعان لقمع كل القوى المناهضة للنفوذ المصرى فى المنطقة ، فجنت مصر ثمار هذه الرؤية السياسية والاستراتيجية فى توطيد نفوذها وتأمين حدودها ، حتى تغيرت هذه السياسة منذ أواخر عهد " أمنحتب الثالث "وخلال عهد " إخناتون " ، والذى تزامن مع بروز قوة سياسية وحربية طموحة فى المنطقة تمثلت فى الحيثيين ، حيث طمعت خيتا فى مجابهة النفوذ المصرى وانشاء إمبراطورية فتية لها فى سوريا ، فوقع الصراع السياسى والحربى المرير بينها وبين مصر حول سوريا والذى أمتد لفترة طويلة ، شهدت فيها منطقة الشرق الأدنى أحداث جسام !.

أمنحتب الثانى وتحوتمس الرابع ومواصلة الانتصار ..

عقب وفاة فرعون مصر العظيم " تحوتمس الثالث " ، أعتلى عرش مصر ولده وولى عهده " أمنحتب الثانى " (١٤٢٧ – ١٤٠٠ ق.م) ، الذى نجح فى الحفاظ على الإمبراطورية المصرية وحقق انتصارات هامة فى سوريا وفلسطين من خلال الحملات الحربية التى قام بها ، والتى أثبت من خلالها مدى قوته وكفاءته الحربية كمقاتل جسور وكولى عهد يستحق أن يخلف والده المحارب العظيم على عرش مصر .. وقد سجلت الأعمال والحملات الحربية للفرعون " أمنحتب الثانى " من خلال ثلاث لوحات ، هم لوحة ميت رهينة ، ولوحة الكرنك ، ولوحة عمدا .. ولقد أشارت لوحة الكرنك إلى قيام الملك " أمنحتب الثانى " فى السنة الثانية من حكمه

بحملة حربية لتأديب الولايات السورية الثائرة .. ولقد فتحت مدينة نى أبوابها له ، ولكن كانت هناك مدائن أخرى ليست على ولاء نى ، مثل إيكاث التى كانت تتآمر ضد الحامية المصرية ، فقام الفرعون بمعاقبة المتآمرين وخلص الحامية ، ويبدو أن الملك أتجه بعد ذلك نحو الفرات حيث وصل إلى الحدود التى وقف عندها أبوه. ويذكر نص الكرنك ما يلى : " يأتى إليه رؤساء ميتانى ، وجزيتهم فوق ظهورهم ، عسى أن يمنحهم جلالته نسمة الحياة " .. وعاد " أمنحتب الثانى " بعد الانتهاء من مهمته إلى مصر ، ولكنه لم يتوجه إلى طيبة مباشرة ، بل لبث وقتاً ما فى منف ، وكان معه العديد من الأسرى ، من بينهم ٥٠٠ أسير سورى ، و٢٤ من السبايا ، و٤٦٠ من الكنعانيين ، و٢٣٢ من أبناء الأمراء ، و٣٢٣ من بنات الأمراء .. ونقرأ فى لوحة عمدا من العام الثالث من حكمه ، أن جلالته بعد أن عاد من رتنو ، وبعد أن قهر هؤلاء الذين لم يستشعر حبهم له ، وبعد أن مد حدود مصر فى حملة النصر الأولى له ، عاد جلالته فرح القلب إلى أبيه آمون ، بعد أن قتل بهراوته الرؤساء السبعة الذين كانوا فى ناحية تخسى ، ووضعهم مقلوبين على مقدمة سفينته ، التى كان اسمها " عا خبرو رع ، مثبت الأرضين " ، وقد علق ستة من هؤلاء الأعداء على جدار سور طيبة. أما السابع فقد أرسل بسفينته إلى النوبة (كوش) ، وعلق هناك على سور نباتا ، ليكون عبرة تريهم قوة انتصار جلالته إلى الأبد.

وكان للملك " أمنحتب الثانى " حملتان أخريان فى العامين السابع والتاسع من الحكم ، كما ورد من خلال لوحة ميت رهينة ، حيث اجتاح فى الحملة الأولى رتنو ، ثم عبر نهر العاصى (الأورنت) ، والتحم مع العدو وانتصر عليه ، وقابله فى طريق العودة أمير قادش ، وأقسم بين يديه يمين الولاء .. أما حملة العام التاسع ، فقد أتجهت إلى يحم التى خربها وأسر أمرائها وأولادهم ، وغنم متاعهم. ولم يبعد كثيراً شمال بحر الجليل ، ورأى فى الحلم أن آمون يمنيه النصر ، فأتجه بعد ذلك صوب العديد من مدن كنعان (فلسطين) ، وأستولى عليها وأسر أمرائها. وتشير نصوص الفرعون إلى أن عدد الأسرى فى هذه الحملة بلغ حوالى ٦٨٩٠٠٠ أسير .. وتنتهى لوحة ميت رهينة بفقرة تصور النتائج التى ترتبت على انتصارات الفرعون المحارب " أمنحتب الثانى " ، جاء فيها : " والآن حين سمع أمير نهرين وأمير خيتا وأمير سنجار بالنصر العظيم الذى تم لى ، تنافسوا فى تقديم هداياهم لى من كل البلاد ، وتوجهوا لى بدعائهم من أجل إقرار السلام ، ومن أجل أن أمنحهم نسمة الحياة ، وقالت رسلهم لى : أتينا

بجزيتنا إليك يا ابن رع ، أمنحتب ، حاكم الحكام ، الأسد الهصور فى كل مكان ، وفى كل الأرضين إلى أبد الابدين ".

وعقب وفاة الملك " أمنحتب الثانى " تشير الأحداث إلى أن سوريا قد ثارت ثورتها التقليدية بعد وقت قليل من ولاية ولده الملك " تحوتمس الرابع " (١٤٠٠ – ١٣٩٠ ق. م) للعرش ، بعد أن كانت قد هدأت لما يزيد على العشرين عاماً ، وكأنما تناست قوة مصر ، أو استضعفت عاهلها ، أو ربما أرادت أن تختبر عوده ، إلا أن " تحوتمس الرابع " توجه على رأس حملة إلى منطقة التمرد ، وعاد الجيش المصرى من آسيا محملاً بالغنائم ، وبعدد كبير من الأسرى. وفى العام الثامن من حكمه وقعت ثورة فى النوبة السفلى (واوات) ، واضطر الملك إلى قيادة جيشه إلى الجنوب لاخماد هذا التمرد .. ويبدو أن هذه الحملة والحملة السابقة على آسيا كانت الأعمال الحربية الوحيدة التى قام بها الملك ، وقد وردت إشارات عن نشاطه الحربى فى عدة نصوص ، منها إشارة فى قوائم القرابين التى قدمها الملك إلى المعبود آمون على أنه أستولى على بلاد نهرين. وفى مقبرة أحد قواده " خع ام حات " نرى صورة لـ" تحوتمس الرابع " ومن ورائه أوان من الذهب والفضة جاء بها بعض الأسيويين. وأخيراً عن حملاته ضد النوبيين فقد سجل على مركبته (عربته) الحربية صراعه معهم ، كما قام الفرعون بتسجيل معاركه مع النوبيين على لوحة من كونوسو بالقرب من أسوان.

وخلال عهد " تحوتمس الرابع " شعر كل من المصريين والميتانيين ببوادر الخطر من أطماع دولة الحيثيين المجاورة لهما فى آسيا الصغرى ، وأدركت كل من الدولتين أن أمن التجارة البرية التى يأخذون بناصيتها فى أسواق الشرق الأدنى لن يستقر إلا إذا استقرت قبله أحوال السياسة بينهما ، ورأى الفرعون أن خير رباط للسلم المنشود هو رباط المصاهرة ، فتزوج من ابنة الملك الميتانى " ارتاتاما " وجعلها من زوجاته الرئيسات ، وأطلق على هذه الأميرة اسماً مصرياً وهو " موت أم ويا ".

بزوغ قوة الحيثيين فى المنطقة وبداية الصراع مع مصر ..

تشير الدراسات التاريخية إلى أن الشعب الحيثى أو الخيتى هو واحد من الشعوب الهندوأوروبية ، الذى وصل إلى منطقة آسيا الصغرى ، ليتخذ من « خاتوشاش » (بوغاز كوى الحالية) الواقعة فى المنعطف الواسع لنهر الخاليس عاصمة للمملكة التى أنشأها فى هذه المنطقة ، وكان ذلك على الأرجح فى مطلع الألف الثانى قبل الميلاد .. وقد كانت المملكة الحيثية فى نشأتها مثلها مثل كل ممالك الشرق الأدنى القديم ، مكونة من إتحاد دويلات عديدة متجاورة فى الأناضول ، وكان نتيجة هذا الاتحاد قيام أول مملكة حيثية خلال القرن التاسع عشر قبل الميلاد .. وخلال النصف الأول من عصر الأسرة الثامنة عشرة لم يكن للحيثيين دور يذكر فى علاقتهم بمصر ، أما فى عهد « أمنحتب الثالث » (١٣٩٠ – ١٣٥٢ ق. م) فقد ظهر اسم خيتا فى أربعة قوائم وقد ورد ذكرهم من خلال الخطابات التاريخية الشهيرة المعروفة باسم رسائل العمارنة .. ومنذ عهد الملك الحيثى « شوبيلوليوما الأول » بدأ نجم الحيثيين فى الأناضول فى الصعود ببطء ، وكان صعود الحيثيين من معاقلهم فى مرتفعات الأناضول خلال أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد قد مثل تهديداً خطيراً لمصر ولإمبراطوريتها فى سوريا وفلسطين ، حيث طمح « شوبيلوليوما الأول » إلى تكوين إمبراطورية حيثية فى سوريا مستغلاً توقف الحملات الحربية المصرية هناك طوال عهد « أمنحتب الثالث » الذى بلغ نحو ثمانية وثلاثين عاماً ، وأصبح هدفه الاستراتيجى اخضاع ولاية آمورو السورية فى الشمال لنفوذه السياسى واقتطاعها من أملاك الإمبراطورية المصرية .. وعلى الرغم من وصول إحدى الرسائل إلى « أمنحتب الثالث » من أحد الحكام السوريين المتحالفين مع مصر التى يبلغه فيها بأن الحيثيين قد غزوا أرضه وأنه يطلب جيشاً من مصر لمساعدته ، لم يحرك « أمنحتب الثالث » ساكناً ، وكان قد تقدمت به السن حين وصلته الأنباء ، بل ولم يحركه أن صلة مصر بمستعمراتها كادت أن تنفصم ، مما أدى إلى تقلص الحكم المصرى فى ولاياتها الأسيوية.

تدهور النفوذ السياسى والحربى المصرى فى سوريا خلال عهد العمارنة ..

فى أواخر حكم الملك « أمنحتب الثالث » بدأت الإمبراطورية المصرية فى التداعى ، وكانت فى حاجة إلى ملك محارب قوى الشكيمة يستطيع أن يرد عنها شر الجيران الطامعين. وكان الأمراء والحكام السوريين بين مخلص موالى لمصر ، ومتمرد يتمنى لو أتيحت له الفرصة للتخلص من الحكم المصرى .. ولكن حدث أن أعتلى عرش مصر بعد « أمنحتب الثالث » خليفته وولده الملك « إخناتون » (١٣٥٢ – ١٣٣٦ ق. م) الذى كان رجلاً مثالياً يعيش فى سبيل دعوته الدينية التى تنادى بالتوحيد والغاء عبادة كافة الآلهة المصرية الأخرى ، وقد وقع الصدام العنيف بينه وبين كهنة آمون رع مما دفعه إلى ترك طيبة وتأسيس عاصمة جديدة فى مصر الوسطى عرفت باسم آخت آتون (تل العمارنة الحالية) ، وقد جعلها مركزاً لدعوته الدينية المتمثلة فى عبادة الإله الواحد آتون ، وكذلك عاصمة للإمبراطورية المصرية ، فعرفت هذه الحقبة لدى المؤرخين باسم عصر العمارنة .. ومما يؤسف له أن « إخناتون » قد آمن بما كانت تقوله عصبة المنافقين فى داخل البلاط الملكى وفى الخارج ، ولم يكلف نفسه عناء معرفة حقيقة الأوضاع السياسية خارج مصر ، رغم أن بوادر الانهيار كانت تتضح يوماً بعد يوم.

وفى هذه الأثناء كانت الأوضاع الحربية والسياسية المصرية فى آسيا فى حالة يرثى لها ، فقد استغل الحيثيون بقيادة ملكهم الطموح « شوبيلوليوما الأول » الاضطرابات التى سببتها ثورة « إخناتون » الدينية فى الداخل ، وأخذوا يغيرون بين الحين والآخر على أطراف سوريا ، ويضمون الولايات السورية إلى ممتلكاتهم ولاية بعد أخرى ، كما قادوا التحالف ضد السيادة المصرية ونجحوا فى ذلك ، وبدأت مدن كثيرة فى كنعان (فلسطين) وفينيقيا تستقل بنفسها ، وتخرج عن السيادة المصرية ، بل إن بدو الصحراء أخذوا يثيرون القلاقل والمتاعب ، ومنهم قبائل الخابيرو .. وسوف يصل تدهور الأوضاع إلى نجاح أمير قادش فى استعادة سهل سوريا الشمالى ، وإلى استيلاء حاكم آمورو المدعو « عزيرو » ابن « عبد شرتا » – والذى سيجبر على التحالف مع الحيثيين ونقض ولاؤه لمصر – على الموانئ الفينيقية التى كان يرتادها المصريون أو كانت تحت نفوذهم ، فأستولى على سيميرا وتونيب ، وعلى الرغم من هذا لم يقم الملك « إخناتون » بأى رد فعل سياسى أو عسكرى.

وبفضل الخطابات التاريخية الشهيرة التى عرفت لدى المؤرخين باسم رسائل العمارنة ، أمكن التعرف على حقيقة الوضع والاضطرابات التى سادت مناطق النفوذ المصرية فى غرب آسيا خلال عهد " إخناتون ". ويمكننا أن نفهم أن سياسته السلمية – وربما – معارضته من ناحية المبدأ والضمير لفكرة الحرب ، قد جعلته يفقد مناطق النفوذ التى أسسها أجداده ، وكان يأمل أن يجمع بين السكان فى تلك المناطق التى يسيطر عليها فى عقيدة موحدة ، ولكنه فشل فى ذلك ، وفقد مناطق النفوذ المصرى.

لم يترك الحكام المصريون أو الأمراء الأسيويون المخلصون لمصر وسيلة من الوسائل إلا وقد لجأوا إليها ، فأرسلوا الرسل يحملون الكتب إلى الملك " إخناتون " ، ولكنه لم يبد اهتماماً ، بل إنهم أرسلوا إلى أمه الملكة " تى " لعلها تجعل ابنها يفيق من غفلته ، ولكنه لم يحرك ساكناً ، ورفض أن يتخذ موقفاً من الأحداث التى تجرى من حوله ، وأكتفى بالتعبد لإلهه آتون ، ووضع الأناشيد فى مدحه والثناء عليه .. وهذه هى صرخة أحد المخلصين لمصر ، وهو " ربعدى " حاكم جبيل ، والذى بعث برسالة إلى الملك " إخناتون " يقول فيها : " إن والدك لم يخرج إلينا بجولة تفتيشية على أقاليمه ومقاطعاته ، منذ عاد أبوك من صيدا ، بدأ القوم يتصلون بالعدو ، والبعيد عن العين بعيد عن القلب كما يقولون ". وقد أرسل " ربعدى " إلى " إخناتون " أكثر من خمسين كتاباً ، ولكنه كان يصم أذنيه. ولما أصبحت جبيل مهددة تماماً بالغزو من خيتا عدوة مصر ، أرسل للملك يقول : " ها هو ذا الملك قد سمح بأن تخرج المدينة المخلصة من يده ". وفى رسالة أخرى يحذر " ربعدى " الفرعون من " عبد شرتا " أمير آمورو ، والذى كان يتظاهر بالولاء لملك مصر ، فنرى " ربعدى " يقول : " عبد شرتا كلب يسعى لامتلاك مدن الملك ". ومرة أخرى لم تكن كتب " ربعدى " تلقى ما يستحق التقدير ، وربما يرجع ذلك إلى أن عدوه وعدو مصر " عبد شرتا " كان يدس وينافق ، وكان يكتب لـ " إخناتون " متهماً " ربعدى " بالخيانة ، فنراه وهو يسعى إلى تقليص ممتلكات مصر فى الخارج ، يكتب إلى الملك قائلاً : " إلى مولاى الملك ، عبد شرتا ، إننى تراب قدميك ، وعلى قدميك أسقط سبع مرات ، أنا كلب حارس كل أرض آمورو ، للملك مولاى " .. وكتب سكان تونيب (بعلبك) إلى الفرعون " إخناتون " راجين منه أن يرسل إليهم بمساعدة قائلين : " تونيب ، مدينتك ، تبكى وتسيل دموعها ، لأنه لا منقذ لها ، ولعدة سنوات أرسلنا الرسل إلى

سيدنا – ملك مصر – ولكن لم نتلق منه أية إجابة ولا حتى كلمة واحدة ". ويقـول " عبـد خيبـا " حاكـم أورشليـم فى إحدى رسائله : " لعل الملك يرعى البلاد ويرسل القـوات ، لأنـه إذا لـم تـأت القوات هذا العام ، فإن كـل أراضـى الملـك سيدى ، سوف تضيع " .. وفـى تلك الأثنـاء ، كانـت شـعوب الخـابيرو الصـغيرة قد بـدأت تتسلل إلـى سـوريا مـن الجنـوب ، وقـد عملـوا علـى إثـارة الاضـطرابات والتمـرد فـى المنطقـة ، وأسـتولوا علـى مجـدو ، ثـم منـاطق أورشـليم (القـدس) القديمـة .. وفـى حالـة مـن اليـأس أرسـل الأمـراء الموالـون لمصـر خطابـاتهم العديـدة ، شـاكين طالبين حماية الفرعون ويعلنون أن الغزاة ينتصرون فى كل مكان.

وعلى الرغم من كل خطابات النجدة هذه لم يتحرك " إخناتون " إلا قليلاً ، فأحيانـاً كـان يرسـل قوات بسيطة من حملـة الأقواس ، وفـى أغلب الأحيـان كـان يكتفـى بإيفـاد مبعوث لبحث الموقـف فى فينيقيا ، ولكن هذا الأخير بطريقة غريبة جداً ، ثبت أمير آمورو فى كل الأراضـى التـى كانـت خاضعة للنفوذ المصرى ، تلك الأراضى التى سوف تشمل جبيل أيضا ، وهـذا يعنـى أن الفرعـون قد أعتـرف بـالأمر الواقـع واكتفـى باعتبـار أميـر آمـورو مـوال لـه ، ويخضـع لأوامـره .. وأخيـراً سـقطت ميتـانى التـى تحالفـت مـع مصـر فـى عهـد " تحـوتمس الرابـع " تحـت ضـربات الحيثيـين والآشـوريين المتواليـة ، وأصـبح الحيثيـون الآن فـى أوج قـوتهم وسـوف يرغمـون أميـر آمـورو " عزيرو " على توقيع معاهدة تحـالف معهـم وتحـويل ولائـه لهـم بـدلاً مـن مصـر ، علـى الـرغم مـن أن هذا الأخير كان يفضل أن يبقى مستقلاً فى حكم مملكته منذ عهد " تحوتمس الثالث ".

الصحوة المصرية والاصطدام بالمد الحيثى ..

حين أنتهت الأزمـة التى نتجت عن ثورة " إخناتون " الدينية فى مصر ، حـاول فراعنـة مصـر إستعادة الممتلكـات المصرية فى آسيا ، ووقـع الصدام العسكرى المباشر بين مصر وخيتـا .. ويرى بعض المؤرخين – طبقاً للمصادر الحيثية – أن السبب المباشر لاندلاع الحرب بـين مصـر وخيتـا إنمـا يرجـع إلـى رسـالة تلقاهـا الملـك الحيثـى " شـوبيلوليوما الأول " مـن ملكـة مصـرية مجهولـة ، طلبت فيها من العاهل الحيثى أن يزوجهـا واحداً مـن ابنائـه ليربط بـذلك بـين العـرش المصرى والحيثى. ولـم يفـوت " شـوبيلوليوما " هـذه الفرصـة النـادرة ، فأرسل أحد أبنائـه علـى الفور ، ولكن لـم يقـدر لهذا الأمير الحيثى أن يجلـس على العرش المصرى ، بل لم يكتـب لـه أن

تطأ قدمه أرض مصر ، إذ قابله الجيش المصرى فى طريقه وقتله. وأخذ « شوبيلوليوما » يعد العدة ليثأر لولده ، ولكنه مات قبل أن يبلغ من أجله بعض ما تمنى ، وقد خلفه على العرش الحيثى « مورسيل الثانى ». ولاتزال هذه الرواية الحيثية محل جدل بين المؤرخين ، حيث لم يذكر عنها أى شىء فى المصادر المصرية.

ويبدو فى واقع الأمر أن الصدام الفعلى بين المصريين والحيثيين يعود تاريخه إلى عهد الملك « توت عنخ آمون » (١٣٣٦ – ١٣٢٧ ق. م) ، ذلك أن بقايا مقبرة القائد العسكرى « حور محب » (الذى صار آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة فيما بعد) فى سقارة تشير إلى حملة حربية كللت بالنصر فى آسيا تحت قيادته الشخصية خلال عهد « توت عنخ آمون ». وقد تضمنت المقبرة منظر آخر يمثل « حور محب » وهو يقدم للملك « توت عنخ آمون » مجموعة من الحكام الأسيويين المهزومين ومعهم حاملى الجزية ، وقد تضمنوا بعض الحيثيين .. وعندما تولى « حور محب » عرش البلاد (١٣٢٣ – ١٢٩٥ ق. م) ، قام فى العام السادس عشر من حكمه بقيادة الجيش المصرى من جديد إلى الجبهة الأسيوية واصطدم بالقوات الحيثية فى معركة هناك ، حيث كان ذلك أول صدام عسكرى مباشر بين المصريين والحيثيين ، ونجح الفرعون والقوات المصرية فى إستعادة جزء صغير من مناطق النفوذ التى فقدتها مصر هناك بعد أن عبر بقواته مدن جبيل وقرقميش التى كانت تحت سيطرة الحيثيين منذ أيام ملكهم « شوبيلوليوما الأول » ، وبعد أن أتخذ طريقه من جبيل على الساحل الفينيقى إلى سيميرا ، ثم قادش ومجاوراتها نحو الشمال ، مما سبب ضغطاً كبيراً على الحيثيين الذين كانوا يسيطرون على شمال سوريا ، الأمر الذى أدى إلى عقد المعاهدة القديمة بين « حور محب » والملك الحيثى « مورسيل الثانى » ، والتى سبقت تلك المعاهدة الشهيرة التى تمت فيما بعد بين « رمسيس الثانى » والملك الحيثى « خاتوسيل الثالث » .. ويبدو أن المصريين والحيثيين كانا فى حاجة ماسة إلى عقد هذه المعاهدة ، فقد كانت مصر فى حاجة إلى الوقت لإعادة تنظيم أمورها الداخلية ، كما كان الحيثيون فى حاجة إلى تثبيت أقدامهم فى المناطق التى سيطروا عليها فى سوريا ، وحتى يتفرغوا لشمال العراق. وتعتبر هذه المعاهدة التى تمت بين الملك المصرى « حور محب » والملك الحيثى « مورسيل الثانى » من أول المعاهدات الدولية التى عقدت فى التاريخ القديم ، ولكن لسوء الحظ لم تصلنا نصوص هذه المعاهدة ، ومن ثم

فإنه لم يقدر لنا أن نعرف مضمونها وما نصت عليه من بنود ، وإن كان يرجح أنها تضمنت العديد من البنود التى وردت فيما بعد فى المعاهدة التى أبرمت ما بين الملك " رمسيس الثانى " والملك الحيثى " خاتوسيل الثالث " ، حيث أشير فى المعاهدة الأخيرة إلى ما قد يفهم منه ذلك. وكان من ثمار هذه المعاهدة حدوث هدنة سياسية وحربية بين مصر وخيتا لفترة من الزمن حتى قامت فى مصر أسرة حاكمة جديدة هى الأسرة التاسعة عشرة.

قيام الأسرة التاسعة عشرة وتوكيد حكم العسكريين ..

فى العام ١٢٩٥ قبل الميلاد قامت فى مصر الأسرة التاسعة عشرة التى كانت فى أصولها أسرة عسكرية عريقة عاشت وخدمت منذ مطلع القرن الثالث عشر قبل الميلاد فى المنطقة الممتدة بين هليوبوليس وأواريس بشرق الدلتا ، واشتركت فى غزو كنعان وشمال سوريا. وكان كلاً من الملك " رمسيس الأول " مؤسس الأسرة وولده وخليفته الملك " سيتى الأول " ينتميان بشكل وطيد إلى المؤسسة العسكرية المصرية ، وقد خدما كضباط محترفين فى بداية تاريخهما الوظيفى كما أشارت النصوص المصرية المختلفة. فالقائد العسكرى " با – رعمسو " (الذى أصبح الملك " رمسيس الأول " فيما بعد) كان والده المدعو " سيتى " يحمل الرتبة العسكرية قائد القوات ، كما كان عمه " خع إم واست " ضابطاً بالجيش. وقد شغل " رمسيس " المناصب العسكرية الرفيعة : قائد القوات ، والمشرف على قلعة ثارو ، والمشرف على مصبات النيل ، والمشرف على الخيل ، وسائق عربة جلالته الحربية ، وقائد جيش سيد الأرضين .. وقد استحوذ " رمسيس " على مكانة رفيعة لدى صديقه ورفيق سلاحه القائد " حور محب " الذى أعتلى عرش البلاد وأصبح آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، والذى قام بترقيته – خلال فترة حكمه – إلى منصب الوزير ، وقد أختاره ليكون خليفته فى حكم البلاد فى السنوات الأخيرة من حكمه ، ويبدو أن أسباب هذا الاختيار كانت تعود إلى أن " رمسيس " كان إدارياً حاذقاً ومنتمياً إلى المؤسسة العسكرية التى كان يثق فيها " حور محب " ثقة مطلقة ، بالإضافة إلى أن " رمسيس " كان لديه ذرية تتمثل فى ولده القائد العسكرى " سيتى " ، الأمر الذى قد يمنع حدوث أى مشكلات مستقبلية بالنسبة له فى خلافته على العرش ، حيث كان " حور محب " لم يكن له وريث من أبناؤه .. وهكذا فإن صعود " رمسيس الأول " إلى العرش قد

رسخ حكم الملوك العسكريين القادمين من المؤسسة العسكرية والذى بدأ باعتلاء القائد العام للجيش المصرى " حور محب " عرش البلاد ، حيث لم يكن " حور محب " يرتبط بأى صلة دم بملوك الأسرة الثامنة عشرة على الرغم من أن المؤرخين قد وضعوه كآخر ملك لهذه الأسرة .. أما عن القائد العسكرى " سيتى " (الذى أصبح الملك " سيتى الأول " فيما بعد) فقد أشارت النصوص التاريخية إلى أنه كان يشغل المناصب العسكرية الرفيعة : قائد القوات العسكرية ، والمشرف على قلعة ثارو ، والمشرف على الخيل ، ورئيس المجايو (الشرطة) ، والمشرف على البلاد الأجنبية.

وقد أعتلى " رمسيس الأول " عرش البلاد وهو فى سن متقدمة ، وقام بتعيين ولده القائد العسكرى " سيتى " كولياً للعهد ووزيراً للبلاد ، ولم يستمر " رمسيس " فى الحكم أكثر من عامين حتى خلفه ولده " سيتى " .. وقد كان بديهياً أن يكون الموقف السياسى والاستراتيجى والعسكرى فى منطقة الشرق الأدنى القديم واضحاً جلياً لدى ملوك الأسرة التاسعة عشرة العسكريين الذين أخذوا على عاتقهم إستعادة الإمبراطورية المصرية فى آسيا وعودة هيبة مصر السياسية والحربية مرة أخرى ، حتى أن بعض المؤرخين قد رأوا أنه خلال عهد " رمسيس الأول " عمل " سيتى " على الاعداد والتجهيز للحملات الحربية المصرية التى تهدف لاستعادة الإمبراطورية المصرية فى سوريا وكنعان (فلسطين).

سيتى الأول وحروب استرداد الإمبراطورية المصرية فى سوريا وكنعان ..

عندما تولى " سيتى الأول " عرش مصر عقب والده " رمسيس الأول " مؤسس الأسرة التاسعة عشرة ، كان عليه أن يعمل على استرداد الإمبراطورية المصرية المفقودة فى آسيا وأن يعيد لمصر هيبتها السياسية والحربية كقوة عظمى فى الشرق الأدنى القديم ، بعد أن ضعفت تلك الهيبة خلال عصر العمارنة وما تلاه .. وكانت الأوضاع السياسية تتمثل فى أن مصر لم تفقد نفوذها كاملاً فى كنعان (فلسطين) حيث كان لها نفوذ فى بعض المناطق مثل بيت شان ورحوب وربما مجدو ، بينما جاهرت العديد من المدن بالعداء لمصر بل ودخلت فى حروب مع المدن التى حافظت على ولائها لمصر .. ومن ثم فقد أعتبر " سيتى الأول " نفسه مسئولاً عن عودة سمعة مصر السياسية والحربية كما كانت من قبل خلال فترات المجد الحربى المصرى

فى النصف الأول من عصر الأسرة الثامنة عشرة ، وعبر عن ذلك باللقب الذى أتخذه « وحم مسوت » أى مجدد الميلاد ، وقد قام بتسجيل معاركه وحملاته الحربية على الجدران الشرقية والشمالية لصالة الأعمدة الكبرى فى معبد آمون بالكرنك.

وفى العام الأول من حكمه (١٢٩٤ – ١٢٩٣ ق. م) ، قام الفرعون « سيتى الأول » بالقضاء على تمرد جرى على حدود مصر الشرقية ، وخرج على رأس الجيش المصرى لمواجهة بدو الشاسو فى جنوب كنعان (فلسطين) ، حيث كان الشاسو قد أستولوا على الحصون والحاميات المصرية التى تمتد بطول الطريق البرى من الحدود المصرية إلى جنوب كنعان (فلسطين). وتصف نصوص الفرعون بالكرنك التمرد الذى قام به بدو الشاسو كما يلى : « لقد جاء أحدهم إلى جلالته ليخبره بأن الأعداء الخاسئين من الشاسو قد قاموا بالتمرد ، وأن رؤساء قبائلهم قد أتحدوا فى مكان واحد ، يتمركز فى سفوح جبال خورو (سوريا وفلسطين) ، وأنهم فى حالة من الغضب والعراك ، وأن كل واحد منهم يذبح زميله ، ولم يعد أحدهم يطيع أوامر القصر ».

ومن ثم فقد خرج الفرعون « سيتى الأول » بالجيش المصرى من قلعة ثارو ، وأتجه نحو صحراء سيناء وقام بإعداد حصون صغيرة لحماية آبار المياه فى المنطقة الممتدة من القنطرة حتى رفح عبر طريق حورس الحربى ، ثم أخذ يتوغل الجيش المصرى فى كنعان (فلسطين) ليقضى على المدن الثائرة مثل ينوعام ، والتى كان يؤازرها عدو مصر التقليدى خيتا ، وتقدم حتى مدينة « با كنعان » (غزة الفلسطينية) ، ثم قام بهزيمة الشاسو الثوار بالقرب منها بعد أن أرتكب مذبحة كبرى بحقهم ، ووصل بعد ذلك إلى سوريا العليا ، حيث نشاهد الأمراء اللبنانيين يعلنون ولاءهم للفرعون وقد فرض عليهم جباية أخشاب الأرز التى قاموا بقطعها بأنفسهم .. والجدير بالذكر أنه قد عثر للملك « سيتى الأول » على لوحات فى قادش ، وتل شهاب ، مما يشير إلى مدى التوغل والنجاح العسكرى الذى حققه من خلال هذه الحملة فى هذه المناطق.

وفى عودته للجنوب قام « سيتى الأول » بحملة سريعة على بيت شان حيث قضى على تمرد قام فيها ، ومن ثم فقد أرسل ثلاثة فرق من جيشه لفك الحصار ومعاقبة المدن المتمردة ، وقد خلد نجاحه العسكرى على لوحة بيت شان الأولى ، واللوحة مؤرخة بالعام الأول من حكم الفرعون ، ويصف نص اللوحة العمليات الحربية للجيش المصرى بقيادة الفرعون كما يلى :

" هذا اليوم جاء شخص ليخبر جلالته أن العدو الخاسئ فى مدينة حماة جمع لنفسه العديد من الرجال وأستولى على مدينة بيت شان وعقد تحالفاً مع بيلا ولم يصرح لأمير رحوب بالخروج ، وقد أرسل جلالته جيش آمون الأول المكون من حملة الأقواس إلى مدينة حماة ، وجيش رع الشجاع إلى مدينة بيت شان ، وجيش سوتخ المسمى الأقواس المنتصرة إلى مدينة ينوعام .. وفى خلال يوم سقط الكل فى قبضة جلالته ملك مصر العليا والسفلى (من ماعت رع ، ابن رع) له الحياة ".

وهكذا أصبح " سيتى الأول " سيدا للموقف فى كنعان (فلسطين) ، واستقبل الجزية من بعض دويلات المدن الكنعانية التى وصل إليها بقواته ، وتمكن من احتلال الجليل وواصل تقدمه نحو سوريا العليا ومنطقة الساحل حتى بلغ مرتفعات صور ، وأعاد لمصر مرة أخرى نفوذها فى غرب آسيا وسوريا العليا .. وقد أظهرت المناظر المسجلة على جدران معبد الكرنك العودة المظفرة للفرعون والجيش المصرى بعد حملته الأولى ، وهو يسوق أسراه من الشاسو حيث تستقبله جموع الكهنة وكبار الموظفين بالترحاب على حدود مصر الشرقية عند قلعة ثارو ، أما أولئك الأسرى وجزيتهم فيقوم بتقديمهم قرباناً إلى المعبود آمون رع سيد طيبة وإله الدولة الرسمى.

وفى حملة تالية ، أتجه " سيتى الأول " مرة أخرى نحو آسيا لكى يتابع حملته الأولى التى طرد فيها الشاسو وأخضع بلاد كنعان ، ولا نعرف تفاصيل هذه الحملة الأخيرة ، لأن نصوصها على جدران معبد الكرنك قد ضاعت معالمها ، ولم يبق من تسجيلها على جدران معبد الكرنك سوى بعض البقايا ، وهى توضح مناظر هجوم الفرعون على قادش وقد سجل المنظر عبارة " الصعود الذى قام به الفرعون ليدمر أرض قادش وأرض آمورو " ، وتمكن الملك " سيتى الأول " فى هذه الحملة من الاستيلاء على العديد من المدن الآمورية .. وقد عثر للملك على تمثال على هيئة أبى الهول فى معبده الجنائزى بمنطقة القرنة ذكر عليه معظم البلاد التى أخضعها فى كنعان (فلسطين) وفى آسيا وهى حوالى ستة عشر بلدا (مساكن أصحاب الأقواس ثم بلاد خيتا وبلاد نهرين وأرسا وعكا وسامرا وبمرا وبيت شائيل وينوعام وكمهم وأواوزا وكمة وصيدا واوثو وبيت عنات وقراميم) ، وربما قد وصل فى هذه الحملة الثانية حتى قادش بعد أن تقدم عبر الساحل الفينيقى ، وتذكر نصوص تمثاله أنه أستولى على بلاد

سامرا وبلاد آمورو.

وبعد أن اطمأن « سيتى الأول » إلى استتباب الأوضاع فى الجبهة الغربية بعد حملته الحربية على الليبيين التى سنتحدث عنها لاحقاً ، عاد ليقود الجيش المصرى مرة أخرى فى الجبهة السورية فى السنة التالية (الخامسة أو السادسة) ليواجه الحيثيين. وفى ذلك الوقت كانت مدينة قادش المحورية فى وسط سوريا قد خرجت عن النفوذ المصرى منذ عصر العمارنة ، فحدد « سيتى الأول » هدفه وهو قهر أرض قادش وأرض آمورو. ومن ثم ففى حملة ثالثة عاد الجيش المصرى بقيادة « سيتى الأول » إلى آسيا وتقابل مع الحيثيين شمال قادش ، ولا يمكن تحديد موقع المعركة بالضبط نظراً لعدم وجود نص يحدد مكانها ، حيث صور منظر المعركة أعدادا كبيرة من القتلى والأسرى الذين أحضروا إلى مصر ، وربما وقع الفرعون فى هذه المرة معاهدة مع ملك الحيثيين ولكن لم تصلنا نصوصها ، كما أنه ليس لدينا تفاصيل عن المعركة التى دارت بين المصريين وقوات « مواتلى » ملك الحيثيين ، وإنما تذكر نصوص الفرعون أنه قد عاد منتصراً من هذه الحملة بعد أن قام بالاستيلاء على قادش. وخط سير هذه الحملة ليس معروفاً بالضبط ، وإن كان من المرجح أن « سيتى الأول » قد أتبع طريق « تحوتمس الثالث » فنقل جيشه بحراً إلى فينيقيا ثم هاجم آمورو ليشل حركتها ولو مؤقتاً ، ثم انحرف إلى الداخل وهاجم قادش نفسها. وقد خلد « سيتى الأول » هذا الحدث التاريخى بإقامة لوحة تذكارية فى قلب قادش نفسها كرسها للمعبودات المصرية آمون وست ومونتو. ويبدو أنه سرعان ما عادت سيطرة الحيثيين على قادش مرة أخرى ، لأن المصريين لم يتركوا حاميات عسكرية مناسبة تستطيع احتلال قادش وآمورو القريبتان من مناطق النفوذ الحيثى.

وبنهاية حروب « سيتى الأول » فى آسيا وطبقا لنصوص الكرنك ، فقد تمكن « سيتى الأول » من تحقيق انتصارات كثيرة أعاد من خلالها سيطرة مصر على مستعمراتها السابقة فى كنعان وأوبى ، ودعم حقوق مصر فى نصف الساحل الجنوبى لفينيقيا ، وباستيلائه على هذا الساحل اقتطع مقاطعة آمورو من أيدى الحيثيين – فيما عدا الجزء الشمالى الأقصى – وأصبحت أملاك مصر ملاصقة للأراضى الخاضعة لنفوذ الحيثيين ، وأصبح من المحتم أن تصطدم القوتان الكبرتان. ومن ثم فقد اضطر ابنه الملك « رمسيس الثانى » أن يخوض معركته الشهيرة فى قادش ضد الحيثيين فيما بعد ، فهناك ما يشير إلى أن المصريين رغم أنهم قد اكتسبوا سلطة

مؤقتة على سهل سوريا الشمالى فسرعان ما عاد النفوذ الحيثى إليه من جديد ، فخيتا لم ترض بفقدان قادش وآمورو وأصر الملك الحيثى " مواتلى " على استعادته للأملاك الحيثية ، وكان ذلك بداية للصراع الذى استمر بعد ذلك.

ونظراً لأن حرب الفرعون مع الحيثيين لم تأت بنتائج حاسمة لأى من الطرفين ، فلقد أدرك الخصمان الكبيران الفرعون المصرى " سيتى الأول " والملك الحيثى " مواتلى " أنه لن يتيسر لأحدهما القضاء على قوة الآخر بسهولة ، فتميع الموقف بينهما إلى حين ، وربما أنتهى إلى عقد هدنة بينهما ، والواقع أنه لم يعثر على أى أثر يحمل نصوص ذلك الصلح المحتمل ، وإنما أشير إليه فى المعاهدة الشهيرة التى أبرمت بين " رمسيس الثانى " والملك الحيثى " خاتوسيل الثالث " ، حيث قال الملك الحيثى فى معرض الحديث عن مواد الميثاق : " وكذلك الميثاق السابق الذى كان فى زمان أبى ، فإنى سأتمسك بما جاء فيه ، وهكذا رعمسيس حاكم مصر العظيم سيتمسك بذلك معى من هذا اليوم ".

والجدير بالملاحظة فى حروب " سيتى الأول " أنه قد تتبع نفس الخطوط الاستراتيجية الناجحة التى قام بها الفراعنة المحاربون خلال عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وعلى وجه الخصوص الفرعون المحارب العظيم " تحوتمس الثالث " ، والتى تمثلت فى تحقيق السيطرة أولاً على بلاد كنعان ثم الاتجاه للسيطرة على المدن الساحلية الفينيقية ، والتى يمكن من خلالها القيام بالهجوم نحو مناطق سوريا الوسطى والشمالية .. ويبدو أن حدود الإمبراطورية المصرية فى نهاية حروب " سيتى الأول " كانت تمتد شرقاً من مصب نهر الليطانى وأن مدن صور ومجدو وربما بيت شان قد استمرت كقواعد عسكرية مصرية. وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يحرز تقدماً بعيداً فى سوريا الشمالية إلا أنه قد نجح على الأقل فى فرض هيبة مصر فى كل من كنعان (فلسطين) وسوريا الجنوبية وأن يسيطر على إقليم آمورو الموالى للحيثيين ، وأن يعيد إلى الأذهان مجد مصر الحربى.

حملات سيتى الأول على الليبيين والكوشيين ..

فى العام الرابع أو الخامس من حكم الملك « سيتى الأول » ، دفعته الاضطرابات التى وقعت بالجبهة الليبية غربى الدلتا إلى ترك الجبهة الأسيوية ، وقيادة الجيش المصرى غرباً لمواجهة تحركات الليبيين ، التى أصبحت فجأة تمثل خطراً كبيراً فى ذلك الحين بعد أن بدأت هذه القبائل فى محاولة التسلل إلى مصر ، بحثاً عن أماكن استقرار فى أرض مصر الخصبة ، خاصة وأن أراضى الواحات فى الصحراء الغربية كانت معروفة منذ القدم بوفرة مراعيها وأنعامها ، ويبدو أنه كان ضمن هذه الجماعات قبائل التحنو والماشوش .. وقد نجح « سيتى الأول » فى محاصرتها بسهولة كبيرة دون أية مقاومة ولكنه لم يقض على الخطر بشكل كلى ، وسوف يشكل هذا الخطر الكثير من المتاعب لخلفائه. وقد جاء ذكر هذه الحملة الحربية الهامة فى نقوش الحائط الخارجى لقاعة الأعمدة لمعبد آمون بالكرنك بطيبة ، ومن المؤكد أنها كانت المواجهة العسكرية الأكبر مع الليبيين منذ وقت بعيد.

وفى العام الثامن من عهد الملك « سيتى الأول » أتجه الجيش المصرى إلى الجنوب ، حيث ثارت بلاد إرم بالنوبة العليا (كوش) على السيادة المصرية. ولقد ذكرت لوحتان من عمارة غرب وصاى – اللتين كانتا من أهم مراكز الإدارة المصرية فى النوبة العليا (كوش) خلال عصر الدولة الحديثة – مؤرختان بعهد الفرعون ، أن الفرعون قد وصلته أنباءاً هامة أثناء تواجده فى طيبة تفيد بوقوع بعض الاضطرابات من « الأعداء فى أرض إرم » فى الجنوب. ونظراً لخطورة هذه الاضطرابات الغير معتادة على أمن الطرق التجارية المصرية فى الجنوب فى بلاد النوبة ، وكذلك على أعمال التعدين التى كان يقوم بها المصريون فى هذه المناطق ، فقد تحرك الجيش المصرى مغادراً وادى النيل وقام بعبور الصحراء بعد أن كان متمركزاً فى قلعة « مهدأة الأرضين » ، وتمكن من القضاء على هذه الاضطرابات فى سبعة أيام ، كما تمكن من الاستيلاء على خمسة من آبار المياه وسقط فى يده أكثر من أربعمائة أسير. والجدير بالذكر أن هذه الحملة قد اتسمت بأمر هام ذكرته نصوص الفرعون ، تمثلت فى أنه قد أعتمد على تقارير مخابراته عن تحركات وخطط العدو قبل أن يقوم بإرسال القوات المصرية إلى الجنوب .. ولقد كانت هذه الحملة الحربية هى الأخيرة فى تاريخ « سيتى الأول » ، وقد حدثت بعد بضعة

أعوام من حروبه الكبرى التى خاضها فى سوريا وفلسطين والتى سجلها على الجدران الشمالية لقاعة الأعمدة الكبرى بالكرنك.

* * * * *

المراجع

- Badawi, A.M., 'Die Neue Historische Stele Amenophis II', ASAE 42 (1943).
- Baikee, J., The Amarna Age, London (1926).
- Bryan, B.M., The Reign of Thutomse IV, London (1991).
- Darnell J.C. and Manassa, C., Tutankhamun's Armies, Battle and Conquest during Ancient Egypt's Late 18th Dynasty, New Jersey (2007).
- Davies, N. de G., The Rock Tombs of EL-Amarna, 6 Vols., London (1903-1908).
- Davies, N. de G., The Tombs of Two Officials of Thutmosis the Fourth, London (1923).
- Desroches-Noblecourt, C., Vie et Mort d' Un Pharaon Toutankhamon, Paris (1977).
- Drower, M.S., 'Syria 1550-1400 BC', CAH, Vol. II, Part I, Cambridge (1973).
- Edel, E., 'Die Stelen Amenophis II aus Karnak und Memphis', ZDPV 69 (1953).
- Faulkner, R.O., 'The Wars of Sethos I', JEA 33 (1947).
- Grimal, N., A History of Ancient Egypt, Oxford (1992).
- Hall, H.A., 'Egypt and the External World in the Time of Akhenaten', JEA 7 (1921).
- Kuentz, Ch., 'Deux Steles d' Amenophis II', BdE 10 (1925).
- Malamat, A., 'Campaigns of Amenhotep II and Tuthmosis IV to Canaan', Scripta Hierosolymitana 8 (1961).
- Martin, G.T., The Memphite Tomb of Horemheb, Commander-in-Chief of Tutankhamun, Vol. I, London (1989).
- Mercer, S.A.B., The Tell El-Amarna Tablets, 2 Vols., Toronto (1939).
- Moran, W.L., The Amarna Letters, Baltimore (1992).
- Murnane, W.J., The Road to Kadesh: A Historical Interpretation of the Battle Reliefs of King Seti I at Karnak, Chicago (1985).
- Redford, D.B., 'New Light on the Asiatic Campaign of Horemheb', BASOR 211 (1973).

- Redford, D.B., Egypt, Canaan and Israel in Ancient Times, Princeton (1992).
- Sandman, M., Texts from the Time of Akhenaten, Bruxelles (1938).
- Schulman, A.R., 'Some Observations on the Military Background of the Amarna Period', JARCE 3 (1964).
- Spalinger, A.J., 'The Northern Wars of Seti I: An Integrative Study', JARCE 16 (1979).
- Spalinger, A.J., 'The Historical Implications of the Year 9 Campaign of Amenophis II', JSSEA 13 (1983).
- The Epigraphic Survey, Reliefs and Inscriptions at Karnak, Vol. IV. The Battle Reilefs of King Seti I, Chicago (1986).
- Vercoutter, J., 'Une Campagne militaire de Seti I en Haute Nubie. Stèle de Sai S. 579', RdE 24 (1972).
- Zayed, A., 'Une representation inédite des campagnes d'Aménophis II', in: Mélanges Gamal Eddin Mokhtar, ed. Posener-Kriéger, Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire (1985).
- Zayed, A., 'Perou-Nefer port de guerre d' Amenophis II', ASAE 66 (1987).

الفصل الخامس

رمسيس الثانى ومعارك الخلود

فى عام ١٢٧٩ ق. م ، خلف فرعون مصر الشهير الملك « رمسيس الثانى » والده الملك « سيتى الأول » على عرش مصر ، وكان ملك مصر الشاب طموحاً وجسوراً إلى حد بعيد ، ومن ثم فقد عمل على استكمال مشاريع والده العسكرية فى آسيا والتى هدفت إلى إستعادة أملاك الإمبراطورية المصرية هناك .. وكان أمراً حتمياً أن يحدث مرة أخرى الصدام الحربى الكبير بين أكبر قوتين فى منطقة الشرق الأدنى القديم آنذاك ، وهما الإمبراطورية المصرية والإمبراطورية الحيثية ، حيث قاد الملك « رمسيس الثانى » الجيش المصرى لقتال القوة الحربية الأقوى فى عصره المتمثلة فى الحيثيين ، وخاض الفرعون ضد الحيثيين وحلفائهم معركة تعد هى الأشهر والأقوى فى تاريخ العالم القديم على الاطلاق وهى معركة قادش الكبرى ، التى تعددت المصادر والدراسات التاريخية الخاصة بها ، والتى أعتبرها المؤرخون بالفعل مواجهة عسكرية فاصلة وحاسمة فى تاريخ العالم القديم .. ولولا النضال الحربى المرير الذى خاضه « رمسيس الثانى » فى معركة قادش ، ولولا تلك المعارك الحربية الضارية التى قاد فيها الفرعون الجيش المصرى فى سوريا وكنعان إلى النصر فى أعقاب معركة قادش ، لما تحقق السلام فى المنطقة بين القوتين العظمتين مصر وخيتا ، ومن ثم فقد أستحقت تلك المعارك التى خاضها هذا الفرعون المحارب الباسل بأن يطلق عليها معارك الخلود.

الأمير المحارب وغزو النوبة ..

عندما تولى الملك « سيتى الأول » عرش البلاد منح الأمير « رمسيس » – باعتباره أكبر أبناء الملك – اللقب الفخرى الضخم « القائد العام للجيش » ، وإن كان بعض المؤرخين قد رأوا أن هذا المنصب كان فخرياً وبلا سلطات حقيقية ، لأن الأمير « رمسيس » كان يبلغ من العمر آنذاك عشر سنوات ، ومع ذلك فقد ظل « رمسيس الثانى » يفخر بهذا اللقب طوال عمره .. وقد شارك الملك « رمسيس الثانى » عندما كان أميراً فى حملة الملك « سيتى الأول » الحربية على

ليبيا ، حيث كان يبلغ من العمر أربعة عشرة عاماً ، وقد دلت نقوش هذه المعركة التى سجلت على جدران معبد الكرنك على ضآلة دور الأمير « رمسيس » فى هذه المعركة ، ولكن سرعان ما أبرز الأمير بتكوينه الضئيل فى أحد المشاهد ، حيث كان يبدو كما لو كان يساعد أباه الملك « سيتى الأول » فى قتل أحد القواد الليبيين .. وقد رافق الأمير أباه للمرة الثانية وشارك فى حملة الفرعون على الجبهة السورية فى السنة التالية التى استهدفت غزو قادش وآمورو.

وفى العام الثالث عشر من عهد والده ، قاد « رمسيس الثانى » الحملة الحربية التى وجهت إلى النوبة السفلى باسم والده وكان حينها يبلغ من العمر نحو اثنان وعشرون عاماً ، وبالمثل فقد قام « رمسيس الثانى » فى تلك الحملة باصطحاب اثنين من كبار أبنائه هما الأميرين « آمون حر خبش إف » و« خع إم واست » .. ويمكننا القول أن هذه الحملة الحربية كانت أولى المعارك الحربية الهامة التى قادها الفرعون المحارب بنفسه حين كان ولياً للعهد ، وقد سجلت مناظر هذه الحملة على جدران معبد بيت الوالى بالنوبة ، ونشاهد من خلال هذه المناظر هجوماً للقوات المصرية على قرية نوبية فى أقصى الجنوب ، ويعلو صور العدو فيها نص يقول « الذين يعتدون على حدوده » ، مما يشير إلى أنها حملة تأديبية للجيش المصرى. ويظهر فى المنظر « رمسيس الثانى » فوق مركبته (عربته) الحربية يتبعه الأميرين « آمون حر خبش إف » و« خع إم واست » فى عربتيهما الحربية ، وهم يهجمون على مجموعة من النوبيين المسلحين بالأقواس والسهام ، وهم يفرون إلى معسكرهم وسط النخيل ، ويحمل محاربان نوبيان زميلهما الجريح ، ونرى النساء والأطفال يتدافعون فى ذعر. ثم يلى ذلك منظر للفرعون « رمسيس الثانى » جالساً فى خيمته على عرشه ، يتقبل الجزية من كوش ، يقدمها له نبلاء مصريون ، من بينهم نائب الملك فى كوش « آمون إم أوبت » ، وقد رافق الجزية بعض الأسرى ، كما صور أيضاً مجموعة من الجنود النوبيين المسلحين بالحراب ، كدليل على استخدامهم فى الحملات التأديبية ضد بلادهم ، وكشاهد أيضاً على اطمئنان الحكم المصرى فى الجنوب وقت ذاك.

وهناك أحد المناظر الشهيرة المسجلة فى معبد أبوسمبل الكبير التى صور من خلالها الملك « رمسيس الثانى » فوق مركبته الحربية وقد رافقه أسده وأحد الرماة المصريين وتبعه صفين من الأسرى النوبيين المقيدين ، ويرى جانب كبير من المؤرخين أن هذا المنظر يرتبط بنفس

الحملة المسجلة على جدران معبد بيت الوالى والتى تمت خلال عهد الملك « سيتى الأول ». كما سجلت مناظر لحملة نوبية على جدران معبد الدر تتشابه تماماً مع المناظر المسجلة فى معبد بيت الوالى ، وقد صور الفرعون من خلالها وهو عائداً بالأسرى النوبيين.

ولقد حرص « رمسيس الثانى » من خلال معابده العديدة التى قام بتشييدها فى بلاد النوبة – والتى تمثلت فى معابد بيت الوالى وأبوسمبل الكبير وأبوسمبل الصغير والدر ووادى السبوع وجرف حسين وعكشا وعمارة غرب – على أن يسجل الكثير من مناظر الانتصار الرمزية التى تصور قمعه للنوبيين وسيطرته على بلادهم فى كثير من الزهو ، الأمر الذى يشير إلى مقدار خضوع النوبة للسيطرة والهيمنة المصرية خلال عهده.

الحرب على الشردان قراصنة البحار ..

فى العام الثانى من عهد الملك « رمسيس الثانى » واجهت مصر إحدى هجمات شعوب البحر من الشردان على سواحلها الشمالية ، وقد قام الفرعون بإرسال قواته وسفنه على النقاط الاستراتيجية الموجودة على السواحل الشمالية لمصر ، وبالفعل تصدت القوات المصرية لهذا الهجوم وقامت بأسر عدد كبير من الشردان .. وقد تم تسجيل هذا الحدث التاريخى على لوحة عثر عليها فى تانيس وصفت هؤلاء الغزاة الشردان بأنهم « قد قدموا فى سفنهم من أواسط البحر ولم يتمكن أحد من الوقوف فى وجههم » ، وأغلب الظن أن المعركة التى وقعت بين القوات المصرية والغزاة الشردان قد كانت معركة بحرية عند مصبات النيل .. وقد ألحق عدد كبير من هؤلاء الأسرى الشردان بالخدمة العسكرية المصرية ، ووجدوا مصورين وهم يقاتلون فى صفوف الجيش المصرى فى معركة قادش وأصبحوا يكونون جانباً كبيراً من حرس الملك « رمسيس الثانى » ، كما استمر تواجدهم فى صفوف الجيش المصرى طوال عصر الرعامسة.

الحملة السورية الأولى ..

حين خلف الملك " رمسيس الثانى " والده الملك " سيتى الأول " على العرش عمل على توجيه عنايته إلى مواصلة حروب أبيه فى سوريا ، وفى هذه الأثناء كانت حدود الإمبراطورية المصرية فى آسيا تشمل بلاد كنعان وأجزاء واسعة من الساحل الفينيقى ووادى البقاع. ومن ثم فقد قام الفرعون بأولى حملاته على سوريا فى العام الرابع من حكمه ، وقاد الفرعون الجيش المصرى للمسير عبر ساحل كنعان ولبنان إلى عرقاتا ، ثم عاد عن طريق جبيل وصيدا ونهر الكلب (شمال بيروت) .. وتمثلت نتيجة هذه الحملة فى إحكام قبضة الفرعون على صور وجبيل ، ويبدو أنه تجاوزهما على الساحل وأستولى على عرقاتا بعد أن قام بحصارها ، ثم قام بمهاجمة آمورو التى استولى عليها فى خلال شهرين ، وأصبح الطريق ممهداً إلى قادش ، إلا أن الفرعون ترك مهمة الاستيلاء على قادش إلى حملته التالية ، وعاد إلى مصر بعد هذه الحملة المظفرة حيث أقام العديد من النصب التى أشار فيها إلى هذا النصر فى جبيل ، كما ترك نقشاً عند نهر الكلب بالقرب من بيروت ، وربما قد ترك نقشاً ثالثاً فى صور.

معركة قادش الكبرى ..

تمثلت الحملة الحربية الثانية للملك " رمسيس الثانى " فى آسيا فى معركة قادش الشهيرة التى اعتبرت فى رأى الكثير من المؤرخين والباحثين المعركة الحربية الأشهر فى تاريخ العالم القديم ، حيث تعد معركة قادش الحدث الحربى المصرى الذى تجمع عنه أكبر قدر من الوثائق ، فقد سجلت عدة مرات وبروايات مختلفة فى المصادر المصرية بتفصيل دقيق وبأكثر من صورة وعلى آثار متعددة ، كما حظيت هذه المعركة أكثر من غيرها بإهتمام العديد من الباحثين فى أحداث التاريخ المصرى القديم .. والمصادر التى تناولت هذه المعركة هى كالتالى :-

١ – القصيدة : وهى ملحمة شعرية كتبها الناسخ " بنتاؤور " ، وقد تناول فيها تفاصيل المعركة ، وهى تمجيد لشخص " رمسيس الثانى " وشجاعته حيث نسبت إليه الانتصار فى المعركة ، وقد سجلت على جدران معابد أبيدوس والأقصر والكرنك والرمسيوم ، كما كتبت على بردية رايفيه الموجودة بمتحف اللوفر وبردية ساليبه الثالثة وظهر بردية شيستر بيتى الثالثة الموجودتان بالمتحف البريطانى .

٢ – التقرير : وهو ما نقش بجوار المناظر المصورة للمعركة ويحتوى على معلومات أدق من التى جاء ذكرها بالقصيدة.

٣ – خطاب عثر عليه فى بوغازكوى : وهو من " رمسيس الثانى " إلى " خاتوسيل الثالث " ملك الحيثيين وبه وصف للمعركة.

٤ – مناظر المعركة والنصوص المصاحبة لها : صورت هذه المعركة على الوجه الخارجى للجدار الجنوبى لبهو الأعمدة بالكرنك ، وعلى الوجه الخارجى للجدار الغربى بين الصروح الثامن والتاسع والعاشر بنفس المعبد ، وفى معبد الرمسيوم بغربى طيبة ، وفى معبد " رمسيس الثانى " بأبيدوس ، وعلى الجدار الشمالى للصالة الكبيرة بمعبد أبوسمبل الكبير ، وعلى صرح " رمسيس الثانى " بمعبد الأقصر ، كذلك صورت على الوجه الخارجى للجدار الغربى بصالة المواكب بنفس المعبد.

وفى خريف العام الخامس من حكمه عام ١٢٧٤ ق. م تقريباً ، قام الفرعون " رمسيس الثانى " بحملته الحربية الشهيرة ضد الحيثيين بقصد السيطرة على سوريا. ولقد عمل الحيثيون بقيادة ملكهم " مواتلى " على استعادة آمورو من مصر وحماية قادش وما حولها وذلك بتوجيه ضربة قاسية لمصر تمنعها بعد ذلك من تهديد الأملاك الحيثية فى سوريا .. ولقد أعتبر المؤرخ الشهير " جيمس هنرى برستد " J.H. Breasted معركة قادش أول معركة فى التاريخ أتبعت أساليب وتكتيكات الحرب الحديثة من كل من الجانبين المصرى والحيثى ، كما تمتعت معركة قادش بأهمية بالغة ، باعتبارها نقطة تحول فى الموقف السياسى الجديد فى الشرق الأدنى ، وقمة للفن الحربى فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد .. وقد كانت القوات العسكرية التى أستخدمت فى معركة قادش كبيرة العدد ، بحيث تعطينا شعوراً وتصوراً لما سبق المعركة من تعبئة وطنية فى كل من الجانبين المتحاربين. وشاركت فى المعركة عشرون ولاية على الأقل من الولايات والحاميات التابعة للحيثيين فى مناطق آسيا الصغرى وعلى سواحل البحر الأيونى ، وكانت قواتها جميعا تحت قيادة " مواتلى " ملك الحيثيين. وتقدر المصادر المصرية الموجة الأولى من الهجوم الذى شنه سلاح المركبات الحربية لجيش الحيثيين بأنه قد شاركت فيها ألفان وخمسمائة مركبة حيثية ، كما اشتركت فى الموجة الثانية ألف مركبة حيثية.

ومما لا شك فيه أن تسجيل معركة قادش عدة مرات فى المصادر المصرية كان انعكاساً للأهمية التى كان ينظر بها المصريون إلى أهدافها الاستراتيجية. فقد كانت المشكلة الكبرى المتعلقة بإحياء الإمبراطورية المصرية فى آسيا ، والتى تأجلت رغم إرادة المصريين منذ أزمة العمارنة ، لا يمكن أن تحل – فى نظر حكام مصر العسكريين – إلا عن طريق حشد الامكانات القومية المصرية على نحو هجومى. ولذلك فقد كان هدف الخطة المصرية هو القضاء على قوة الحيثيين بهجوم مفاجئ ، يتم فيه الاستيلاء على قادش ، وهى المركز الاستراتيجى بالقرب من مخرج وادى البقاع بين لبنان وسوريا. وتدل على ذلك السرعة الهائلة التى تقدمت بها الجيوش المصرية ، حيث وصلت إلى التلال المشرفة على قادش بعد شهر واحد من عبورها حدود مصر الشرقية. ولقد كانت الخطط الاستراتيجية المصرية دقيقة بصفة عامة فى خطوطها العريضة ، حتى من وجهة نظر الفكرى العسكرى الحديث ، فلم يكن هناك بديل آخر للتقدم الاستراتيجى إلى ميدان المعركة ، حيث كان على الجيش المصرى أن يجتاز وادى البقاع ، ليتجنب الطريق الساحلى الضيق الذى تعترضه مصبات الأنهار على طول الشاطئ الفينيقى.

بدأ كل من المصريين والحيثيين الاستعداد الضخم للصدام المحتوم بينهما ، فقد قام « مواتلى » ملك الحيثيين بتجنيد كل من استطاع من رجال دولته ، حيث تذكر النصوص المصرية أنه : « لم يترك بلداً أجنبياً واحداً ، دون أن يحضر ذلك البلد البعيد ومعهم رؤساءهم ، ومعه كل رجال مشاته ، وكانت عرباتهم كثيرة جداً وبدون حصر ، وقد غطوا الجبال والوديان بسبب كثرتهم ، وكأنهم جراد » ، كما ذكرت النصوص المصرية كذلك عن استعدادات الملك الحيثى لهذه المعركة أنه : « لم يترك فضة فى بلده ، فقد سلبها كل ممتلكاتها ، وأعطاها لكل البلاد الأجنبية ليأتى بهم معه إلى القتال » .. وفى الجانب الآخر ، لم تكن استعدادات الملك « رمسيس الثانى » بأقل من منافسه الحيثى ، ويبدو كذلك أنه قد أحتاج إلى نفقات كبيرة ، وقد تكون الجيش المصرى من عشرين ألف مقاتل ، ونظمت القوات المصرية فى أربعة فرق أو فيالق ، هم آمون ورع وبتاح وست ، فمن طيبة أتى فيلق آمون ، ومن هليوبوليس والدلتا أتى فيلق رع ، ومن منف ومصر الوسطى أتى فيلق بتاح ، ومن بر رعمسيس أتى فيلق ست ، ويرى بعض المؤرخين أن الملك « رمسيس الثانى » قد فرض التجنيد الإجبارى على رعاياه فى فلسطين. وتذكر النصوص المصرية عن استعدادات الفرعون

للمعركة : « لقد جهز جلالته مشاته ومركباته الحربية والشردان أسرى جلالته الذين أحضرهم بانتصار ذراعه القوى ، مجهزين بكل أسلحتهم ، وقد أعطيت لهم خطة القتال » .. وهكذا فقد عبأ الملك « رمسيس الثانى » جيوشه وتقدم بها لسحق جيوش الحيثيين الذين قد ألبوا الكثير من سكان سوريا ضد مصر ، وقد تجمع أعداء الفرعون من جيوش الحيثيين وحلفائهم فى مدينة قادش السورية الواقعة بمرتفع مكان تل نبى مند الحالى على الشاطئ الأيسر لنهر العاصى ، وأتخذوا منها مركزاً لعملياتهم الحربية ، وهى المدينة الحصينة ذات الموقع الطبيعى والاستراتيجى المهم ، إذ تقع بين ثلاثة فروع مائية ، كما أنها تشرف على وادى النهر الكبير وتتحكم فى مدخل وادى البقاع ، وقد عرفت منذ أيام الفرعون المحارب « تحوتمس الثالث » بأنها بوابة سوريا الشمالية وما يليها.

وسار الملك « رمسيس الثانى » على رأس جيشه من قلعة ثارو الواقعة على الحدود الشمالية الشرقية ، وكما ذكرنا فقد قسمت قواته إلى أربعة فيالق آمون ورع وبتاح وست ، وقد كان فيلق آمون تحت قيادة الملك « رمسيس الثانى » نفسه. وكان فى المقدمة فيلق آمون يليه ببضعة أميال فيلق رع ، ويليه فيلق بتاح ، أما فيلق ست فلقد كان بعيداً فى مؤخرة الجيش. وقامت الخطة العسكرية المصرية على أساس أن يقود الفرعون بنفسه الجزء الأساسى من الجيش عن طريق البر إلى كنعان ثم جنوب سوريا حتى يصل إلى قادش ، بينما تسلك القوات المعاونة طريق الساحل الفينيقى ثم تنحرف للداخل شرقاً لتلتحم بالقوات الرئيسة بقيادة الفرعون فى قادش ، على أن يكون وصولها فى نفس اليوم الذى تصل فيه القوات الأساسية. وأتجه الجيش المصرى من مصر إلى غزة حيث عبر كنعان ثم صعد فى طريق الجليل وأتجه إلى الممرات التى تخترق وادى البقاع.

وفى طريق القوات المصرية إلى المعركة قبض رجال الجيش المصرى على رجلين من بدو الشاسو ذكرا أنهما كانا مع ملك الحيثيين وأرادا أن يخدعا الفرعون ، ومن ثم فمن خلال استجوابهما على يد رجال الجيش المصرى أخبرا الملك « رمسيس الثانى » بأن جيش الحيثيين لايزال بعيداً عن قادش فى الشمال عند منطقة حلب وعن مواقع القوات المصرية ، وأنه يخشى الزحف ناحية الجنوب خوفاً من الفرعون والجيش المصرى ، وقالا أيضا بأن جيش العدو يقوم بالانسحاب من أرض المعركة .. وفى الواقع فإن هذين البدويين لم يكونا غير جاسوسين ،

تسببا فى ايقاع الفرعون فى خطأ عسكرى فادح ، حيث أنه نتيجة لتصديقه لكلامهما أندفع بكل سرعة بعرباته وقواته إلى الأمام ، تاركاً ورائه معظم قواته الثقيلة. وبعد أن صدق الفرعون ما قاله الأسيران ، أسرع بأجتياز المخاضة ثم عبر السهل المؤدى إلى قادش ، تتبعه عن قرب فرقة آمون ، حيث عسكر فى شمال غرب قادش.

وأثناء انتظار الفرعون لوصول فرق الجيش الثلاث الأخرى ، تمكنت إحدى الدوريات المصرية من القبض على جاسوسين من الحيثيين ، أخبرا الفرعون بأن الملك الحيثى وحلفائه متواجدون على مبعدة ميلين منه خلف قادش وعلى أهبة الاستعداد لقتاله ، وحسب هذه المعلومات الجديدة فقد غير الفرعون من خطته العسكرية فأرسل يستدعى فرقة بتاح بسرعة وهى كانت لاتزال لم تعبر نهر العاصى ، بينما كانت فرقة رع فى طريقها للمعسكر.

وفجأة تعرضت القوات المصرية إلى كمين أحكم تدبيره ، ووجه الحيثيون إلى فرقة رع ضربة أصابتها فى الصميم وقاموا بهجوم مفاجئ ضدها ، حتى كاد أن ينتشر الرعب فى قلوب المصريين ، وأن تشاع روح الهزيمة بينهم ، وقد أصبح الملك « رمسيس الثانى » محصوراً بين الجنود الحيثيين .. ويبدو أن « مواتلى » ملك الحيثيين كان ينوى القضاء على الخطوط الخلفية للجيش المصرى ، وبعد أن عبر بسرية تامة الشاطئ الشرقى لنهر العاصى ، أتجه نحو الجنوب ، حيث كان « رمسيس الثانى » يتقدم فى اتجاه الشمال بمحاذاة الشاطئ الغربى ، وعندما أقترب الفرعون من قادش مع قواته الأمامية ، قطعت عليه قوات العدو الطريق عن بقية قواته الثقيلة ، وكانت القوات الحيثية أكثر عدداً وعتاداً عندما عبرت نهر العاصى ، وكانت تحت قيادة شقيق ملك الحيثيين ، وهكذا أصبح هناك حائل بين « رمسيس الثانى » وقواته الثقيلة .. ولم يكن أمام القوات المصرية وقت كاف لكى يغيروا من خططهم ويعودوا أدراجهم ، فقد كان العدو بينهم ، وأنسحبت قوات المشاة بسرعة ، ووقعت مركبات الملك الحربية وقوات الحرس الملكى فى الشرك وأصبحت منعزلة تماماً ، وقد حدث الاضطراب والبلبلة فى صفوف الجيش المصرى. وكانت الكارثة الحقيقية تتمثل فى حصار القوات الحيثية للملك « رمسيس الثانى » وقوات حرسه من جميع النواحى ، وقد تكونت قوات الحيثيين من المركبات الحربية.

كان عدم مقدرة قوات الاستطلاع والتجسس المصرية على تحديد مواقع العدو تحديداً دقيقاً أمراً لا يمكن مغفرته ولا يمكن تفسيره ، حتى فى ضوء الثقة البالغة بالنفس التى كان يشعر بها الفرعون الشاب « رمسيس الثانى ». وحتى المعلومات التى أنتزعت من الجاسوسين الحيثيين عن المواقع الجديدة للقوات الحيثية وحلفائها فى قادش ، فقد أمكن الحصول عليها فقط بعد أن عبرت فرقة آمون بقيادة « رمسيس الثانى » مخاضة نهر العاصى ، وعسكرت على مسافة بضعة كيلومترات إلى الشمال الغربى من قادش حيث تتمركز القوات الحيثية الضاربة ، وكان الوقت متأخراً جداً بكل المعايير بالنسبة للجيش المصرى لأن يدخل أى تعديلات على مواقع فرقه. ولذلك فقد شن الحيثيون أول موجة قوية من الهجوم بواسطة المركبات الحربية فى اتجاه الجنوب على فرقة رع وهى تتقدم شمالاً وأثناء عبورها نهر شبتونا .. وهذا الهجوم الخطير الغير متوقع كان من الممكن أن ينتهى بكارثة للجيش المصرى ، لولا ثلاثة عوامل منعت تعرض الموقف العسكرى المصرى للتدهور الكامل. أول هذه العوامل كان ذا طبيعة إستراتيجية ، حيث أن فرقتى بتاح وست اللتين كانتا تضمان نصف القوة الضاربة للجيش المصرى ، كانتا لا تزالان فى طريقهما نحو مسرح العمليات الحربية. وفور وصول المعلومات الصحيحة عن المواقع الحقيقية لقوات الحيثيين إلى القيادة العامة للقوات المصرية حين كانت فى منطقة الشمال الغربى من قادش ، أرسل « رمسيس الثانى » وزيره على عجل إلى الجنوب لتنظيم تدخل هاتين الفرقتين فى القتال. وهكذا فإن ما بدا فى أول الأمر كخسارة تكتيكية للجيش المصرى ، نتيجة لغياب فرقتى بتاح وست عن أرض المعركة ، لم يلبث أن ثبت أنه كان ميزة إستراتيجية حاسمة. ومن الواضح أن ملك الحيثيين الماهر قد أدرك أنه ليس فى موقف يمكنه من استخدام كل قوته الضاربة فى الموجة الأولى من الهجوم ضد فرقة رع على طول نهر العاصى. ولذلك فعندما شاهد الموقف الاستراتيجى للجيش المصرى وقواته الاحتياطية الجديدة الضخمة فى الجنوب ، لم يستطع أن يهجم بكل مركباته الحربية ، واضطر إلى ابقاء احتياطيه خارج المعركة. ثم قام ملك الحيثيين باستخدام هذا الاحتياطى من المركبات الحربية فى هجومه الثانى ، عندما بدأ الهجوم المضاد المنظم لـ « رمسيس الثانى » ضد الجناح الشرقى الهزيل للمركبات الحربية المعادية على طول النهر يأتى بنتائج حاسمة. ولكن بعد الالقاء بكل قوات الاحتياطى من المركبات الحيثية فى القتال الفعلى ، وبعد وصول فرقة بتاح إلى ميدان القتال فى

نفس ليلة المعركة ، أدرك « مواتلى » بوضوح أنه فقد آخر فرصة فى إحراز نصر حاسم ، ولذلك فقد أمر بسحب مركباته الحربية إلى مدينة قادش.

أما العامل الثانى الذى أخل بالخطط التكتيكية للحيثيين ، فكان وصول التعزيزات ، التى ربما كانت قد نقلت بطريق البحر وهبطت على ساحل آمورو ، وهى نجدة من فرقة «نعرين » التى وصلت إلى ميدان المعركة تحت إمرة ضباط مصريين ، قادمة من الشمال ، وشاركت فوراً فى الهجوم المصرى المضاد الذى قاده « رمسيس الثانى » بنفسه ، مما أدى إلى منع المركبات الحيثية من الاستفادة بنصرها المؤقت الذى أحرزته فى الهجوم الأول على فرقة رع. ولا شك أن ظهور هذه القوات الجديدة قد ساهم على نحو كبير فى رفع معنويات القوات المصرية بصفة عامة ، وقوات فرقة رع بصفة خاصة ، الأمر الذى مكن ضباط هاتين الفرقتين من إنجاز المهمة العسيرة الخاصة بإعادة تنظيم طوابيرهم المشتتة.

وكان العامل الثالث الذى ساهم فى تخفيف حدة الهجوم التكتيكى المفاجئ للقوات الحيثية ، يتمثل فى الطريقة التى تصرفت بها القيادة المصرية العامة والفرعون « رمسيس الثانى ». فقد أبدى « رمسيس الثانى » وقواته بسالة نادرة فى اقتحام جيش العدو ، مع التوقيت الدقيق لشن الهجوم المضاد على الطابور الهزيل من المركبات الحربية الحيثية على طول نهر العاصى ، بدلاً من مواجهة جيش العدو المحتشد على الضفة الغربية ، مما أعطى القوات المصرية المقاتلة فى الشمال ، وفرقة بتاح فى الجنوب ، الوقت الكافى والملائم للتدخل فى المعركة .. ومما لا شك فيه أن رد فعل « رمسيس الثانى » الفورى والسريع حيال هذا الموقف ينم عن حدة بصيرته وبسالته النادرة التى لا جدال فيها مطلقاً ، فقد قام الفرعون على الفور باستدعاء أركان حربه حتى يتدبر ويتفحص بشأن تلك الكارثة وشيكة الوقوع. وبالتأكيد ، لم تكن هذه هى اللحظة المناسبة لكى يبين الفرعون ذلك الاهمال الجسيم من جهاز مخابراته ، خاصة أن مجلس الحرب هذا كان يعلم تماماً بدلائل القصور والعجز هذه ، والتى تعتبر قانوناً بمثابة جريمة خيانة عظمى. ومن ثم ، فقد سارع الفرعون بإرسال الوزير الأعلى وبرفقته الأمير « با رع حر ونم إف » الشجاع الأول بالجيش ورئيس الاسطبلات الملكية وبعض المراسلين إلى شبتونا من أجل استعجال فرقة بتاح وحثها على القدوم سريعاً.

وإذا عدنا مرة أخرى للحديث عن أحداث المعركة ، فسوف نجد أنه كان من نتيجة الهجوم الذى شنه الحيثيون أن دخلت قوات العدو إلى معسكر الفرعون ، وتوضح مناظر المعركة التى سجلها فنانو الملك " رمسيس الثانى " أن قوات الحرس الملكى المكونة من المشاة الثقيلة ، والتى كانت معسكرة حول المعسكر ، قد تصدت بضراوة وقوة لهجوم المركبات الحربية الحيثية. وقد أدى هذا التصدى الذى قامت به قوات الحرس الملكى إلى نجاة الملك " رمسيس الثانى " من الموت المحقق والتجائه إلى خطوطه الجنوبية مع قوات الحرس الملكى التى كانت بجانبه فى هذه اللحظات الحرجة. ويبدو أن جنود فرقة رع الفارين من هجوم الحيثيين قد أندفعوا فى حالة تخبط شديدة نحو معسكر الفرعون المحاط بفرقة آمون ، حيث كان مجلس الحرب المحدود الذى كان الفرعون قد استدعاه سريعاً قد أختتم لتوه ، وفوجئ الملك " رمسيس الثانى " بهذا الهجوم على معسكره ، فعمل على إبعاد أسرته إلى مكان آمن ، وتمكن من جمع أفراد حرسه المقربين ، ورئيس حظائر جياده " منا " الذى سارع بتجهيز مركبة الفرعون الحربية ، لكى ينطلق الفرعون فى قلب الصراع الدامى ، فى لحظة خاطفة ، تكاد تكون معجزة.

كان على " رمسيس الثانى " أن يواجه وحده مع قوات حرسه العدو وقد أوشك الحيثيون أن ينتصروا ، بعد أن دفعوا بالقوات المصرية نحو جبهة جديدة كانت مهددة من الخلف بواسطة الحامية التى كانت تقطن فى قادش ، وبعد أن أصبح " رمسيس الثانى " معزولاً فى اليسار بواسطة النهر. وعلى قمة الجبال المواجهة له كان يوجد ملك الحيثيين يراقب مسار القتال ، وكانت فرصة النجاة الوحيدة أمام " رمسيس الثانى " أن يتبع الطريق الذى يوازى النهر ، ويحاول أن يمهد له ثغرة بين صفوف الأعداء .. وفى هذه اللحظة أظهر " رمسيس الثانى " للملأ عظمته الحقيقية ، إذ أنتهز فرصة جشع جنود العدو فى السلب والنهب ، وقبض على ناصية الموقف وهجم على جنود العدو الذين حاصروه فى معسكره – ولم يكن معه إلا حرسه – فى أضعف نقطة بشدة وبأس وعنف بالغين حتى أنه قذف بهم فى النهر ، وأمكنه قطع طريقه سريعاً إلى خطوطه الجنوبية وربط خطوطه فيما بعد.

وقد استطاع الفرعون بمعونة حرسه أن يشن على الحيثيين تلك الغارة الساحقة التى خلد ذكرها المصريون فيما بعد فى ملحمة رائعة ، ولابد أن " رمسيس الثانى " كان يبدو عظيماً وهو يهاجم أعدائه وهو فى مركبته الحربية ، وقوسه الكبير يرسل السهم تلو الآخر إليهم نحو

قلوب أعدائه ، فتصف نصوص ملحمة قادش الفرعون بأنه : « بطل بغير مثيل ، ذراعاه قويتان وقلبه جسور ، جميل الصورة مثل آتوم .. منتصر فى كل الأراضى ، لا يستطيع أحد أن يرفع سلاحه ضده ، وهو حافظ لجنده ودرع لهم يوم القتال ، وهو حامل قوس لا نظير له وهو أقوى من مئات الألوف مجتمعين .. لا يستطيع ألف رجل أن يقفوا أمامه ، ويصيب الاغماء منه الالاف حين يتطلعون نحوه ، وهو يبعث الرعب حيث يصرخ عالياً ، إنه يجعل قلوب الأجانب تهن كما يفعل الأسد المتوحش فى وديان الصحارى .. إنه هو الذى ينقذ جيشه ويحمى حرسه ويخلص جيوشه .. قلبه كجبل من التبر .. إنه الملك رمسيس » .. كما وصفت نصوص « رمسيس الثانى » هجوم الفرعون على الحيثيين بأسلوب ملحمى ممتع كما يلى : « عندئذ ظهر جلالته شبيهاً بأبيه مونتو ، وأمسك بأسلحته ، وارتدى زيه الحربى ، مثل المعبود بعل فى ثورة عنيفة ، وكانت المركبة الحربية التى تحمل اسم نصر فى طيبة قد جاءت من اسطبل ملكى كبير .. واندفع جلالته واخترق صفوف هؤلاء الحيثيين الجبناء ، وكان وحيداً بالفعل ، ولم يكن معه أحد ، وعندما ألقى نظرة خلفه ، رأى أن ألفين وخمسمائة مركبة حربية قد سدت عليه كل مخرج ، مع كل محاربى بلاد الحيثيين التعساء وأيضاً عدداً من القوات من البلاد المتحالفة ... ولم يكن معى أى ضابط ، أو قائد مركبة ، أو أحد أفراد القوات ، فقوات مشاتى ومركباتى وقعوا ضحية لهروبهم ، ولم يمكث منهم أحد لكى يقاوم الحيثيين .. (وناديت) آمون ، أبى ماذا يجرى إذن ؟! ، إنه لا ينسى فى ذلك الوقت ولده ، ماذا أنا فاعل بدونك ؟! ... إنها تفوق قوة سيد مصر ، كيف يسمح للبربر أن يدنسوا أرضه ؟! ، ما قيمة هؤلاء الأسيويين بالنسبة لك ، آمون ، إن هؤلاء التعساء لا يعرفون معبوداً ، ألم أشيد لك العديد من الآثار ؟! ، ألم أملأ معبدك بأسراى ؟! ... إننى أناديك يا والدى آمون ، إننى وسط جحافل بربر لا أعرفهم ، إن (قوات) كل البلاد قد اتحدت ضدى وأنا وحيد بمفردى ، بدون أى مخلوق معى ، لقد تركنى معظم جنودى ولم يتجه أحد منهم بنظره نحوى .. وإذا ناديتهم ، لا يستطيع أحدهم أن يسمعنى ، ولهذا أناديك ، لأننى أعرف أن (قوة) آمون تفوق مليون جندى ... وإذا كنت هناك ، فإنه بناء على أمر شفتيك يا آمون ولم أشك فى مشيئتك ، ومن هنا ، من حدود بلاد البربر ، إننى أتوجه إليك بدعائى ، إن صوتى يصل حتى أرمنت ، إننى أرى آمون .. إنه لبى ندائى ، إنه يبسط يده نحوى ، إنه معى ، الفرحة تتملكنى ، إنه خلفى ، إلى الأمام إننى معك ، أنا والدك ، يدى معك ،

إننى أكثر نفعاً من مئات الألوف .. إننى سيد النصر وإننى أحب الشجاعة ، (وهنا) تملكتنى الشجاعة مرة أخرى .. وأصبح قلبى سعيداً وكل الجهود قد كللت بالنجاح ، وأجد نفسى شبيهاً بمونتو ، وأطلق السهام على يمينى وأوثق الأسرى على يسارى ، إننى أمامهم مثل بعل فى ثورة غضبه ".

ولستة مرات متتالية استطاع " رمسيس الثانى " القيام بهجوم مضاد بقدرات قتالية هائلة تفوق كل وصف ، وقد تشتتت صفوف الأعداء فى طريقه ، واستطاع أن يثبت فى ميدان القتال بشجاعته الشخصية حتى وصلت إليه نجدة أشارت إليها نصوصه بالمدد ، مما جعل كفة ميزان المعركة تميل إلى جانب المصريين ، حيث انبثقت من الناحية الغربية متجهة نحو المعسكر الملكى فرقة " نعرين " العسكرية القادمة من بلاد آمورو ، والتى سرعان ما انقضت على المركبات الحربية الحيثية المعادية الملتفة حول الفرعون وأحاطوا بها كالكماشة. وقد تمكنوا من تخليص الفرعون المتأجج ثورة واندفاعاً ، بعد أن كان على وشك الغرق بين أعدادها الهائلة ، وبنفس الأسلوب تم تحرير جزء من المعسكر الذى كان قد تعرض فعلا للسلب والنهب من جانب الأعداء .. ولقد بدأ سلاح المركبات الحربية المصرية بقيادة الفرعون فى مطاردة الأعداء بمساعدة النعرين البواسل ، وعمل على تجميع العناصر المشتتة من فرقة رع ، التى سرعان ما أنضمت إليها فرقة بتاح التى وصلت أخيراً بقيادة الوزير الأعلى. وقد أوضحت مناظر المعركة المسجلة على جدران المعابد المصرية روعة وقوة الهجوم الظافر للمركبات الحربية المصرية بقيادة الفرعون ضد مركبات الحيثيين التى أرغمت على التقهقر حتى جنوب قادش.

وأصبح من الواضح أن موقف المعركة قد أنقلب رأساً على عقب وأن ريح المعركة قد بدت فى صالح المصريين ، فقد أصبحت المركبات الحربية الحيثية فى حالة رهيبة من التخبط والتشتت والفوضى وهى تحاول تخطى المعبر النهرى ، وقد قذف بعرباتهم وجيادهم ومقاتليهم فى أعماق النهر ولقى الكثير منهم حتفه غرقاً ، فقد كان الهجوم المصرى عنيفاً وغير متوقع لدرجة أن القوات المصرية استطاعت اختراق صفوف العدو بعد أن قتلوا الكثير منهم ومن كبار قادتهم الذين أشارت إليهم نصوص الفرعون ، ومن بينهم شقيق ملك الحيثيين الذى صورت مناظر المعركة جثته وهى تطفو على صفحة مياه نهر العاصى ، كما صورت المناظر أمير

مدينة حلب الموالى للحيثيين الذى انتشله رجاله فى الوقت المناسب من مياه النهر قبل الموت غرقاً .. وعندما عبر الملك « رمسيس الثانى » الضفة الأخرى وجد نفسه فى أرض مكشوفة ، وأمكنه أن يربط بين المشاة الذين فروا فى الهجوم الأول وعادوا لمؤازرته مرة أخرى ، على حين كان الأعداء ينقلون قتلاهم وجرحاهم ويقومون بالعناية ببعضهم. وفى هذه اللحظة كان الجزء الأكبر من الجيش المصرى قد وصل إلى أرض المعركة ، مما شجع « رمسيس الثانى » على شن هجوم حاسم على صفوف الأعداء المضطربة ، إذ منع الملك الحيثى « مواتلى » وقواته الحيثية الاحتياطية المرابطة على شاطئ النهر من التقدم لمساعدة إخوانهم .. ويبدو أن نجاح الهجوم المصرى المضاد عبر مخاضة نهر العاصى ، انما يرجع بصفة أساسية إلى خفة المركبات الحربية المصرية ، بالمقارنة بثقل المركبات الحربية الحيثية. فالمركبات المصرية الخفيفة ، كانت مزودة فقط باثنين من المقاتلين ، فى حين أن كل مركبة حيثية كانت تحمل ثلاثة محاربين ، مما جعل المركبات الحربية المصرية قادرة على المناورة السريعة.

وطبقاً للمصادر المصرية ، فقد طلب الحيثيون الهدنة فى اليوم التالى للمعركة. ومن الممكن أن يكون ذلك صحيحاً فى ضوء النتائج العامة العاجلة التى أسفر عنها القتال ، فإن الخسائر الجسيمة على الجانبين ، بالإضافة إلى الموقف العام للقوات ، لابد أن تكون قد أقنعت كلا من « مواتلى » و« رمسيس الثانى » بأنه من المستحيل تحقيق أى هدف استراتيجى حاسم .. ومما لا شك فيه أن قبول ما زعمته ألواح بوغازكوى حيث عاصمة الحيثيين عن هزيمة المصريين أمراً ليس منطقياً بالمرة ، فالمصادر المصرية تشير إلى وصول رسالة من « مواتلى » يطلب فيها السلام ، ولم يتم انسحاب الجيش المصرى إلا بعد مفاوضات أعقبت المعركة.

وفى منطقة أوبى بالقرب من دمشق ، أعيد تنظيم القوات المصرية قبل أن تبدأ رحيلها عائدة إلى مصر .. حقاً لم ينجح المصريون فى إحراز نصر حاسم ، ولكن الحيثيون أيضا أدركوا أنهم يواجهون طموحات مصرية جديدة لانشاء إمبراطورية مصرية فى آسيا ، كما أدركوا تماماً أن السياسة المتخاذلة أثناء فترة العمارنة قد ولت ، وحل محلها سياسة مصرية ذات طابع هجومى .. ومهما يكن من أمر ، فإن النتائج السياسية للمعركة لم تكن فى مستوى النصر العسكرى ، حتى أن الحدود بين الدولتين بقيت فى موقعها عند نهر الكلب ، كما كانت قبل المعركة.

ويمكننا القول أن الفرعون « رمسيس الثانى » قد نجح إلى حد ما فى القضاء على حدة شوكة الحيثيين ، الذين كانوا قد كونوا تحالفاً من عشرين شعباً ، وكان على الجيش المصرى أن يواجه هذه الشعوب المتحالفة معاً. ولولا حسن تصرف الفرعون وبعض قادة الجيش المصرى معه لأوشكت الهزيمة أن تحل بالقوات المصرية ، والتى كانت ستصبح لا نظير لها ، وكان كل ما فعله الفرعون هو قد أنه نجح فى اختراق صفوف أعدائه وتكبيدهم خسائر بشرية وعسكرية فادحة ، ولكنه لم ينجح فى الاستيلاء على قادش أو فى تدمير الجيش الحيثى تدميراً نهائياً ساحقاً ، بل كانت الخسائر فادحة على الجانبين .. وبعد ذلك عاد « رمسيس الثانى » بجيشه إلى مصر دون أن ينجح فى طرد الحيثيين من قادش ، ومن المؤكد فى الوقت ذاته أن ما حققه فى المعركة يعد نصراً كبيراً له ، ويحق له ذلك لأنه أبدى شجاعة نادرة فى القتال والصمود.

إعادة غزو سوريا وكنعان ..

فى السنوات الحاسمة التى أعقبت معركة قادش كان على « رمسيس الثانى » أن يعيد تقييم رؤيته الاستراتيجية للمناطق الخاضعة لنفوذ إمبراطوريته الأسيوية ، ففى ذلك الوقت كانت سحب الاضطرابات تتكثف على الجبهة السورية بشكل ملحوظ. فقد أدى انسحاب « رمسيس الثانى » من قادش ، وخروج أوبى من قبضته بدون أن يظهر من الفرعون أى رد فعل مناسب بالإضافة إلى عدم عودة الفرعون إلى سوريا فى حملة صيفية فى ذلك العام ، كل هذه العوامل أدت إلى اعتقاد كنعان بأن ذلك دليل ضعف ، فبدأ حكام كنعان يتغاضون عن دفع الجزية لجباتها من المصريين. وفى نفس الوقت كانت هناك ممالك فتية قد بدأت فى الظهور ، منها مملكة مؤاب التى تلى البحر الميت ، ومملكة إدوم جنوبها مباشرة .. ومن ثم فقد أولى الفرعون المناطق الشرقية من بلاد كنعان فى شرق وجنوب البحر الميت اهتماماً بالغاً ، وقد ترائى له أن شعوب مؤاب وإدوم يشعرون بهويتهم القومية الخاصة ، ويجنحون إلى نبذ الوصاية المصرية. ومن جهة أخرى بدأت قبائل بدو الشاسو فى الاغارة على قلب كنعان .. وخلاصة ذلك كله أن جبهة سوريا قد شهدت فى هذه الفترة اضطرابات خطيرة لم تشهد مثلها منذ عشرين عاماً أى منذ أيام « سيتى الأول » ، ومن ثم فقد أصبح هناك ضرورة قصوى بالنسبة للفرعون تحتم عليه

قمع المقاومة فى هذه المناطق القريبة للغاية من الحدود المصرية ، والتى يبدو أن الحيثيين كانوا يقومون بالتحريض ضد مصر هناك.

وفى الربيع الواقع بين العامين السابع والثامن من حكم الملك " رمسيس الثانى " (١٢٧٢ ق. م) ، قام الفرعون بحملة على سوريا تمكن خلالها من إخضاع كنعان ، ثم اتجه شمالاً حتى كوميدى حيث تمكن من استرداد مستعمرة أوبى وأعادها إلى السيادة المصرية .. ومن خلال هذه الحملة وصل الفرعون بقواته إلى غزة بسرعة ، ثم قام بتقسيم جيشه إلى قوتين انطلقتا من منطقة تلال النقب ، كانت الأولى تحت قيادته الشخصية بينما كانت الثانية تحت قيادة ولده الأمير " آمون حر خبش إف ". واستطاع " آمون حر خبش إف " تحقيق النصر على بدو الشاسو وأسر عدد منهم ، كما تمكن من التوغل فى مناطق النقب والبحر الميت والاستيلاء على إدوم ومؤاب ، بينما قامت الفرقة التى يقودها الملك " رمسيس الثانى " بعبور قلب كنعان غرب البحر الميت ليصل إلى أطرافه الشمالية بعد الهجوم على أورشليم (القدس) وأريحا ، ثم هبط شرق البحر الميت بالأردن الحالية وأستولى على مدينة ديبون ، وأخذ الفرعون يتقدم جنوباً حتى تحقق لقاؤه مع فرقة ولده فى مؤاب .. وعاد الجيش المصرى بعد أن قام بالتوحد مرة أخرى تحت قيادة الفرعون إلى السير نحو مناطق دمشق وكوميدى دون مجابهة أو مقاومة تذكر ، وتمكن من استرداد مستعمرة أوبى التى كان قد فقدها عقب معركة قادش كما أشرنا من قبل.

وفى أواخر العام الثامن من حكمه وخلال العام التاسع واصل " رمسيس الثانى " حملاته الحربية المظفرة فى سوريا ، فبعد أن قام بالقضاء على آخر جيوب المقاومة فى شمال كنعان ، وسيطر على الخارجين فى تلال الجليل (ماروم وبيت عنات) ، تمكن من السيطرة على ميناء عكا ومنه واصل التقدم بالجيش المصرى على امتداد ساحل فينيقيا الجنوبى شمالاً إلى صور وطرابلس وصيدا وبيروت وجبيل وأولازا وعرقاتا ثم سيميرا ، وقد نجح الفرعون كذلك فى استعادة عسقلون وعدة مدن كنعانية أخرى ، وجميعها كانت من قبل قد تمردت وثارت ضد النفوذ والسيادة المصرية .. ثم واصل الفرعون تقدمه وأسرع بفرض الحصار على آمورو وقادش ، وأتخذ طريقه إلى الشرق ثم توغل إلى الداخل عبر وادى الاوليثريروس هابطاً شمالاً إلى وادى نهر العاصى ، وبذلك يكون " رمسيس الثانى " قد توغل فى أراضى يسيطر عليها

الحيثيون ، لم تطأها قدم الجيش المصرى منذ مائة وعشرون عاماً ، أى خلال عهد الفرعون المحارب العظيم " تحوتمس الثالث ".

وكانت أعظم انتصارات الفرعون التى حققها فى أواخر العام الثامن من حكمه يتمثل فى الاستيلاء على مدينة دابور الحيثية الواقعة على حدود آمورو الشمالية بجنوب حلب بأراضى تونيب ، بالإضافة إلى استيلاؤه على عدة قلاع حصينة لمدن سورية كثيرة قابلها فى طريقه ، حيث مثلت ثمانى عشرة من تلك المدن المنهزمة فوق جدران الواجهة الغربية للصرح الأول لمعبد الرمسيوم بغربى طيبة .. ولقد كانت دابور واحدة من المدن الاستراتيجية الهامة الشديدة التحصين ، وكان موقعها فى شمال غرب قادش جعلها بمثابة الحصن الحصين فى المنطقة ، وكان الاستيلاء عليها يعنى قدرته على التقدم شمالاً لمهاجمة الحيثيين وتأكيد نجاحه فى إعادة غزو سوريا. وبامتلاك مجرى نهر العاصى الأوسط أمل " رمسيس الثانى " أن يتمكن من تضييق الخناق على شمال سوريا الواقع تحت سيطرة الحيثيين ، فقد شطرت آمورو وعزلت عن قادش واستحال عليهما الاتصال بالحيثيين وحكامهم فى حلب شمالاً ، أو قرقميش وبلاد خيتا فى آسيا الصغرى. وحقق رأس الجسر هذا الذى صنعه الفرعون نصراً مؤقتاً له على آمورو وقادش المعزولتين ، وهذا بدوره كان بمثابة خطوة كبيرة للتوسع فى شمال سوريا نفسها .. والجدير بالذكر أن الملك " رمسيس الثانى " قد قام بتصوير استيلاؤه على قلعة دابور فوق الجدار الغربى للفناء الأول بمعبد الأقصر وفى قاعة الأعمدة بمعبد الرمسيوم بغربى طيبة بأسلوب فنى رائع يعد من أروع النماذج الفنية لمناظر المعارك خلال عصر الرعامسة ، كما يلاحظ أن ثمانية من الأمراء من أبناء الفرعون قد شاركوا فى الاستيلاء على دابور .. وفيما بعد أتجه الفرعون شمالاً وأحتل مدينة تونيب المستقلة.

وبمجرد عودة الفرعون بجيشه إلى مصر ، لم يجد جواسيس خيتا وقرقميش صعوبة تذكر فى تحريض المدن المحتلة مثل أوبى ودابور على ابعاد المفوضين المصريين والعودة إلى حظيرة الحيثيين. فمصر بعيدة جداً وجيوش قرقميش وحلب ونحاس قريبة جداً مما يمثل لهم تهديدًا مباشراً ، لذا فقد عادت هذه المراكز بعد فترة احتلال مصرية قصيرة إلى الخضوع لحكم الحيثيين .. ومن ثم ففى العام العاشر من حكم الفرعون (١٢٧٠ ق. م) ، استدعى الأمر قيام " رمسيس الثانى " بقيادة جيش مصر مرة أخرى فى حملة جديدة لتأكيد سطوة مصر وسيادتها

على تلك المنطقة الاستراتيجية فى الشرق الأدنى ، حيث توجه إلى سوريا من جديد بعد حدوث تمرد بين بعض المدن السورية الشمالية مثل أوبى ودابور ، وأعلن عن اجتيازه لأراضى فينيقيا بإقامة لوحة له بعد أن مر بمحاذاة نهر الكلب ، ثم سار فى اتجاهين شرقاً وشمالاً وقام بالاستيلاء على قلعة دابور الحيثية للمرة الثانية وأعادها إلى دائرة نفوذه ونجح فى إخماد هذا التمرد .. وقد حرص الفرعون فى مناظره ونصوصه الحربية بمعبدى الأقصر والرمسيوم على تصوير وتسجيل استيلاؤه الثانى على مدينة وقلعة دابور الحيثية بشىء من التباهى والتفاخر الشديد ، حيث صور وهو يطلق سهامه على دابور ، وذكر فى نصوصه أنه كان يقاتل على رأس جيشه ببسالة بدون أن يرتدى درعه الواقى .. وبعد هذه الحملة أوقف « رمسيس الثانى » حملاته فى سوريا وذلك من العام الحادى عشر وحتى العام السابع عشر ، وقنع بالسيطرة على مستعمرات مصر التقليدية فى سوريا.

بين الحرب والسلام ..

« السلام خير من الحرب ! » .. بهذه الكلمات ذات الأثر العميق ، والتى وردت على لسان « مواتلى » ملك الحيثيين فى نصوص الملك « رمسيس الثانى » عن معركة قادش ، أنتهى الصدام الحربى الكبير الذى وقع بين المصريين والحيثيين فى قادش .. ويبدو أن عبارة الملك الحيثى قد حملت بين حروفها نبوءة للمستقبل الذى ستشهده العلاقات بين القوتين العظمتين فى الشرق الأدنى القديم .. ولكن ، لم يكن الطريق نحو السلام ممهداً ومفروشاً بالورود ، فعنف الصراع السياسى والحربى بين مصر وخيتا والذى أمتد منذ نهاية الأسرة الثامنة عشرة وحتى عهد « رمسيس الثانى » ، جعل المبادرة إلى إقرار السلام بين الطرفين أمراً صعباً ومعقداً يحتاج إلى قادة وزعماء من طراز خاص ونادر فى كلا الإمبراطوريتين .. ومما لا شك فيه ، أن الحقائق التاريخية قد أثبتت مدى عظمة « رمسيس الثانى » وشجاعته فى إقرار السلام ، كما أثبتت من قبل عظمته وبسالته فى خوض الحرب والصدام مع أكبر قوة عسكرية فى عصره.

ولقد حالت الأحوال الداخلية فى دولة خيتا دون القيام بعمليات عسكرية مضادة للتقدم المصرى فى السنوات التى تلت معركة قادش الشهيرة ، حيث توفى الملك الحيثى « مواتلى » دون أن يترك وريثاً للعرش. ووفقاً للتقاليد المتبعة فى البلاط الحيثى ، فكان يتولى العرش الابن

الأكبر لمحظية الملك ، وعلى ذلك فقد تم تعيين « أورخى تيشوب » ملكاً وعاونه على ذلك عمه « خاتوسيل » احتراماً للقواعد التى نصت عليها الشريعة الحيثية ، وتولى « أورخى تيشوب » العرش تحت اسم « مورسيل الثالث ». إلا أنه سرعان ما دب النزاع بين « مورسيل الثالث » وعمه ، واستمر هذا النزاع قرابة السنوات السبع ، وتمكن « خاتوسيل » من إنهائه لصالحه ، حيث تمكن من أسر ابن أخيه ونفاه فى شمال سوريا ، وأعلن نفسه ملكاً وأعتلى العرش الحيثى تحت اسم « خاتوسيل الثالث » .. وحاول « مورسيل الثالث » وهو فى منفاه الاتصال بالبلاط البابلى والتآمر على عمه ، ولكن مؤامرته انكشف أمرها ، فتم نفيه إلى قبرص ، لكنه تمكن من الفرار ولجأ إلى مصر. وإزاء هذا الخطر فقد بادر « خاتوسيل » بمطالبة « رمسيس الثانى » بتسليم « مورسيل » إليه إلا أن « رمسيس الثانى » لم يستجب لهذا الطلب ورفضه ، وأدى هذا الموقف من فرعون مصر إلى اشتعال الصراع وتجدده مرة أخرى بين مصر وخيتا ، فاستعد الملك الحيثى للحرب ضد مصر ، وسارع ملك بابل بعرض استعداده لإرسال قوات لمساعدة الحيثيين.

وتشير الوثائق التى عثر عليها فى عاصمة الحيثيين خاتوشاش (بوغازكوى بتركيا) إلى أن مسألة لجوء الملك الحيثى إلى مصر قد أثارت تداعيات دولية أثرت على مجرى الأحداث فى منطقة الشرق الأدنى القديم خلال هذه المرحلة ، كما أدت إلى عمل تحالفات دولية لمواجهة تداعيات هذا الحدث ، فقد أرسل الملك الحيثى « خاتوسيل الثالث » خطاباً إلى الملك « كادشمان انليل الثانى » ملك بابل ، وأخبره فيه أنه إذا لم يتخلى الملك المصرى عن مساعدة « مورسيل الثالث » فلن يكون أمامه سوى الحرب مع مصر .. ولقد تسارعت الأحداث بسرعة فى العام الثامن عشر من عهد « رمسيس الثانى » ، فقد أعلن حالة الاستنفار العسكرى فى بعض ولايات إمبراطوريته فى سوريا وكنعان ، وأخذت قواته أهبتها فى العديد من المواقع الشمالية فى مجدو وبيت شان ، كما عمل على تأكيد ولاء الحكام التابعين له فى سوريا ، وعبر عن هذه الأحداث فى لوح تذكارى أقامه فى بيت شان. ومما زاد الموقف السياسى صعوبة وتعقيداً ارتداد أمير خانيجالبات « شاتورا الثانى » عن السيادة الاشورية والتى كان على عرشها الملك الآشورى « شلمنصر الأول » وتحالف مع الحيثيين ، وقام بالاشتراك مع الجيش الحيثى الذى كان يضم فرقة عسكرية من قبائل الأخلامو باحتلال الممرات ومراكز المياه المواجهة

للآشوريين ، فما كان من « شلمنصر الأول » إلا أن توجه بجيوشه إلى المتمردين حيث سحق اعدائه واجتاح خانيجالبات كلها حتى وصل إلى أبواب قرقميش ، وهرب « شاتورا الثانى » من ميدان القتال وفر ناحية الغرب ، وتمكنت جيوش الآشوريين بقيادة « شلمنصر » من أسر حوالى ١٤,٤٠٠ رجل واحتلال عاصمة خانيجالبات وتسع مدن أخرى محصنة كما دمرت ١٨٠ منطقة أخرى ، وأصبحت الحدود الآشورية الغربية عند قرقميش ، وقد مثل هذا الانتصار الاشورى الكبير نهاية الوجود الحورى فى شمال العراق والذى استمر لأكثر من ثلاثمائة عام.

وبالنسبة للجبهة السورية فلقد أدى الانتصار الآشورى إلى امتداد جبهة آشور الأمامية عبر الفرات وأصبحت مواجهة مباشرة للإمبراطورية الحيثية ، وملاصقة فى نفس الوقت للمقاطعة السورية التابعة للحيثيين. وأدى هذا الموقف الجديد فى سوريا إلى ازدياد المشاكل أمام الحيثيين ، فأصبح لزاماً عليهم مجابهة قوتين فى آن واحد وهما القوة الآشورية والقوة المصرية على الجبهتين الشرقية والجنوبية لإمبراطوريتهم الواسعة ، وهو الأمر الذى لا قبل لهم بمجابهته رغم تحالفهم مع بابل ، فقد كانت الحرب على الجبهتين أمراً مستحيلاً.

وقد أدرك « خاتوسيل » كحاكم ذكى وواقعى قدر حقيقة أن المفاوضات مع مصر كانت هى السبيل الوحيد أمامه ، فآشور أستولت على الدور السابق للدويلات الحورية كعدو وخصم شرقى لخيتا ، ولم تظهر آشور أى نوع من الرغبة فى الوصول إلى إتفاقيات مع خيتا ، كذلك فإن الوضع الداخلى فى بلاده كان دائم التوتر بسبب إزاحته لإبن أخيه عن العرش ، وكان أنصار « أورخى تيشوب » يترقبون أى فرصة سانحة للثأر من « خاتوسيل ». ومما لا شك فيه أن الملك الحيثى قد عايش بنفسه مآسى حرب قادش التى أنهكت جيشه وأصبح غير قادر على الحرب فى جبهات متعددة كما كان الحال فى عهد « شوبيلوليوما الأول » .. ولهذه الأسباب مجتمعة أدرك « خاتوسيل الثالث » الأخطار المترتبة على إبقاء جو العلاقات متوتراً بينه وبين عدو الحيثيين التقليدى فرعون مصر الملك « رمسيس الثانى » ، ورأى أن الحكمة تقتضى عقد معاهدة سلام بينه وبين الملك المصرى ، تنهى حالة التوتر والحرب التى سادت جو العلاقات بين الدولتين العظيمتين لعشرات السنين قبل عهده ، وعندها فقط يستطيع أن يتفرغ لمجابهة أعدائه فى الداخل من أنصار « أورخى تيشوب » وخطر الآشوريين فى الخارج. وقد شجعه على ذلك أن « رمسيس الثانى » على الجانب الآخر قد تغاضى عما قامت به خيتا من أعمال عدائية

ولم يكن يحمل أية ضغينة عنصرية ضد الحيثيين. أما عن موقف مصر من " أورخى تيشوب " وتأييده من قبل " رمسيس الثانى " وترحيبه به وإستضافته له فى البلاط المصرى ، فقد رأى " خاتوسيل " فيه ترهيباً أكثر منه تهديداً ، كذلك فإن مصر لم تحاول مهاجمة الأراضى الحيثية .. ومن ثم فإن كل هذه الأمور مجتمعة تجعل إمكانية حدوث تغيير فى السياسة الحيثية تجاه مصر ، وبناءاً على ذلك بدأ " خاتوسيل الثالث " يستشعر الموقف للتعرف على إحتمالات تحقيق السلام بين البلدين ، ولإنجاح مسعاه مكث مدة يعمل على تصفية الجو ، لم يتخذ فيها أياً من الإجراءات العدائية ضد المصريين فى سوريا.

معاهدة السلام بين مصر وخيتا ..

جرت المفاوضات بين المصريين والحيثيين واستمرت عامين كاملين للتوصل إلى صيغة نهائية للمعاهدة ، قضاها المبعوثون الدبلوماسيون سعياً بين العاصمتين المصرية بر رعمسيس والحيثية خاتوشاش لمناقشة التفاصيل حتى أمكن التوصل إلى معاهدة بينهما أنهت حالة الحرب بين الدولتين ووضعت أسساً لقيام السلام بينهما ، وكان ذلك فى العام الحادى والعشرين من عهد الملك " رمسيس الثانى " ، وكتبت المعاهدة بالخط المسمارى الأكدى ، حيث كانت اللغة الأكدية هى لغة الدبلوماسية الدولية فى ذلك الوقت .. وتذكر المصادر المصرية أن الملك الحيثى " خاتوسيل الثالث " قد أرسل مبعوثين إلى الملك " رمسيس الثانى " ، وكان يومئذ فى عاصمته الشمالية بر رعمسيس ، حيث عرضا عليه مشروع معاهدة التحالف بين مصر وخيتا ، وكان المشروع مسجلاً بالخط المسمارى على لوحة من الفضة باسم " خاتوسيل " ، فقبله " رمسيس الثانى " من حيث المبدأ ، وكتب رجاله نصا آخر باللغة المصرية على لوح من الفضة أيضاً ، وبعد عدة مفاوضات بين الطرفين وضعت المعاهدة فى صيغتها النهائية ، حيث قام العاهلان المصرى والحيثى بالتوقيع عليها.

ولقد عثر على ثلاث نسخ للمعاهدة اثنتان فى مصر كتبا بالخط الهيروغليفى وكانت احداهما منقوشة على الحائط الجنوبى من بهو الأعمدة الكبير فى معبد الكرنك بطيبة ، والأخرى فى معبد الرمسيوم ، ولم يتبق من هذه الأخيرة سوى عشرة سطور فقط فى حالة مهشمة. أما النسخة الثالثة فقد عثر عليها فى العاصمة الحيثية خاتوشاش (بوغازكوى بتركيا حاليا) ،

وكانت مكتوبة بالخط المسمارى الأكدى ، وهى أقل اكتمالاً من النص المصرى.

ولقد حققت معاهدة السلام أغراضها ، وساد السلام بين أكبر قوتين فى الشرق ، وتبودلت الرسائل الودية بين الملكين ، وكذلك بين زوجاتهم ، وزادت الصلات بين البلدين بعد ذلك بزواج " رمسيس الثانى " فى العام الرابع والثلاثين من حكمه بالأميرة الحيثية ابنة " خاتوسيل " ، حيث أطلق عليها اسماً مصرياً هو " مات حر نفرو رع " ، وعوملت معاملة حسنة لم تحظى بها زوجة أجنبية من قبل ، إذ منحت لقباً كان وقفاً على سيدات البيت المالك المصرى وهو " زوجة الملك الكبرى وسيدة الأرضين ". وسجل هذا الحدث على العديد من المعابد مثل معبد الكرنك ومعبد أبوسمبل.

أما عن الموقف السياسى لحدود الإمبراطوريتين المصرية والحيثية بعد المعاهدة ، فقد تضمنت هذه المعاهدة عدة بنود تنظم العلاقات بين مصر وخيتا ، فنصت على ألا يكون لأحد الطرفين نوايا ومزاعم على مناطق الطرف الآخر ، وبذلك تخلى " رمسيس الثانى " عن آمورو وتنازل " خاتوسيل الثالث " عن مطالبه بالسيادة على سوريا. ومهما يكن فإن الحدود بين البلدين لم تتحدد بدقة إلا أن سوريا سبب النزاع أصبحت مقسمة على النحو الآتى : سوريا الشمالية والساحل الشمالى لفينيقيا أصبحا خاضعان لخيتا ، بينما أصبحت مناطق سوريا الجنوبية وجنوب فينيقيا وكنعان (فلسطين) تحت السيطرة المصرية .. وبالرغم من أن مصر بمقتضى هذه المعاهدة قد فقدت قادش وآمورو إلى الأبد ، إلا أنها قد ضمنت حقوقها فى الهيمنة على المرافئ الفينيقية ، والأفضل من كل هذا فقد وافق " خاتوسيل الثالث " على السماح للمبعوثين المصريين بالمرور شمالاً حتى أوجاريت وهو حق لم تحظ به مصر منذ أيام " أمنحتب الثالث " .. ولا شك أن الفرعون الذى بلغ أواسط العمر قد أصبح أقل إستعدادا لخوض معارك حربية عنيفة ، لذلك فإن حسم الصراع سلمياً يوفر الجهد والوقت لتوجيه اهتمامه إلى ميادين أخرى غير الحرب. ولا جدال فى أن التفاهم الضمنى على تقسيم مناطق السيادة والنفوذ بين الإمبراطورتين المصرية والحيثية والشروط المتبادلة فى المعاهدة التى وقعت بينهما فى السنة الحادية والعشرين من حكم " رمسيس الثانى " إنما يعكس التوازن الاستراتيجى بين الجانبين.

حملة إرم فى كوش ..

كانت منطقة إرم بالنوبة العليا (كوش) واحدة من المناطق التى تمثل تهديداً للسيادة والنفوذ المصرى فى بلاد النوبة ، ولقد ظلت الأوضاع فى النوبة ساكنة لمدة كبيرة منذ تلك الحملة التى قام بها « سيتى الأول » فى إرم ، بالإضافة إلى تلك الحملة الأخرى التى قام بها « رمسيس الثانى » حين كان أميراً فى منطقة النوبة السفلى .. ويبدو أنه فى الفترة ما بين العامين الخامس عشر والعشرين من حكم « رمسيس الثانى » ، شبت فى إرم بالنوبة العليا بعض الاضطرابات التى هدفت إلى زعزعة الحكم المصرى فى المنطقة ، الأمر الذى دفع الفرعون إلى ارسال حملة حربية فى الوقت المناسب لتعزيز موقف نائب الملك فى كوش. وقد أرسل الفرعون فى هذه الحملة أربعة من أولاده الأمراء ، منهم « ست إم ويا » ولده الثامن ، و« مرنبتاح » ولده الثالث عشر ، وكانا فتيين فى العشرينات من عمرهما. ولتوقف العمليات على الجبهة السورية ، كانت تلك الحملة بالنسبة لهما فرصة جيدة للتدريب ولاكتساب شىء من الخبرات العسكرية .. وقد نجح الجيش المصرى فى قمع هذا التمرد ، وأسفرت الحملة عن أسر سبعة الاف أسير نوبى ، والقضاء على ثورة إرم وقمعها بصورة تجعلها غير قادرة على القيام بأى محاولة مستقبلية لمقاومة الحكم المصرى فى النوبة. والجدير بالذكر أن تفاصيل هذه الحملة قد سجلت فى عمارة غرب العاصمة الإدارية المصرية للنوبة العليا (كوش) ، كما سجل هذا النصر فى أبيدوس بشكل مختصر ، أضيف إلى البوابة البرجية الثانية لمعبد « رمسيس الثانى » هناك.

الرؤية الاستراتيجية تجاه الحدود الليبية ..

مما لا شك فيه أن « رمسيس الثانى » كان مشغول البال دائماً بالجانب الغربى من الدلتا ، أى بالجبهة الليبية ، وهى جبهة شارك أباه فى حملته عليها حين كان لايزال أميراً. وفى أعقاب فترة الهدوء الاجبارى التى أعقبت معركة قادش ، قرر الفرعون الأخذ بسياسة طويلة المدى للسيطرة على الشريط الليبى الساحلى وفرض الرقابة الدائمة على سكانه. من أجل ذلك أخذ فى دعم سلسلة من المستوطنات بطول حافة الصحراء الغربية بالدلتا من منف وحتى البحر

المتوسط. ثم شيد الفرعون بعد ذلك سلسلة من الحصون على حافة الدلتا قرب البحر المتوسط ، وتنتشر لمسافة طويلة نحو الغرب ، خلف الساحل الليبى ، بداية من الغربانيات والعلمين وحتى زاوية أم الرخم .. ولقد كانت هذه الحصون تعمل على مراقبة تحركات قبائل البدو الليبية أو أية جماعات أخرى قد تأتى من الغرب الأقصى. وبذلك يكون من السهل كشف أية تحركات مريبة وارسال أخبارها بسرعة ، أو طلب الامدادات العسكرية لمواجهة أى تهديد بالغزو فى الوقت المناسب .. ويمكننا القول أن " رمسيس الثانى " كان أول من تنبه للأخطار التى أصبحت تهدد مصر من جهة الغرب والمتمثلة فى شعوب البحر الأقوياء ، فالليبيون كانوا دائماً ما يقومون بالهجوم على مصر ، ودائماً ما كانوا يتعرضون للهزيمة ، ولم تكن هناك حاجة حينذاك فى إقامة أى تحصينات على الجبهة الغربية حتى ظهرت شعوب البحر على مسرح الأحداث.

ولعل من الأهمية أن نشير إلى أنه قد عثر للفرعون " رمسيس الثانى " بالعلمين على إحدى اللوحات التى وصفته نصوصها بأنه قاهر الأعداء من الليبيين ، مما يشير إلى احتمال وقوع معركة محدودة معهم خلال فترة حكمه ، استطاع من خلالها الانتصار عليهم فى الصحراء الغربية كما فعل والده. والجدير بالذكر أن هناك أحد المناظر الشهيرة المسجلة على جدران الحائط الجنوبى للقاعة الكبرى بمعبد أبوسمبل الكبير الذى شيده الملك " رمسيس الثانى " فى النوبة ، والذى صور الفرعون من خلاله وهو يطأ بقدمه أحد الأسرى الليبيين ويقوم بطعن الآخر بحربته ، حيث أقتبس هذا المنظر بالكامل من أحد المناظر الحربية للملك " سيتى الأول " المسجلة على الحائط الشمالى لقاعة الأعمدة الكبرى بمعبد الكرنك. وقد صاحبت هذا المنظر بعض عبارات المديح والتبجيل التقليدية للفرعون ، وعبارة أخرى تقول : " إنه الذى حمل النوبيين إلى الدلتا ، والأسيويين إلى النوبة ، والذى وضع بدو الشاسو فى أرض الغرب ، والذى جعل التحنو الليبيين يقيمون فى المرتفعات ". ويبدو أن هذه العبارة تفيد قيام الفرعون بنقل النوبيين إلى الشمال والأسيويين إلى الجنوب ، وكذلك نقل بدو الشاسو إلى الغرب والليبيين إلى المناطق الجبلية ، وهى العادة التى أتبعها الكثير من ملوك عصر الدولة الحديثة مع أسرى الحرب الأجانب بنقلهم إلى مناطق مختلفة لاستخدامهم فى الخدمة العسكرية أو فى مشاريع الدولة كقوة عاملة ، الأمر الذى يشير إلى احتمال وقوع معركة فى عهده مع الليبيين.

ولقد أثبتت سياسة « رمسيس الثانى » ورؤيته الاستراتيجية تجاه الغرب مدى فاعليتها حيث ابتعدت مصر عن خطر الغزو من هذه الجبهة طوال فترة حكمه ، وهو الخطر الذى سوف تعانى منه مصر كثيراً خلال فترة عهدى ولده وخليفته « مرنبتاح » و« رمسيس الثالث » ثانى ملوك الأسرة العشرين ، حيث ستخوض مصر عدداً من الحروب والمعارك الحاسمة فى تاريخها ضد القبائل الليبية المختلفة وحلفائهم من شعوب البحر على الجبهة الغربية.

* * * * *

المراجـع

- Breasted, J.H., The Battle of Kadesh: A Study in the Earliest Known Military Strategy, Chicago (1903).
- Contenau, G., La Civilisation des Hittites et des Mitannienes, Paris (1934).
- Darnell, J.C. and Jasnow, R., 'On the Moabite Inscriptions of Ramesses II at Luxor Temple', JNES 52 (1993).
- Desroches-Noblecourt, C., Ramsés II Le Grand, Paris (1967).
- Davies, B.G., Egyptian Historical Inscriptions of the Nineteenth Dynasty, Jonsered (1997).
- Faulkner, R.O., 'The Battle of Kadesh', MDAIK 16 (1958).
- Gaballa, G.A., 'Minor War Scenes of Ramesses II at Karnak', JEA 55 (1969).
- Gardiner, A.H., The Kadesh Inscriptions of Ramesses II, Oxford (1960).
- Goedicke, H., 'Considerations on the Battle of Kadesh', JEA 52 (1966).
- Goedicke, H., Perspectives on the Battle of Kadesh, Baltimore (1985).
- Habachi, L., 'The Military Posts of Ramesses II on the Coastal Road and the Western Part of the Delta', BIFAO 80 (1980).
- Healy, M., The Warrior Pharaoh Ramesses II and the Battle of Qadesh, Oxford (1993).
- James, T.G.H., Ramesses the Great, Cairo (2002).
- Kadry, A., 'Some Comments on the Qadesh Battle', in: Bulletin du Centenaire (1981).
- Kitchen, K.A., 'Some New Light on the Asiatic Wars of Ramesses II', JEA 50 (1964).
- Kitchen, K.A., 'Historical Observations on Ramesside Nubia', in: E. Endesfelder et al. (eds.), Ägypten und Kusch, Berlin (1977).
- Kitchen, K.A., Pharaoh Triumphant: The Life and Times of Ramesses II King of Egypt, Warminster (1982).
- Kuentz, Ch., La Bataille de Qadech, Le Caire (1928).
- Lalouette, C., L'Empire des Ramses, Paris (1985).

- McCarthy, H.L., 'The Function of "Emblematic Scenes" of the King's Domination of Foreign Enemies and Narrative Battle Scenes in Ramesses II's Nubian Temples', JSSEA 30 (2003).
- Montet, P., L' Égypte au Temps des Ramsès 1300-1100 avant J.- C., Atlante (1995).
- Morris, E.F., The Architecture of Imperialism, Military Bases and the Evolution of Foreign Policy Egypt's New Kingdom, Leiden (2005).
- Noth, M., 'Ramses II in Syrien', ZDPV 64 (1941).
- Raafat Abbas, M., 'A Survey of the Diplomatic Role of the Charioteers in the Ramesside Period', in: Chasing Chariots. Proceedings of the First International Chariot Conference (Cairo 2012), Edited By: André J. Veldmeijer & Salima Ikram, Leiden (2013).
- Raafat Abbas, M., 'The Bodyguard of Ramesses II and the Battle of Kadesh', ENiM 9 (2016).
- Raafat Abbas, M., 'A Survey of the Military Role of the Sherden Warriors in the Egyptian Army during the Ramesside Period', ENiM 10 (2017).
- Redford, D.B., Egypt, Canaan and Israel in Ancient Times, Princeton (1992).
- Schulman, A.R., 'The Narn at the Battle of Kadesh', JARCE 1 (1962).
- Spalinger, A.J., 'Traces of the Early Career of Ramesses II', JNES 38 (1979).
- Spalinger, A.J., 'Historical Observations on the Military Reliefs of Abu Simbel and Other Ramesside Temples in Nubia', JEA 66 (1980).
- Spalinger, A.J., 'Considerations on the Hittite Treaty between Egypt and Hatti', SAK 9 (1981).
- Spalinger, A.J., War in Ancient Egypt, Malden (2005).
- Tyldesley, J., Ramesses: Egypt's Greatest Pharaoh, London (2000).
- Weigall, A., Histoire de L' Egypte Ancienne, Paris (1968).

الفصل السادس

مرنبتاح ورمسيس الثالث ومعارك النضال المرير

استحقت تلك المعارك الحربية الضارية التى خاضتها مصر فى عهدى الملك « مرنبتاح » (١٢١٣ – ١٢٠٣ ق. م) رابع ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، والملك « رمسيس الثالث » (١١٨٤ – ١١٥٣ ق. م) ثانى ملوك الأسرة العشرين ، بأن يطلق عليها معارك النضال المرير .. حيث واجهت مصر على حدودها الغربية والشرقية تهديدات حقيقية نتيجة لظهور شعوب البحر على مسرح الأحداث واجتياحها للعديد من ممالك وإمبراطوريات الشرق الأدنى القديم دون رحمة ، والتى رنت ببصرها تجاه أرض مصر الخصبة وحاولت غزوها واجتياحها كما فعلت مع الكثير من بلدان المنطقة التى غزتها ودمرتها تدميراً .. كما واجهت مصر أطماع القبائل الليبية فى حدودها الغربية ، والتى طمعت كذلك فى غزو مصر ذاتها والاستقرار فى أراضى الدلتا وليس مجرد الاغارة أو تهديد الحدود ، فخاضت مصر ضدهم ثلاثة حروب كبرى خلال تلك الحقبة .. وقد تمثلت خطورة تلك الغزوات فى أنها كانت تسعى لغزو مصر ذاتها واسقاط دولتها وحضارتها وليس مجرد تهديد أملاك إمبراطوريتها ، ومن ثم فإنها كانت حروب تاريخية تتعلق بمصير الأمة المصرية لقرون ، لأن شعوب البحر والليبيون قد سعوا لغزو أرض مصر والاستيطان فيها كما فعل الهكسوس من قبل ، وكان على مصر وجيشها العظيم وملوكها المحاربين البواسل « مرنبتاح » و« رمسيس الثالث » الوقوف أمام هذا الزحف المدمر وعدم تكرار تجربة مصر المريرة مع الغزاة الهكسوس ، بل كان عليهم إنقاذ حضارة الشرق بأكمله أمام غزوات شعوب البحر المدمرة التى اجتاحت الممالك ودمرت المدن والدول والحضارات فى آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين فى طريق زحفها .. ومن المؤكد أن الذى مهد لحروب مصر ضد الليبيين وشعوب البحر خلال تلك الحقبة هو التزايد السكانى فى ليبيا وإيجة خلال الألف الثانية قبل الميلاد ، حيث يبدو أن سكان هذه المناطق قد تضاعف عددهم بالنسبة للموارد المحدودة فى المناطق التى يعيشون بها ، وبالتالى فإن هذا النقص فى الموارد الطبيعية كان يعوض من خلال أسلوب معيشة يعتمد على الغزو والقرصنة ، من أجل الحصول على

المزيد من المتطلبات. ولكن فى حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد ، سادت بشرق حوض البحر المتوسط ، فترة من الجفاف والقحط ، فقامت قبائل وعشائر كاملة بهجرة أوطانها حاملة أسلحتها ، ومندفعة فى كل مكان باحثة عن مأوى جديد .. ومن ثم فقد كان على الجيش المصرى أن يواجه تحديًا صعبًا خلال تلك الحقبة ، وكان عليه أن يكون على أهبة الاستعداد لمواجهة هذه الغزوات البربرية المدمرة ، التى أصبحت تهدد مصر وحضارتها ومصير الشرق الأدنى القديم بأكمله.

طوفان شعوب البحر ..

خلال الفترة بين القرنين الثالث عشر والثانى عشر قبل الميلاد ظهرت هجرات شعوب البحر فى منطقة الشرق الأدنى القديم ، حيث جاءوا من شرق البحر المتوسط وحاولوا الاستيطان فى سوريا وكنعان (فلسطين) ومصر ، وقد أشارت أغلب الآراء التاريخية إلى أن موطنهم الأصلى كان فى جزر بحر إيجة وآسيا الصغرى .. ارتبطت شعوب البحر بحركة سكانية كبرى تسببت فى حدوث دمار كبير فى مناطق الأناضول وغربى آسيا خلال نهاية العصر البرونزى المتأخر (حوالى ١٢٠٠ – ١١٥٠ ق. م) ، وتضمنت شعوب البحر العديد من الشعوب كالبلست واللوكا والشيكلش والوشاشا والشردان والثيكر والأيكواش. ولقد عرفت أسماء بعض هذه الشعوب فى المصادر المصرية بشكل منفرد خلال نهاية عصر الأسرة الثامنة عشرة ، كما ارتبطت بعض أسماء هذه الشعوب ببعض الأماكن الجغرافية كالبلست الذين نسبت فلسطين إليهم ، وكالشردان الذين نسبت جزيرة سردينيا إليهم. وقد كان أبرز الآثار المصرية التى تحدثت عنهم المناظر المسجلة على جدران معبد مدينة هابو والكرنك ونصوص بردية هاريس الكبرى بالمتحف البريطانى من عهد الملك " رمسيس الثالث " .. ولقد قامت شعوب البحر بغزوات استيطانية مدمرة جاءت من الشمال فى مناطق الأناضول إلى الجنوب فى مناطق سوريا وفلسطين ، وقد نجحوا فى طريق غزوهم فى القضاء على الإمبراطورية الحيثية وتسببوا فى تدمير العديد من المواقع والأماكن على طول الساحل كأوجاريت.

وكما رأينا من قبل فقد واجهت مصر فى العام الثانى من عهد الملك " رمسيس الثانى " إحدى هجمات شعوب البحر من الشردان على سواحلها الشمالية ، والتى تمكنت من دحرها

بسهولة. ولكن الأمر كان مختلفاً خلال عهدى " مرنبتاح " و" رمسيس الثالث " ، حيث يبدو أن مصر قد أصبحت بالنسبة لشعوب البحر هدفاً رئيساً للغزو والاستيطان فى أرضها ولم يقتصر الأمر على مجرد الاغارة على حدودها ، وذلك بعد أن تمكنوا بالفعل من غزو الكثير من أراضى سوريا ، بالإضافة إلى نجاحهم فى اسقاط الإمبراطورية الحيثية الكبرى فى آسيا الصغرى .. وكان على مصر أن تواجه هذا الخطر المحدق بوجودها ومصيرها.

مرنبتاح .. رجل الأقدار ..

فى العام ١٢١٣ ق. م ، أعتلى الملك " مرنبتاح " عرش مصر وقد كان ابناً وخليفة للفرعون المحارب الشهير " رمسيس الثانى " ، حيث كان ترتيبه الثالث عشر بين أبناؤه الكثيرين والذين توفى أغلبهم خلال فترة حكمه الطويلة .. وتشير المصادر التاريخية إلى أن " مرنبتاح " قد نشأ نشأة عسكرية شأن أسلافه من ملوك الأسرة التاسعة عشرة المحاربين ، حيث كان ضابطاً فى صفوف الجيش المصرى وعمل كقائداً حربياً لبعض الوقت قبل أن يصبح فرعوناً .. وعلى الرغم من أن " مرنبتاح " كان كبيراً فى السن حين خلف والده على عرش البلاد ، إلا أنه كان واضحاً أنه قد ورث عن أبيه شجاعته وشخصيته العسكرية الصارمة ، فكان عند حسن الظن به ، ونجح فى قيادة جيش مصر إلى النصر فى مواجهة التحديات الخطيرة التى واجهت مصر وسيادتها وأمنها من ناحية الحدود الليبية الغربية والجبهة الشرقية خلال فترة حكمه.

ولقد تعددت المصادر التاريخية التى سجلت من خلالها حروب الملك " مرنبتاح " ، فقد سجلت هذه الحروب من خلال لوحة عمدا ، وعمود المطرية ، ونص الجدار الشرقى لفناء الخبيئة فى الكرنك (المعروف كذلك بنقش الكرنك الكبير لمرنبتاح أو نقش الحرب الليبية الكبير بالكرنك) ، ومنظر الواجهة الداخلية للجدار الشرقى لفناء الخبيئة فى الكرنك ، ونص الانتصار الذى سجل مرتين على آثار الملك " مرنبتاح " ، وذلك من خلال لوحة المتحف المصرى رقم CGC 34025, JE. 31408 ، وهى اللوحة المسماة بلوحة انتصارات الملك " مرنبتاح " والتى شاعت تسميتها خطأ بلوحة إسرائيل ، والمؤرخة بالعام الخامس من حكم الفرعون ، أما عن الأثر الثانى الذى سجل من خلاله نص الانتصار فقد كان على جدران فناء الخبيئة بالكرنك. كما سجلت حروب الفرعون من خلال نقش على جدران معبد عمارة غرب بالقرب من عمدا ، وبردية أنستاسى رقم ٢ ، وبردية أنستاسى رقم ٣.

مرنبتاح والحرب الليبية ..

فى العام الرابع أو العام الخامس من حكم الملك « مرنبتاح » (١٢٠٨ – ١٢٠٧ ق.م) ، وقع اعتداء على الحدود الغربية لمصر قام به الليبيون بزعامة قبيلة الليبو بالتعاون مع شعوب البحر. ويرى الكثير من المؤرخين أن أسباب هذا الزحف الليبى نحو مصر يعود إلى العوامل الاقتصادية ، حيث أن ليبيا بلد فقير لم يكن يفى بحاجة سكانه الأصليين ، ومن ثم فقد كان السكان المجاورون لمصر خلال كل العصور دائمى الرغبة فى ترك حياة الصحراء القاسية ، والتمتع بالأمن والراحة على حدود وادى النيل ، وزاد الأمر سوءاً هذه المرة تحركات شعوب البحر التى اتجهت إلى الشاطئ الأفريقى وعملوا على الاختلاط بالسكان الأصليين ، وقد تحركت كل هذه الجموع طامعة فى أن تعبر البرارى إلى الدلتا ، وأن تستقر فى أرضها الخصبة .. ويبدو أن هذا الهجوم المشترك بين الليبيين وشعوب البحر على الأراضى المصرية خلال عهد « مرنبتاح » كان بمثابة الخطر الأكبر الذى قد هدد أمن مصر منذ عهد الهكسوس ، فللمرة الأولى منذ أمد بعيد نرى مصر تحارب فى حدودها القريبة أو على أرضها بمعنى أدق.

ولقد نجح « مروى بن ديدى » الزعيم الليبى فى التقدم نحو الشمال إلى حدود الدلتا الغربية وتمكن من الدخول إلى مصر عبر أقاليم الدلتا فى « بر – إيرو » بعد أن اجتاز الحدود الغربية ، ولكنه لم يجتز حدود الفرع الكانوبى للنيل ، ووصل بعدها إلى مرتفعات الواحات قاطعاً منطقة أراضى الفرافرة .. ويبدو أن الغزاة كانوا عشرات الالاف ، وأكثرهم عدداً الليبيون من سكان وقبائل الصحراء الغربية كالتحنو والتمحو والماشوش والقهق وقد تزعمتهم قبيلة الليبو ، بالإضافة إلى أعداد ضخمة من شعوب البحر كالشردان والتيريش والشيكلش والايكواش واللوكا ، وتذكر بعض المصادر اسم شعبين أو عنصرين هما الاسديركا والماريانو التى ربما كانت شعوب أقل عدداً وجاءوا من آسيا ، وقد أنضم إليهم بعض العناصر المتفرقة من خيتا (آسيا الصغرى) .. ولقد كانت كل هذه الشعوب والأجناس والعناصر وعائلاتهم تحت قيادة « مروى بن ديدى » الذى اصطحب معه أيضاً زوجته وأولاده ، وجاءوا ليبحثوا عن خيرات مصر لكى يملأوا بها أفواههم لأنهم كانوا يتقاتلون فى بلادهم فى سبيل الحصول على أقل زاد ، وذلك كما تصفهم المصادر المصرية ، وكان الغرض من هجومهم أيضاً هو الاستقرار

والاستيطان على أرض مصر.

ومع بداية الهجوم على الحدود الغربية اجتمع الفرعون « مرنبتاح » برجال بلاطه وأخبرهم بنبأ العدوان الليبى ، ثم أعطى الملك تعليماته للقوات المصرية التى خرجت على الفور لقتال الغزاة وقد أمر بتحصين الحدود وأهتم بقلاع منف وهليوبوليس ، وحدثت المواجهة فى اليوم الرابع عشر. ومن المحتمل أن الملك لم يشارك بنفسه فى المعركة نظراً لكبر سنه إلى حد ما ، ويبدو أنه قد ترك هذه المهمة لقواته الشابة ، ولا شك أن الفرعون « مرنبتاح » مع قواده قد خططوا معاً للقضاء على العدوان ولا سيما أنه كان ابناً لـ « رمسيس الثانى » المقاتل الشجاع .. والجدير بالذكر أن الفرعون قد رأى المعبود بتاح فى رؤيا وهو يحثه للدفاع عن البلاد ويشجعه على الخروج للقتال وقد بشره بالنصر على أعداء مصر .. وتشير النصوص المصرية إلى أن الهجوم قد كان فى منطقة الفيوم وجنوبها ، وربما كان فى واحة الفرافرة أكثر منه على حدود الدلتا الغربية ، ذلك أن الليبيين حين هاجموا الحدود الغربية كانت خطواتهم الأولى احتلال واحتى البحرية والفرافرة حتى يجعلوا منهما مركزاً لاعتداءاتهم المقبلة ، وقد سجل « مرنبتاح » هذه الحقيقة فى نقوش الكرنك ، حيث يقول : « لقد وصلوا إلى تلك الواحة واستولوا على إقليم الفرافرة (تا احت) ». ومن المعلوم أن الواحات فى الصحراء كالجزر فى المحيطات تعتبر كملجأ ، بل هى أرفع منزلة فى أهميتها الحربية ، ففيها الماء الذى يجعل الصحراء تحت إدارته التامة ، كما يجعل القوافل تحت رحمته ، وتاريخ الحروب فى الصحراء ، فى الأزمنة القديمة والحديثة ، يظهر أهمية احتلال الواحات.

وقد دارت معركة شرسة بين الجيش المصرى والمعتدين أنتهت بهزيمة ساحقة للغزاة ، حيث تحولت المعركة إلى مذبحة حقيقية بالنسبة لليبيين وشعوب البحر الذين لم يفلتوا بأرواحهم من الجنود المصريين ، وكانت ست ساعات فقط من القتال كافية لقوات الرماة فى الجيش المصرى للقضاء على الغزاة ، بحسب ما ورد فى النصوص المصرية ، كما يبدو أن الجنود المصريون كانوا يفضلون قتلهم بدلاً من اقتناصهم كأسرى حرب. ويكفى أن نورد هنا عدد القتلى والأسرى الذين سقطوا أو أسروا بعد انتهاء المعركة ، حيث بلغ عدد القتلى من الليبيين ٦٢٠٠ ، ومن شعوب البحر ٢٣٧٠ ، كما ذكرت النصوص المصرية عدداً كبيراً من الأسرى من أبناء الزعماء ومن الليبيين ومن شعوب البحر ومن القهق والماشوش ، حيث بلغ

عدد الأسرى من الفريقين ٩٣٧٦ بين رجل وامرأة ، من بينهم نساء الملك الليبى وأخوته. وكان من نتيجة القتال فرار الزعيم الليبى " مروى بن ديدى " فى الظلام بعد أن قتل الآلاف من رجاله وأخذت ممتلكاته ومعداته وفضته وذهبه وأوانيه. وعندما عاد إلى بلاده ، اعتبر كمسئول أول عن الكارثة والهزيمة النكراء التى لحقت بهم ، وخلع عن عرشه وأصبح مجرد هدف للكراهية والازدراء من جانب مواطنيه .. وفى نهاية المعركة ، قام المصريون بسلب ونهب المعسكر الليبى ثم أشعلوا فيه النيران.

ودخل الجيش المصرى مكللاً بالنصر إلى منف ، وفى مساء ذلك اليوم ، تم خوزقة بعض الأسرى الليبيين ، كنوع من التنكيل بهم. وفى نفس هذا الوقت كان " مرنبتاح " يقف فى قاعة الاستقبال بقصره الفسيح الأركان ، وهو يعلن من خلال كلمة مسهبة وسط هتافات ودعوات كبار الحاضرين حوله بأنه على يقين من أنه قد قضى إلى الأبد على الخطر الليبى الذى كان يهدد مصر ، وقد أخذ الأسرى فى موكب مر تحت شرفة القصر الملكى. وفى الصالة الكبرى للقصر الملكى ظهر الملك أمام رجال بلاطه سعيداً بما رآه وسعيداً بما حققه جيش مصر الباسل من انتصارات ، وقد صورت لنا النصوص المصرية مدى الحسرة التى أصيب بها قوات العدو ، حيث ذكرت ما يقول شيخاً منهم لولده : " وانكبتاه على ليبيا ، التى حرمت من الحياة والعيشة الرغدة (فى مصر) ، وما عادوا يجرأون على السعى بين المزارع ، وتوقف سعيهم فى يوم واحد ". كما صورت لنا نصوص الفرعون مدى السرور والسعادة التى عمت فى البلاد وحالة الأمن التى سادت فى داخل وخارج الحدود بعد هذا الانتصار الكبير .. وهكذا أنتهى التهديد الليبى وأنقذت الحدود الغربية لمصر ، بعد أن كتب للقوات المصرية المنتصرة بقيادة الفرعون " مرنبتاح " نجاحاً بعيد المدى فى هزيمة هذا التحالف على طول الحدود الغربية للدلتا. وقد حق لنصوص الفرعون أن تصفه بأنه " الشمس التى أزاحت الغيوم التى رانت على مصر ، وجعل مصر ترى أشعة الشمس ، وأعطى النفس للشعب الذى كاد أن يختنق ".

حملة كنعان وتأمين الحدود الشرقية ..

رأى غالبية المؤرخين من خلال نصوص لوحة انتصارات الملك « مرنبتاح » الشهيرة – الموجودة بالمتحف المصرى بالقاهرة تحت رقم (CGC 34052, JE. 31408) والمعروفة خطأ لدى الكثيرين باسم « لوحة إسرائيل » – أنه قد شبت اضطرابات عنيفة فى آسيا خلال حكم « مرنبتاح » ، مما اضطر الجيش المصرى إلى الخروج للقضاء على تلك الاضطرابات واخمادها ، وأن السبب فى ذلك هو تحركات فرع آخر من شعوب البحر استطاع الاستقرار فى بعض المدن الكنعانية ، وأصبح مصدراً للتمرد والثورة ضد النفوذ المصرى فى كنعان (فلسطين) ، بل كان نواة خطيرة للاضطرابات التى أضرت باستقرار المنطقة. كما رأى بعض المؤرخين أن المغيرين قد وصلوا إلى الحدود الشرقية لمصر ، وأن الفرعون قد خرج إليهم بجيشه وقاتلهم قتالاً مريراً .. وقد ذكر الفرعون فى نصوص لوحته عن هذه الأحداث ما يلى : « لا يرفع أحد رأسه من بين الأقواس التسعة ، الخراب للتحنو ، وبلاد خيتا قد أسكتت ، ونهبت كنعان وأصابها كل شر ، واستسلمت عسقلون وأخذت جازر ، وينوعام أصبحت كأنها لم تكن ، وخربت إسرائيل ولم يعد لها بذور ، وأصبحت خارو أرملة لمصر » .. ومن ثم فقد رأى جانب كبير من المؤرخين أنه من الصعب ذكر مناطق أسيوية بعينها من خلال لوحة انتصارات الملك « مرنبتاح » ، على أنه قد تم قمعها واخضاعها بواسطة فرعون مصر ، وكذلك وصف الملك « مرنبتاح » فى لوحة عمدا بنعت « قاهر جازر » ، بالإضافة إلى سلسلة المناظر الحربية الخاصة بالفرعون والمسجلة على جدران معبد الكرنك بطيبة ، ولا يجعلنا هذا على ثقة تامة ومؤكدة بقيام الفرعون « مرنبتاح » بحملة حربية على بلاد كنعان ، استطاع من خلالها فرض السيطرة المصرية على هذه المناطق من جديد .. ولقد تضمنت المناظر الحربية الخاصة بالملك « مرنبتاح » والمسجلة على جدران معبد الكرنك قيام الفرعون بحصار مدينة عسقلون ، وكذلك قيامه بحصار مدينة كنعانية أخرى تشير بعض الآراء إلى أنها جازر ، ومدينة أخرى يحتمل أنها ينوعام. كما صور « مرنبتاح » وهو يقوم بتقييد بعض الأسرى من الشاسو ، وصور الفرعون كذلك عائداً إلى مصر وهو يقود مجموعات من الأسرى الكنعانيين والأسرى الشاسو المقيدين فى مركبته الحربية .. ويرى بعض المؤرخين أن « مرنبتاح » ربما يكون قد تتبع نفس

خط سير حملة جده « سيتى الأول » الأسيوية الأولى على بلاد كنعان ، والتى تمكن فيها هو كذلك من الانتصار على الشاسو والاستيلاء على ينوعام وتثبيت النفوذ المصرى هناك.

القضاء على تمرد الجنوب ..

أقام الفرعون المحارب « مرنبتاح » أربعة لوحات فى بلاد النوبة فى عمدا وعمارة غرب ووادى السبوع وعكشا لتخليد ذكرى انتصاره على المتمردين من القبائل النوبية فى واوات ، ويعد النص الموجود فى عمدا هو الوحيد الكامل والمحفوظ لدينا بينما فقدت بقية النصوص الأخرى بشكل كامل تقريباً .. وقد أشارت النصوص المصرية إلى أن هذا التمرد قد حدث فى أعقاب الغزو الليبى فى غربى الدلتا ، حيث سجلت لوحة عمدا تاريخ اليوم الأول من الشهر الثالث من الصيف من العام الخامس من عهد الفرعون ، وهو تاريخ تواجد الجيش المصرى فى مواجهة الليبيين وشعوب البحر فى الصحراء الغربية وانتصاره عليهم. وتذكر النصوص أنه بمجرد انتصار الجيش المصرى فى هذه المعركة الكبرى والحاسمة ، وصلت الأنباء إلى الفرعون بوقوع التمرد فى الجنوب فى واوات بين النوبيين .. ويرى بعض المؤرخين أن اندلاع الحرب من قبل الليبيين فى الغرب والنوبيين فى الجنوب فى وقت واحد تقريباً ليس مجرد محض صدفة ، بل من المؤكد أنه كان مدبراً ، وأنه كان هناك هدفاً استراتيجياً بعيد المدى وراء هذا التوقيت فى الهجوم يهدف إلى إنهاك الجيش المصرى على جبهتين فى آن واحد. والجدير بالذكر أن خطوط الاتصال بين الأراضى الليبية والنوبة كانت فى حالة جيدة خلال تلك الحقبة عبر دروب الصحراء الغربية. ولم تشر نصوص لوحة عمدا أو أية مصادر أخرى إلى تاريخ محدد أو منطقة معينة وقعت فيها أحداث المعركة بين الجيش المصرى والمتمردين النوبيين ، ويبدو أنه – فى أغلب الظن – قد تركت قيادة هذه الحملة لنائب الملك فى كوش (حاكم النوبة) .. وقد أوضحت النصوص المصرية بشكل جلى رد الفعل السريع والحاسم والعنيف الذى قام به الفرعون لمواجهة هذا التمرد ، وأسهبت نصوص الفرعون « مرنبتاح » المسجلة على لوحة عمدا فى وصف العقاب القاسى الذى لحق بزعماء التمرد بالحرق أمام ذويهم وبقطع الأيدى والأذن. ومن المؤكد أن العقاب القاسى الذى واجهه الأسرى النوبيين كان انعكاساً لرغبة « مرنبتاح » فى عدم تكرار هذا التمرد مرة أخرى فى المستقبل بأى حال من الأحوال ، وذكرت

النصوص عبارة تقول بأن « كوش لن تكرر التمرد مرة أخرى » ، كما وصفت النصوص « مرنبتاح » بأنه « الثور القوى فى مواجهة كوش ».

الملك العظيم والمحارب الباسل ..

ويمكننا القول من خلال المصادر التاريخية المختلفة التى تحدثت عن حروب ومعارك الفرعون « مرنبتاح » أنه كان بالفعل ملكاً شجاعاً ومحارباً جسوراً ، استطاع تحقيق نصراً عسكرياً حاسماً على الليبيين وشعوب البحر فى العام الخامس من حكمه ، وهم الذين شكلوا تهديداً خطيراً على مصر استهدف العاصمة التليدة منف نفسها ، كما تمكن الفرعون المحارب من مواجهة التحديات التى واجهت النفوذ والحكم المصرى فى كنعان والنوبة بحزم واقتدار .. ولعل العثور على عدد من القطع الأثرية التى قد حملت اسم « مرنبتاح » وخلفاؤه من الملوك الأواخر فى الأسرة التاسعة عشرة فى عدد من المواقع فى بلاد كنعان ، يؤكد على أن الهدف المرجو من حملته الحربية هناك قد تحقق بالكامل من خلال بسط النفوذ المصرى فى المنطقة ، وقد عثر كذلك على آثار تحمل اسم الفرعون فى جازر ويحتمل فى لاكيش.

رمسيس الثالث .. آخر الملوك المحاربين العظام ..

فى العام ١١٨٤ ق. م أعتلى الملك « رمسيس الثالث » عرش مصر الخالدة ، وكان الملك الثانى فى الأسرة العشرون التى أسسها « ست نخت » ، والذى كان هو الآخر ملكاً عظيماً ينتمى إلى صفوف الجيش المصرى والمؤسسة العسكرية ، وقد نجح فى تأسيس هذه الأسرة الحاكمة بعد القضاء على الفوضى والاضطرابات التى لحقت بالدولة خلال نهاية الأسرة التاسعة عشرة عقب وفاة الملك العظيم « مرنبتاح » آخر الملوك الأقوياء فى الأسرة التاسعة عشرة .. ولقد كان « رمسيس الثالث » ملكاً عظيماً ومحارباً جسوراً ، وآخر من نجح فى الحفاظ على هيبة مصر العسكرية فى أرجاء الإمبراطورية الخاضعة لها فى منطقة الشرق الأدنى القديم خلال عصر الدولة الحديثة. ولا ريب فى أن أعظم مآثره كان نجاحه فى صد هجمات شعوب البحر ، والتى لو قدر لها أن تحقق النصر والسيطرة ، لكانت مصر وحضارتها قد ضاعت ، وضاعت معها بعض بلدان الشرق الأدنى القديم أمام هذه القوى الاستعمارية الجامحة .. وقد قام الفرعون

بتسجيل معاركه وحروبه المختلفة على جدران معبد مدينة هابو بغربى طيبة.

الحرب الليبية الأولى ..

فى العام الخامس من حكم الملك " رمسيس الثالث " (حوالى ١١٨٠ ق.م) ، كان على الجيش المصرى أن يواجه خطراً قادماً من الغرب ، وهو الخطر نفسه الذى تعرضت له مصر من قبل خلال عهد الملك " مرنبتاح " منذ خمسة وعشرين عاماً. حيث بدأ الليبيون فى الثورة فى السنة الخامسة من حكم الفرعون بسبب تعيين حاكم جديد عليهم ، وكانوا قبائل متعددة منهم الليبو والماشوش .. وتذهب النصوص المصرية إلى أن الليبيين " قد طلبوا رئيساً بأفواههم ، وليس بقلوبهم " ، مما يشير إلى أن هذا الحاكم كان بايحاء من الفرعون ، وليس عن رضى من الليبيين ، ويبدو أن الفرعون قد انتهز الفرصة " وأحضر ولداً صغيراً من أرض تمحو ، وهو طفل ، وقد عضده بقوة ساعديه ، ونصب عليهم رئيساً لينظم بلادهم " ، كما يبدو أن القبائل الليبية قد عارضت هذا التعيين ، فقامت الحرب التى أنتهت بهزيمتهم أمام الجيش المصرى هزيمة منكرة على حدود الدلتا الغربية ، وهم فى طريقهم إلى منف. ومن ثم فقد نجح الجيش المصرى بقيادة " رمسيس الثالث " فى حملته الأولى فى الحد من تقدم تلك القبائل التى جاءت من ليبيا ونجحت فى دخول حدود مصر الغربية ، واستطاعت القوات المصرية مواجهة ذلك الغزو بعد أن تم قتل اثنا عشر ألفاً وأسر العديد من رجال العدو.

وتذكر النصوص المصرية أن مكان المعركة قد وقع عند مدينة " وسر ماعت رع ، مرى آمون ، طارد التمحو " ، والتى تقع على الأغلب فى الصحراء قرب بحيرة مريوط. وكما ذكرنا من قبل ، فإن المعركة قد أنتهت بنصر مبين للجيش المصرى بقيادة الفرعون المحارب " رمسيس الثالث " ، وأقيمت الاحتفالات ابتهاجاً بهذا النصر على الليبيين ، ونشاهد من خلال المناظر المسجلة على جدران معبد مدينة هابو الفرعون واقفاً فى شرفته ، وهو يخاطب موظفيه الذين يحبونه بكل احترام ، ثم نرى الضباط المصريين يقودون الأسرى من الليبيين والذين زاد عددهم على أربعة آلاف ، فضلاً عن اثنا عشر ألف قتيل .. وهكذا تنتهى الاضطرابات على حدود مصر الغربية إلى حين ، ويأمن المصريون على أنفسهم ، وتذكر النصوص المصرية " أن الممالك الأجنبية قد أتت منحنية لشهرة جلالته ومعهم أطفالهم

وجزيتهم على ظهورهم ، وأصبح على أهل الجنوب والشمال أن يمتدحونه » أى الفرعون.

معركتا المصير أمام شعوب البحر ..

فى السنة الثامنة من عهد « رمسيس الثالث » (حوالى عام ١١٧٧ ق. م) ، كان على الجيش المصرى أن يواجه الموجة الأخرى من الغزو الهندوأوروبى ، حيث جاء الغزاة من شعوب البحر ومعهم زوجاتهم وأطفالهم من الشرق ومن الشمال فى موجة كبيرة ، وهددوا حدود مصر فى موجة كبيرة من البر والبحر فى آن واحد ، ويبدو أن تلك الشعوب كانت تبحث عن مجال جديد فى آسيا الصغرى وفى سوريا وكان هدفهم من وراء تلك الحملات الحربية الاستقرار الدائم فى تلك الأقطار .. وقد تحركت هجرات من شعوب البحر جنوباً فى آسيا الصغرى ناشرة الخراب فى الأناضول وسيليسيا وسوريا واستطاعوا القضاء على الإمبراطورية الحيثية ، ثم أتخذت لها مركزا برياً فى آمورو ، هذا فضلاً عن تحركات أخرى عن طريق البر ، وثالثة عن طريق البحر ، وكلها كانت تتجه بأبصارها نحو وادى النيل الخصيب والموفور الثراء .. ومن ثم فقد أستعد الفرعون المحارب « رمسيس الثالث » على الفور لهذه المواجهة الحاسمة لحماية مصر بل ولحماية كافة مناطق سوريا وفلسطين ، وقام بتأمين حدود أراضى جاهى بقوات الحاميات وبالزعماء وبمحاربى الماريانو الموالين له فى هذه المناطق.
ويبدو أن الجيش المصرى قد نجح فى محاصرة الهندو أوروبيين على الحدود الفلسطينية ، أى خارج حدود مصر .. وقد سجل الملك معاركه معهم على جدران معبد مدينة هابو فى البر الغربى بطيبة ، ومن خلال تلك المناظر الحربية نشاهد جنود الجيش المصرى وهم فى ساحات القتال وتساعدهم الجنود الأجانب من الشردان التى يرتدى أفرادها خوذات مميزة مزينة بقرص وقرنين ، ونقوش ذلك المعبد تسمح لنا بتتبع قصة انتصار الجيش المصرى على الغزاة ، فقد تقدم الأعداء نحو حدود مصر عن طريق البر والبحر ، وأعد الفرعون بعناية كبيرة أسطولاً ضخماً للدفاع عن الدلتا ، كما أعد قوات مدربة جيداً ، ويبدو أنه فاجأ الغزاة وربما أخذهم بعنصر المفاجأة حتى أنهم لم يستطيعون الرسو على الشاطئ وهلك أغلبهم ، وقد صورت على جدران المعبد مشاهد قتال القوات المصرية فوق مراكبهم وأوضاع الأعداء أمامهم ، وكان من بين تلك الشعوب الغازية الشردان والدانيين والبلست والثيكر.

ولقد تنوع الصراع والقتال بين الجيش المصرى والغزاة من شعوب البحر ما بين معركة برية ومعركة بحرية ، فمن خلال مناظر المعركة البرية والتى أطلق عليها من قبل المؤرخين معركة جاهى وقد وقعت على الأرجح قبل المعركة البحرية ، نجد منظراً للملك « رمسيس الثالث » وهو فى مركبته الحربية ، ويقوم بالهجوم على قلب قوات شعوب البحر الذين ساد بينهم الارتباك وسوء النظام ، وتساعده قوات المشاة المصرية ، فضلاً عن جنود من سلاح المركبات الحربية ومن الأجانب ، ويشاهد شعوب البحر ، وهم يرخون لسيقانهم العنان ، كما يفرون فى عرباتهم ، كما تفر نساؤهم وأطفالهم بأمتعتهم المحملة على عربات ثقيلة تجرها الثيران. ويبدو أن القتال قد وقع – فى أغلب الظن – فى مكان ما إلى الشمال من المقاطعات المصرية القديمة فى كنعان ، أى فى شمال طرابلس على الأرجح ، أو ربما يكون القتال قد وقع فى شمال آمورو ، حيث كانت قوات الغزو تتهيأ وتتجمع هناك للهجوم على مصر. كما يبدو أن العدو قد أخذ على حين غرة من قبل القوات المصرية أثناء بداية تحركه بعرباتهم الثقيلة التى تجرها الثيران ، وكان معهم نساؤهم وأطفالهم كما أشرنا من قبل .. وعلى أى حال فقد نجح الفرعون المحارب « رمسيس الثالث » فى أول مواجهة عسكرية بينه وبين هؤلاء المتبربرين ، فى قيادة الجيش المصرى إلى النصر على هؤلاء الغزاة الذين أنزل بهم شر هزيمة.

وأما المعركة البحرية والتى سميت بمعركة الدلتا ، فتقدم لنا المناظر الحربية المسجلة على جدران معبد مدينة هابو منظراً لخمسة سفن من سفائن شعوب البحر ، تطاردها أربعة سفن مصرية ، وقد أوضحت المناظر أن سفن الغزاة تبدو وكأنها لم تستعد للقيام بمناورة ، حيث كانت أشرعتها مطوية ، بينما تبدو السفن المصرية تهاجم بطريقة منظمة بمقدمتها المتجهة نحو العدو ، بينما لا يوجد لدى السفن الأخرى مثل هذا التشكيل. ويعد رسم المعارك البحرية التى خاضتها الجيوش المصرية فريداً من نوعه بين مناظر الحرب ، وقد وصف كتبة الفرعون انتصاره بأسلوب بديع ، وجاء فى نصوص الفرعون العبارة الآتية : « لقد جهزت شبكة من أجلهم لاصطيادهم ، وقد حوصر أولئك الذين دخلوا مصبات النهر وسقطوا فيه ، وقد قيدوا فى أمكنتهم وذبحوا وقطعت جثثهم ». وعلى أية حال فقد تحطم أسطول شعوب البحر أمام شواطئ الدلتا ولم يعاودوا الكرة مرة أخرى ، ومن ثم فقد عادت السيطرة المصرية كاملة على حدودها الشمالية.

وهكذا فقد كتب للجيش المصرى بقيادة الفرعون المحارب " رمسيس الثالث " نجاحاً بعيد المدى فى صد هجوم شعوب البحر على الحدود المصرية عند جاهى ، كما استطاعت القوات المصرية صد هجوم الغزاة البحرى عند " مدخل الأنهار " فى الدلتا ، وبهذا حرمت شعوب البحر من أن تطأ أقدامها أرض مصر ، وولت جيوشهم الأدبار عند جاهى ، كما شاع الاضطراب فى أسطولهم البحرى عند مصبات النيل ، حيث نجد منظراً لإحدى قطعهم البحرية ، وهى تحمل جنودهم فى أقصى حالات الاضطراب ، والمصريون مقبلون عليهم بقوة ، فيسقط اثنان منهم فى الماء ، بينما يتطلع واحد إلى الشاطئ يلتمس الرحمة من الفرعون ، كما يظهر أحد قواربهم مقلوباً ، وقد طرح برجاله فى الماء ، وهكذا كانت هزيمتهم براً وبحراً .. والجدير بالذكر أن ذكرى هذه الموقعة قد أشير إليها مرات عديدة خلال فترة حكم الملك " رمسيس الثالث " ، بل لقد أحييت ذكراها أيضاً بعد انقضاء حوالى ربع قرن ، من خلال بردية هاريس رقم ١ ، حيث قال الملك : " لقد استطعت مد كل حدود مصر ، لقد قضيت على الدانيين القادمين من جزرهم ، وحولت الثيكر والبلست إلى مجرد رماد .. وكذلك كان مصير الشردان والوشاشا القادمين من البحر .. لقد أهلكوا معظمهم ، ووقع الكثير منهم أسرى بضربة واحدة ، وأقتيدوا إلى مصر ، إنهم يماثلون فى كثرتهم حبات الرمال بشاطئ البحر ".

الحرب الليبية الثانية ..

ويبدو أن الانتصار الأول للقوات المصرية تحت قيادة الملك " رمسيس الثالث " على القبائل الليبية كان غير حاسم ، فبعد ست سنوات تقريباً من المعركة الأولى ، وفى العام الحادى عشر من حكمه (حوالى ١١٧٤ ق. م) ، تعرضت مصر لخطر الليبيين من جديد. وقد قام الماشوش بالدور الرئيس فى هذه الحرب بقيادة زعيم الماشوش " مششر بن كابر " الذى بدأ بإخضاع بقايا الشعوب الليبية الأصلية. وعندما تحقق له ذلك ، دفع " مششر بن كابر " بقبائله لغزو مصر ، وتقابل مع الجيش المصرى بالقرب من منف أيضاً ، وكان انتصار الجيش المصرى بقيادة " رمسيس الثالث " حاسماً هذه المرة ، فقد أسرت القوات المصرية " كابر " وولده ، وطبقاً لما ورد فى النصوص المصرية فقد وقع من الليبيين ٢٠٥٢ أسيراً ، وقتل منهم ٢١٧٥ .. وهكذا فقد نجح الجيش المصرى فى إنقاذ مصر من الغزو بهذا الانتصار البرى

الكبير ، وقد جاء ذكر هذه الحملة الأخيرة فى بردية هاريس رقم ١. ويبدو أن انتصار الفرعون قد بلغ حداً جعل المصريون يعتبرونه حدثاً يحتفلون به سنوياً قد أطلقوا عليه « عيد قتل الماشوش » ، كما خلعوا على الفرعون المنتصر « رمسيس الثالث » ألقاب « حامى مصر ، والمدافع عن الأقطار ، وقاتل الماشوش ، ومتلف أرض التمحو » .. وهناك نصان فى معبد مدينة هابو يقصان أحداث المعركة وصور لغنائم الحرب من الأسرى وما تعرض له بعض هؤلاء الأعداء من بتر لأيديهم وأعضائهم. وهذه هى المرة الأولى التى تشهد فيها مثل هذه المناظر نوع من المبالغة والقسوة مع الأعداء ، وهو الأمر الذى لم يكن معتاداً فى خلق الحرب عند المصريين القدماء على مر العصور ، وربما يكون هذا من قبيل الدعاية بأن الفرعون قد أنزل بهم أشد أنواع التنكيل ، نظراً لما هو معروف عن المحاربين المصريين من عدم القسوة مع أسراهم إلى هذه الدرجة.

إنتصار آخر فى كوش ..

قدمت لنا مناظر معبد « رمسيس الثالث » فى مدينة هابو بغربى طيبة إشارة إلى قيام الفرعون بحملة حربية على بلاد النوبة (كوش) ، ومن ثم فقد رأينا الفرعون يذكر فى نصوص بردية هاريس أنه « لم يعد هناك عدو من كوش ، أو مناهض من سوريا ». وربما كانت تلك الحملة جرياً على التقاليد القديمة التى كانت تقضى بأن يقوم الفرعون بحروب أو حملات عسكرية ، حقيقية أو استعراضية ، ليظهر فيها قوته ، ويبعث على النفوس الرهبة ، ويبين فيها لشعبه – فضلاً عن البلاد التابعة له – أنه ليس بأقل قوة من أسلافه من الملوك. ومن ناحية أخرى ، فقد أشارت بردية هاريس إلى أنه كان هناك خطر من نوع ما قادم من النوبة ، وكذلك من آسيا ، ومن ثم فإن « رمسيس الثالث » يقول لجنوده ، وبعد انتهاء حروبه واطمئنانه على سلامة البلاد : « لقد جعلت المشاة ورجال المركبات الحربية يقيمون فى بلادهم على أيامى ، فكان الشردان والقهق فى مدنهم ، مضطجعين على ظهورهم ، وليس هناك من خوف ، فلم يعد هناك عدو من كوش ، أو مناهض من سوريا » .. وهكذا تظهر لنا نقوش معبد مدينة هابو أن « رمسيس الثالث » قد قام بحملة على بلاد النوبة (كوش) ، وأنه قد أوقع بالنوبيين هزيمة منكرة « جاعلاً بلاد كوش كأن لم تكن من قبل ، وأصبح قومها مضرجين فى

دمائهم ". ويبدو الملك " رمسيس الثالث " فى مناظر المعبد وهو يقود أمامه ثلاثة صفوف من الأسرى النوبيين ، ويقف بهم أمام المعبودين آمون رع وموت ، وتبدو الجزية مكدسة بين الملك وهذين المعبودين ، ويلى ذلك نص جاء فيه : " تقديم الجزية من الملك لوالده آمون رع ، كبير الآلهة ، بعد أن عاد جلالته من كوش ، وقد أحرز النصر على بلاد كوش الخاسئة وأصبح زعماؤها فى قبضة يده ، وجزيتهم أمام جلالته ".

المجد الحربى الأخير فى آسيا ..

سجل الفرعون المحارب " رمسيس الثالث " على جدران معبد مدينة هابو مناظر لحروب وحملات له فى بعض المناطق الأسيوية تختلف عن مناظر حملته الشهيرة على شعوب البحر ، غير أن هذه المناظر ليس لها تواريخ محددة. وقد رأى الكثير من المؤرخين أنه ربما قد أدت الغزوات التى توالت من آسيا الصغرى إلى تدمير مناطق سوريا الشمالية ، فانتهز " رمسيس الثالث " هذه الفرصة لغزو هذه المناطق ، وكانت مدينة أرزاوا هى أولى المدن التى غزاها الجيش المصرى بقيادة الفرعون ، وقد صور الفرعون فى مركبته الحربية يتبعه مشاة من المصريين وهو يقوم بالهجوم على حصنين ، وقد أمطرهما الفرعون بوابلاً من السهام ، ولم يلبث أن أخذ الجنود الحيثيين المدافعون يختل ميزانهم ، وتسود صفوفهم الفوضى التامة ، ويشاهد الجنود المصريين وقد دخلوا الحصن الأعلى من القلعة ، وقد قذفت أبوابه من أعلى ، وبعد ذلك يرى أحد الحيثيين يرفع فى يده موقداً رمزاً للخضوع والتسليم.

وفى منظر آخر يشاهد الملك " رمسيس الثالث " فى مركبته الحربية واقفاً بسيفه مشهراً وهو يقوم بالهجوم – بمساعدة رماة من المصريين ومن مشاة الشردان – على مدينة تونيب المحصنة فى سوريا ، ويلاحظ أن الفرعون كان يضرب شخصية عظيمة من الأعداء ، ويرى الجنود المصريون وهم يقطعون الأشجار التى حول المدينة ، ويحطمون البوابة ، ويتسلقون سلالم منصوبة على الجدران ، وصور أحد الجنود السوريين وهو يرفع موقداً كناية عن استسلام المدينة. وفى منظر آخر يشاهد " رمسيس الثالث " وهو يقوم بالهجوم على أحد الحصون السورية ، فينزل من مركبته الحربية ويهاجم الحصن ، فى حين أن قوات جيشه ينتظرون خلفه ، ولا يمضى زمن طويل حتى يعلن السوريون عن استسلامهم. وبعد هذا النصر

يرى « رمسيس الثالث » وهو يستعرض الأسرى السوريين فى ثلاثة صفوف ، يقدمهم له الضباط المصريون بقيادة ولى العهد ، ويرى « رمسيس الثالث » فى مركبته الحربية سائقاً أمامه صفين من الأسرى السوريين عائداً بعد انتصاراته الحاسمة ، مقدماً أسراه فى منظر آخر إلى معبودات طيبة .. ويبدو أن « رمسيس الثالث » قد قام بحملة ثانية لمحاربة الآموريين ، حيث صور وهو يقوم بالهجوم على حصن آمورو على قدميه ، وقد ساعده فى ذلك جنوده من المصريين والشردان ، وقد استسلم السوريون فى نهاية الحصار ، وصور الفرعون وهو يحتفل بانتصاره على السوريين.

وأخيراً نجد « رمسيس الثالث » فى نهاية هذه الحروب كلها يقدم لثالوث طيبة أسرى يمثلون الحملات التى قام بها فى ليبيا وآسيا ، وعندئذ يخاطبه ثالوث طيبة بكلمات التمجيد ، ثم يرد عليهم الفرعون معترفاً لهم بالجميل ، وبأنهم هم الذين ناصروه حتى استولى على كل هذه البلاد ، ومن أجل ذلك يقدم لهم كل ما غنمه ويقول مخاطباً آمون : « لقد استوليت على أهليهم وكل ممتلكاتهم ، وكل حجر فاخر فى بلادهم أضعه أمامك يا سيد الآلهة ، فهب من تحب ! ليتك تعطى تاسوعك مثل ذلك ، وإنها قوة ساعدك التى استولت عليهم ، فالذكور منهم يعملون فى مخازنك ، ونساؤهم يكن إماء لمعبدك ، وإنك قد جعلتنى أمد حدودى إلى حيث شئت ، ودون معارضة فى أى أرض ... ».

وبعد تقديم هؤلاء الأسرى نرى « رمسيس الثالث » فى آخر الأمر يضحى برؤساء كل الممالك التى تغلب عليه أمام المعبود آمون سيد طيبة ، وهنا نشاهده وهو يقوم بذبح أسرى من أجناس مختلفة أمام آمون الذى يمد له سيف النصر ، فى حين نرى معبودة طيبة تقود له خمسة وعشرين ومائة إقليم أجنبى ، يرمز لكل منها بطغراء فيه اسم الاقليم ، كأنه أسير فى عنقه الأغلال .. وإذا صدقنا ما جاء فى هذه القائمة عن البلاد التى فتحها أو أخضعها « رمسيس الثالث » ، فإن الجيش المصرى يكون قد وصل خلال عهده إلى نهر الفرات ، غير أننا نشاهد فى هذه القائمة شعوباً قد اختفوا منذ زمن بعيد ، مما يدل على أنها قد نسخت من قوائم قديمة ، وبخاصة قوائم « رمسيس الثانى » الذى كان يريد سميه « رمسيس الثالث » أن يقلده فى كل شىء ، وكذلك من قوائم الفاتح العظيم « تحوتمس الثالث » ، ولذلك يجب أن ننظر إلى ما فى هذه القوائم بكثير من الحذر والتدقيق .. ويبدو أن الغرض الأساسى الذى من أجله قام

" رمسيس الثالث " بحملته على سوريا وآمورو ، هو خوفه من التعدى على أملاكه فى كنعان (فلسطين) ، التى كانت مرتبطة بمصر ارتباطاً وثيقاً منذ أقدم عهود التاريخ المصرى ، وحتى بلاد كنعان (فلسطين) نفسها كادت أن تفلت من أيدى المصريين ، لأن كل الاقليم الساحلى قد احتله البلست الذى وفدوا مع شعوب البحر ، واحتلوا هذا الجزء من ساحل البحر المتوسط ، ولكن يدل ما لدينا من آثار على أنه كان فى مقدور مصر أن تستمر فى سيطرتها على بلاد كنعان ، فى عهد الملوك الذين خلفوا " رمسيس الثالث " مدة ما.

ومما يلفت النظر فى هذه الحروب الأخيرة التى شنها " رمسيس الثالث " على آسيا بعد حربه الليبية الثانية فى السنة الحادية عشرة من حكمه ، أننا لم نجد فى النقوش ما يؤكد لنا بصفة قاطعة تواريخ تدل على أن هذه الحروب قد وقعت بعد الحرب الليبية الثانية ، غير أن شواهد الأحوال تشعر بذلك ، وبخاصة ترتيب المناظر التى تركها " رمسيس الثالث " على جدران معبد مدينة هابو لأنها كانت قد نقشت – على ما يبدو – وفقاً لترتيبها التاريخى. على أنه من الجائز جداً أن " رمسيس الثالث " لم يقم بهذه الحروب إلا بعد القضاء على خطر شعوب البحر من جهة الشمال ، والقضاء على خطر الليبيين فى الغرب ، وإلا لكان قد عرض مصر نفسها لخطر ساحق من الحدود الغربية إذا كان قد قدم بحروب للغزو والفتح فى آسيا مع وجود الليبيين شوكة لظهره فى الغرب .. وعلى أية حال فإن موضوع تاريخ هذه الحروب لا يزال يكتنفه الكثير من الغموض والتساؤلات من قبل الباحثين والمؤرخين.

* * * * *

المراجــع

- Breasted, J.H., A History of Egypt, From the Earliest Times to the Persian Conquest, New York (1946).
- Christophe, L. 'La Carrière du Prince Merenptah et les trios regencies ramessides', ASAE 52 (1951).
- Edgerton, W.F. and Wilson, J.A., Historical Records of Ramses III, the Texts in Medinet Habu, Vols. I & II, Chicago (1936).
- Erichsen, W., Papyris Harris I: Hieroglyphisthe Transkription, Brusseles (1933).
- Faulkner, R.O., 'Egypt: From the Inception of the Nineteenth Dynasty to the Death of Ramesses III', CAH II.2, Cambridge (1975).
- Grandet, P., Ramsès III Histoire d' Un Règne, Paris (1993).
- Grandet, P., Le Papyrus Harris I, Le Caire (1999).
- Manassa, C., The Great Karnak Inscription of Merneptah: Grand Strategy in the 13th Century BC, New Haven (2003).
- Morris, E.F., The Architecture of Imperialism, Military Bases and the Evolution of Foreign Policy Egypt's New Kingdom, Leiden (2005).
- Nelson, H., 'The Naval Battle Pictures at Medinet Habu', JNES 2 (1943).
- Nibbi, A., The Sea Peoples and Egypt, New Jersey (1975).
- O'Connor, D., 'The Nature of Tjemhu (Libyan) Society in the Later New Kingdom', in: Libya and Egypt c. 1300-725 B.C., ed. A. Leahy, London (1990).
- Raafat Abbas, M., 'The Maryannu in the Western Desert during the Ramesside Period', Abgadiyat 8 (2013).
- Raafat Abbas, M., 'The Triumph Scene and Text of Merenptah at Karnak', Cahiers de Karnak 15 (2015).
- Raafat Abbas, M., 'The Town of Yenoam in the Ramesside War Scenes and Texts of Karnak', Cahiers de Karnak 16 (2017).
- Redford, D.B., Egypt, Canaan and Israel in Ancient Times, Princeton (1992).
- Sandars, N.K., The Sea Peoples. Warriors of the Ancient Mediterranean, 1250-1150 B.C., London (1985).

- Schulman, A.R., ‘The Great Historical Inscription of Merenptah at Karnak: A Partial Reappraisal’, JARCE 24 (1987).
- Spalinger, A.J., ‘Some Notes on the Libyans of the Old Kingdom and Later Historical Reflexes’, JSSEA 9 (1979).
- Spalinger, A.J., War in Ancient Egypt, Malden (2005).
- The Epigraphic Survey, Medinet Habu, Vol. I. Earlier Historical Records of Ramses III, Chicago (1930).
- The Epigraphic Survey, Medinet Habu, Vol. II. Later Historical Records of Ramses III, Chicago (1932).
- Wainwright, G.A., ‘Some Sea Peoples’, JEA 47 (1961).
- Wainwright, G.A., ‘The Meshwesh’, JEA 48 (1962).
- Wilson, J.A., ‘The Libyans and the End of the Egyptian Empire’, AJSL 51 (1935).
- Youssef, A.A., ‘Merneptah’s Fourth-Year Text at Amada’, ASAE 58 (1964).
- Yurco, F.J., ‘Merenptah’s Canaanite Campaign’, JARCE 23 (1986).


الخاتمة

الخاتمــة

وهكذا طالعتنا صفحات التاريخ على صورة مجيدة وفريدة من كفاح أجدادنا العظام من المصريين القدماء ، والتى رأينا من خلالها عقيدة راسخة فى الحفاظ على تراب الوطن المقدس وحماية حدود مصر الخالدة .. ومما لا شك فيه أننا نستطيع الخروج بالكثير من الدروس السياسية والاستراتيجية من خلال تلك الحقبة التاريخية التى مرت بها مصر ، بداية من تحريرها من الغزاة الهكسوس ، ثم تكوينها لأول إمبراطورية فى تاريخ العالم القديم فى منطقة الشرق الأدنى ، والتى امتدت من أعالى الفرات فى سوريا شمالاً وحتى الجندل الرابع ببلاد النوبة جنوباً خلال ذروة توسعها العسكرى ومجدها التاريخى .. فالحقيقة التاريخية تؤكد أنه ليس هناك من وسط فى تاريخ مصر بأى حال من الأحوال ، وهى الحقيقة التى أكد عليها المفكر المصرى القدير الراحل الدكتور " جمال حمدان " ، حين قال فى الجزء الأول من كتابه الشهير " شخصية مصر " : " الحقيقة أنه لا وسط فى تاريخ مصر ، إما قوة عظيمة سائدة رادعة ، وإما تابعة خاضعة عاجزة " ، كما قال فى موضع آخر عن رؤيته لمستقبل مصر وحاضرها : " مصر اليوم إما أن تحوذ القوة أو تنقرض ، إما القوة وإما الموت ، فإذا لم تصبح مصر قوة عظمى تسود المنطقة فسوف يتداعى عليها الجميع يوماً ما كالقصعة ، أعداء وأشقاء وأصدقاء وأقربون وأبعدون ". فهذا بالفعل هو الدرس الأهم لكل دارس لتاريخ الأمة المصرية على وجه العموم ، ولتاريخ مصر القديمة خلال عهد إمبراطوريتها على وجه الخصوص ، وهى معادلة الماضى والحاضر والمستقبل .. وقد بدا هذا الأمر واضحاً جلياً من خلال دراستنا هذه ، منذ أن وقعت مصر فريسة للاحتلال الأسيوى من قبل الغزاة الهكسوس حتى تمكنت من تحرير ترابها واستعادة كرامتها ، وحتى تبلورت الرؤية الاستراتيجية لملوك مصر فى أن أمنها القومى واستقلالها وبقاء حضارتها ووجودها قد أصبح مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بقوة الجيش المصرى الرادعة ، التى أصبحت الضمان الوحيد لبقاء وخلود الأمة المصرية فى منطقة اعتبرت هى الأهم فى العالم فى موقعها الجغرافى والاستراتيجى ، والتى كانت ولا تزال وستظل مطمعاً لكل قوى العالم السياسية والعسكرية الكبرى الطامحة فى السيطرة السياسية والاقتصادية ، والتى اتسمت دائماً عبر التاريخ بأنها تموج بالأحداث والتغيرات والتقلبات

السياســية والديموجرافيــة نظــراً لأهميتهــا الاســتراتيجية الشــديدة ، فكــم مــن أمــم ودول وإمبراطوريات وكيانات قد ظهرت فى الشرق الأدنى عبر تاريخه الطويل ، وتحتم على مصر أن تجابه وتواجه هذه التغيرات والمستجدات كأقدم وأكبر دولة فى المنطقة ، رغم ما مر بها من مجد وصعود أو ضعف وانحطاط ، ولكنها بقيت المعادلة الأهم والأكبر فى تاريخ المنطقة على الاطلاق.

ومن ثم فقد أصبحت قضية امتلاك مصر للقوة العسكرية الرادعة هى قضية المصير الأولى بالنسبة إليها منذ احتلال الهكسوس وحتى لحظة كتابة هذه السطور ، وهو بالفعل ما فعله ملوك طيبة الذين خاضوا حرب التحرير ضد الهكسوس واقتبسوا من العدو سلاحه الضارب المتمثل فى العربات (المركبات) الحربية التى تجر بواسطة الخيول ، والتى قد أدخلت إلى مناطق غربى آسيا على يد الشعوب الآرية التى وصلت إلى المنطقة خلال الألف الثانية قبل الميلاد ، واستخدمها الهكسوس فى هزيمة المصريين واحتلال أرضهم ، ثم تجلت العبقرية الحضارية والعسكرية الفذة لدى المصريين حين عملوا على تطوير هذا السلاح الضارب بشكل تقنى بارع وبتشكيلات عسكرية ضاربة داخل منظومة الجيش المصرى فى ميادين القتال ، فأصبح لهذا السلاح بتطويره المصرى الفضل فى انتصارات المصريين الحربية المذهلة والحاسمة فى المنطقة ، والتى أدت إلى بناء إمبراطوريتهم المترامية الأطراف الشاسعة الأركان فى آسيا وأفريقيا ، وتمكن الجيش المصرى من تحقيق الغلبة والتفوق على أعدائه ومناهضيه من جيوش وممالك ودول وإمبراطوريات الشرق الأدنى القديم طوال عهد الإمبراطورية المصرية .. كما كان لخطط التطوير الاستراتيجى التى أدخلها ملوك الأسرة الثامنة عشرة المحاربين – وعلى رأسهم الفرعون المحارب العظيم " تحوتمس الثالث " – داخل المؤسسة العسكرية المصرية ، وتنظيم الجيوش المصرية بشكل متطور يحدث لأول مرة فى تاريخ العالم القديم ، أثره البالغ والعميق فى احتفاظ مصر بتفوقها العسكرى فى المنطقة لفترة طويلة .. ولقد أثبتت الأحداث التاريخية من خلال ما مر بنا من فصول هذه الدراسة أن وجود القوة العسكرية الضاربة والرادعة لمصر ليس أمراً مصيرياً وحتمياً لأمنها القومى ووجودها فحسب ، بل ثبت – بما لا يدع مجالاً للشك – أن توافر هذه القوة هو صمام الأمان لمنطقة الشرق الأدنى بأكملها ، ولست أعتقد أن هذه النظرية تنطبق على أحداث التاريخ القديم فحسب ، بل تنطبق

كذلك على أحداث التاريخ الحديث والمعاصر .. ولنـا أن نتخيل كيف كـان سيكون مصير منطقـة الشرق الأدنى القديم بأكملها بدولها وحضاراتها المختلفة لو تمكنت شعوب البحر من مواصلة زحفها البربرى المدمر فى المنطقة دون أن يتصدى لهم الجيش المصرى خلال عهد الملك « رمسيس الثالث » فى معركتين حاسمتين أحدهما برية عند منطقة جاهى بسواحل لبنان وكنعان (فلسطين) وثانيهما بحرية عند سواحل الدلتا المصرية ، تسببا فى إنقاذ مصير المنطقة من الخراب والدمار المحقق على يد هذه الشعوب التى كانت تمارس الاستعمار الاستيطانى والسلب والنهب والخراب ومعاداة الحضارة والتمدن بشتى الطرق ، فلولا الجيش المصرى ووجوده لضاعت حضارة هذه المنطقة وساد التخلف وشريعة الغاب لسنوات طوال .. كما أن القوة العسكرية المصرية قد تسببت فى فرض التوازن الاستراتيجى بين القوى الكبرى فى المنطقة ، بل وفرض سياسة السلام وما يرتبط بها من ثقافة بين الدول والشعوب ، وهو الأمر الذى تجلى بوضوح فى السنوات التى تلت معركة قادش الكبرى خلال عهد الملك « رمسيس الثانى » ، حين أدى النضال العسكرى لهذا الفرعون المحارب العظيم ولجيش مصر الباسل إلى عقد أول معاهدة سلام فى التاريخ بين المصريين والحيثيين ، والتى كان لها عظيم الأثر فى أن تنعم المنطقة بالهدوء والاستقرار لسنوات طوال.

ولعل الدرس الأسمى والأهم يتمثل فى إدراكنا بأن المفهوم الحقيقى للأمن القومى المصرى وبقاء الأمة المصرية هو ترسيخ الاعتقاد بأن حدود مصر الطبيعية انما تبدأ فى سوريا ، وأن عقيدة النضال السياسى والعسكرى لدى المصريين يجب أن تتمثل فى تحقيق السيطرة السياسية والعسكرية المصرية فى بلاد الشام لمجابهة كل القوى المعادية لمصر فى المنطقة .. لقد أدرك الأجداد منذ وقوع الاحتلال الأجنبى الأول لأمتنا أنه لا أمان أو استقرار لمصر إلا ببناء إمبراطورية عظمى تمتد من الفرات بسوريا شمالاً حتى الجندل الرابع بالنوبة جنوباً ، وقد خاضوا المعارك التاريخية المختلفة فى سبيل هذه الاعتقاد حفاظاً على تراب مصر المقدس ، وليس طمعاً فى احتلال أراضى الغير واستعباد الشعوب كما فعل الفرس واليونان والرومان وغيرهم من الأمم المعتدية فى التاريخ القديم ، فإن مصر لم تكن يوماً دولة احتلال أو اعتداء.

لقد سجل ملوك مصر المحاربين العظام خلال عهد إمبراطوريتها رسالة خالدة لخلفائهم من ملوك مصر وللأجيال القادمة من أبناء أمتنا ، تتمثل فى أنه ليس هناك ما هو أسمى أو أعظم من الحفاظ على حدود هذه الأمة ، ففى كل انتصار عظيم حققوه على الغزاة أو الطامعين أو الحاقدين على مصر من الشعوب الأجنبية المختلفة ، حرصوا كل الحرص فى نصوصهم – المسجلة على جدران معابدهم أو لوحات انتصاراتهم أو بردياتهم الشهيرة – على افتخارهم الشديد بحماية حدود مصر ، والعمل على توسيع رقعتها ، واعتبروا أن ذلك العمل الجليل والمقدس هو من أسمى واجباتهم تجاه أمتهم وشعبهم ، بل صار عقيدة دينية راسخة ومتأصلة فى الوجدان المصرى ، فكان أسمى ما يصور به ملوك عصر الإمبراطورية المحاربين على جدران المعابد المصرية مناظر قمعهم للأسرى الأجانب من الأسيويين والكوشيين والليبيين بعد تحقيق النصر عليهم فى المعارك أمام المعبودات المصرية التى خاضوا القتال تحت رايتها ، وقد صورت هذه المعبودات – وعلى وجه الخصوص آمون رع إله طيبة والدولة الرسمى – وهى تمنحهم سيف النصر ، وتلقى عليهم كلمات المديح والتبجيل لقيامهم بدورهم العظيم فى حماية حدود مصر المقدسة .. وكأن هذه المناظر المخلدة عبر مئات السنين على جدران المعابد المصرية فى عصر الإمبراطورية رسالة تاريخية خالدة للأجيال القادمة من المصريين الذين سيقدر لهم أن يحملوا راية الكفاح والنضال لهذه الأمة من جديد !

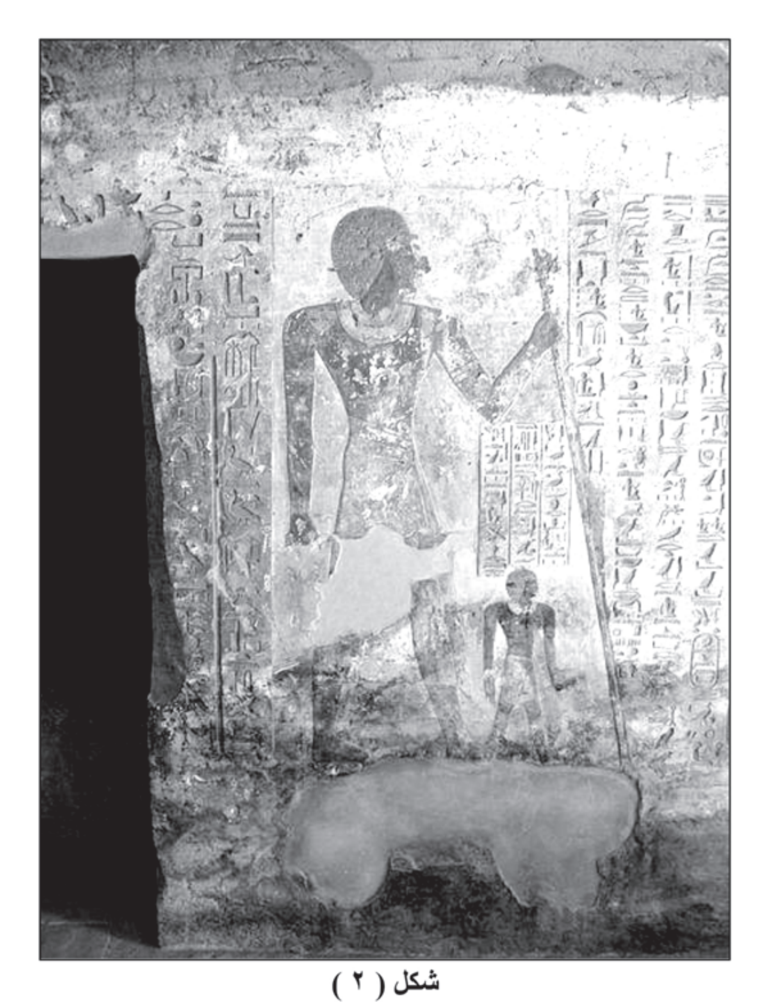
* * * * *

الأشكال والخرائط



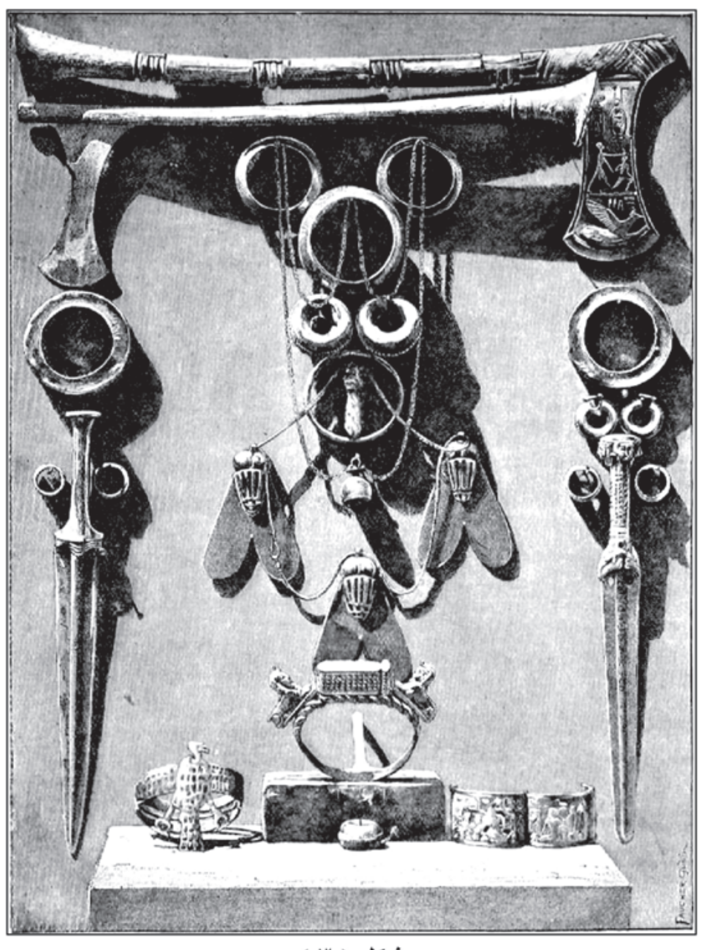
شكل (١)

لوحة الملك « كامس » المعروفة بلوحة الكرنك ـ متحف الأقصر



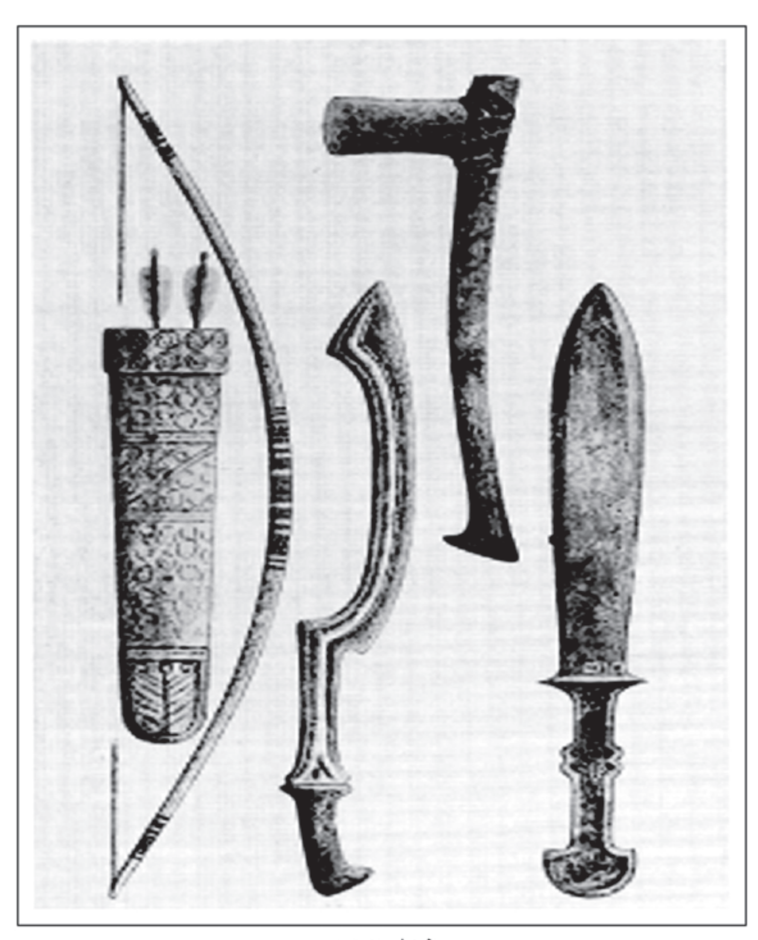
شكل (٢)

القائد العسكرى " أحمس بن إبانا " كما صور على جدران مقبرته بالكاب



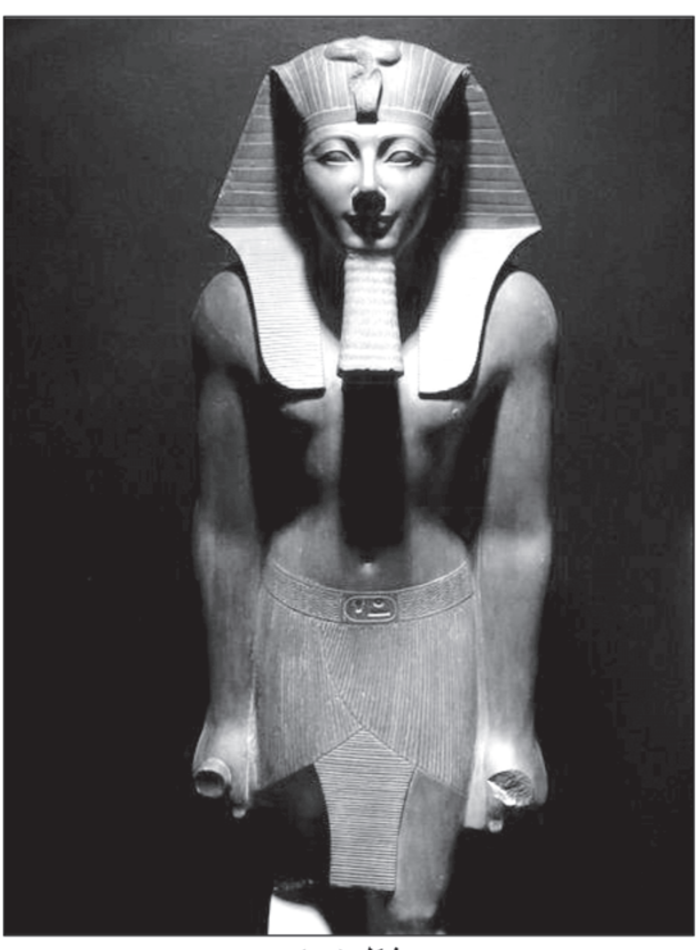
شكل (٣)

جانب من الأسلحة والأنواط العسكرية التى استخدمها المصريون فى حربهم ضد الهكسوس والتى كشف عنها فى مقبرة الملكة « إعح حتب » والدة الملكين « كامس » و« أحمس الأول » بدراع أبو النجا بطيبة – المتحف المصرى بالقاهرة



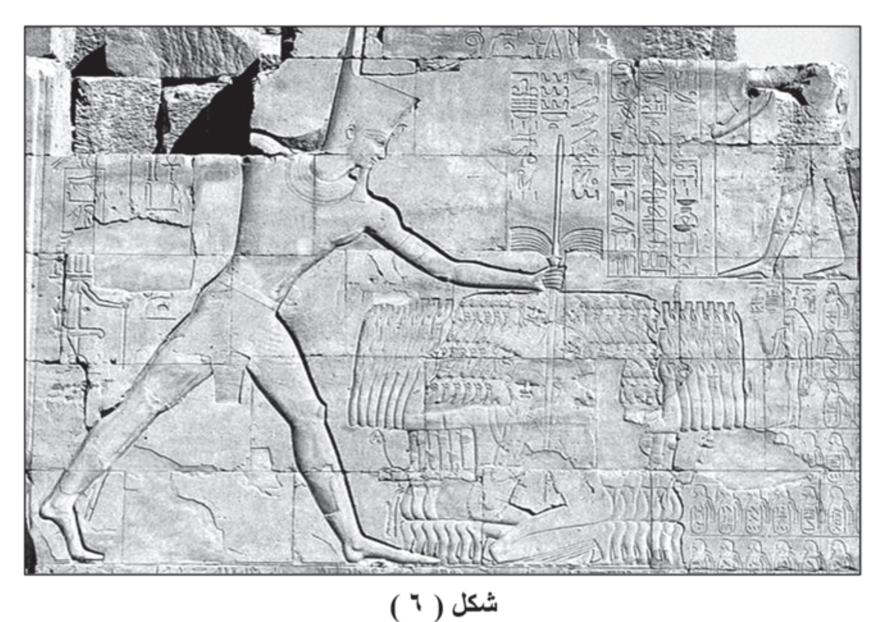
شكل (٤)

مجموعة من أسلحة القتال التى أستخدمها المصريون خلال عصر الإمبراطورية



شكل (٥)

الفرعون المحارب العظيم « تحوتمس الثالث » المؤسس الحقيقى للإمبراطورية المصرية فى الشرق الأدنى القديم وصاحب الفتوحات والانتصارات العظيمة ـ متحف الأقصر



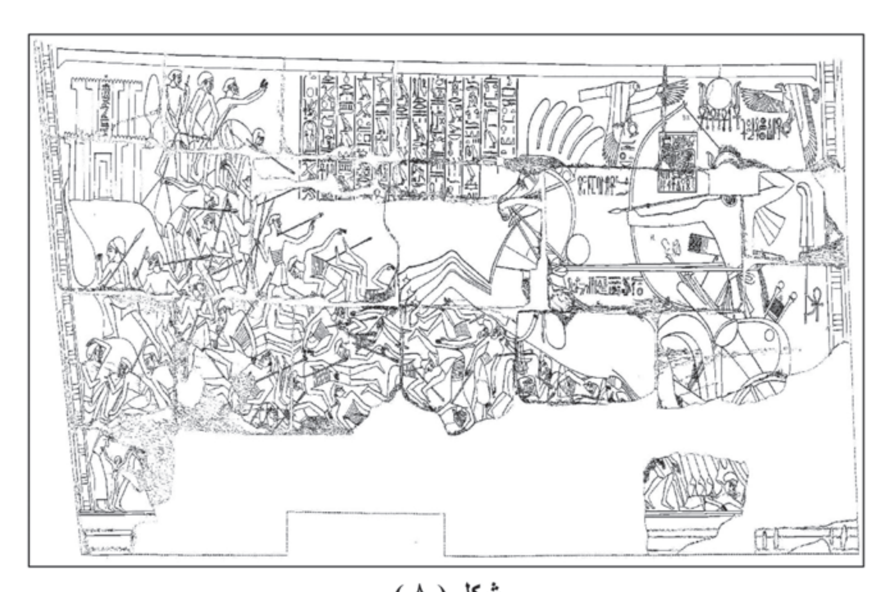
شكل (٦)

الفرعون المحارب « تحوتمس الثالث » يقوم بقمع الأسرى الأسيويين
أمام معبودات طيبة – الصرح السابع بمعبد الكرنك



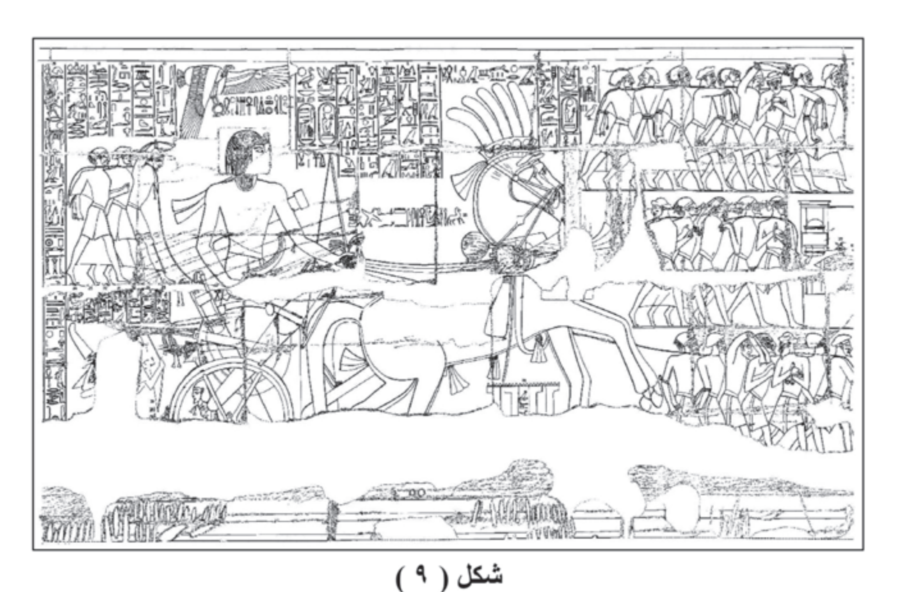
شكل (٧)

لوحة تدريب الملك « أمنحتب الثانى » التى كشف عنها بمعبد الكرنك – متحف الأقصر



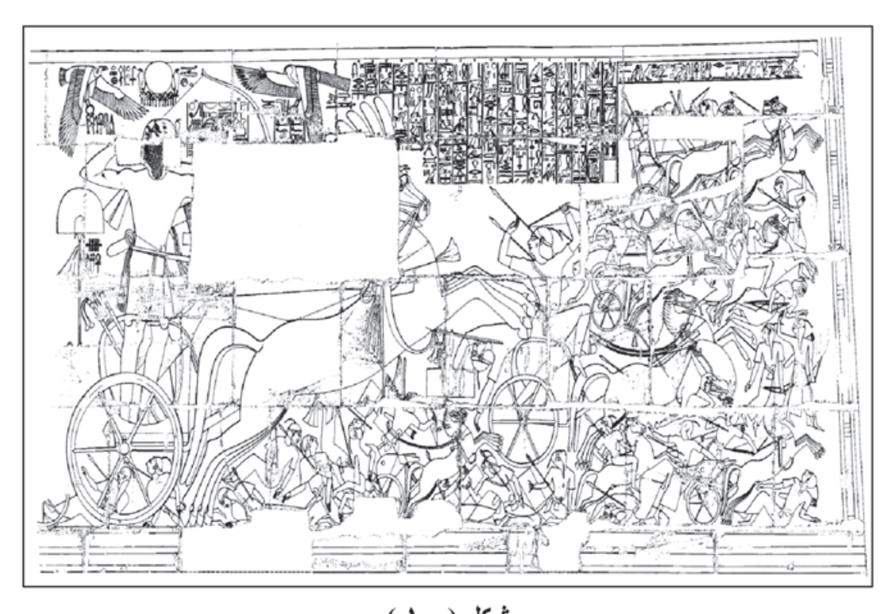
شكل (٨)

الملك « سيتى الأول » يقود هجوم الجيش المصرى على بدو الشاسو بالقرب من إحدى المدن الكنعانية – معبد الكرنك



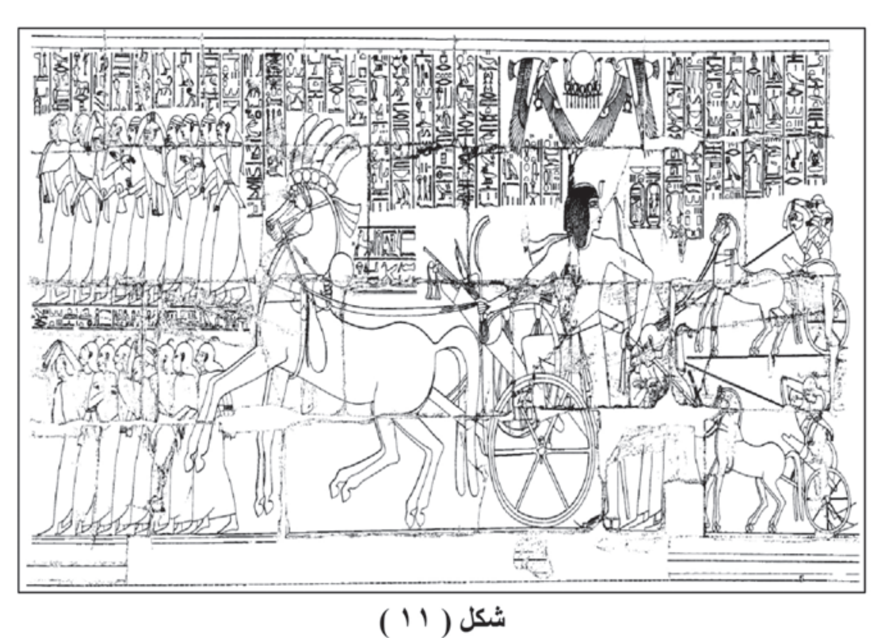
شكل (٩)

الملك « سيتى الأول » عائدا بالأسرى من بدو الشاسو إلى الحدود المصرية عند قلعة ثارو بعد حملته الحربية الأولى على كنعان – معبد الكرنك



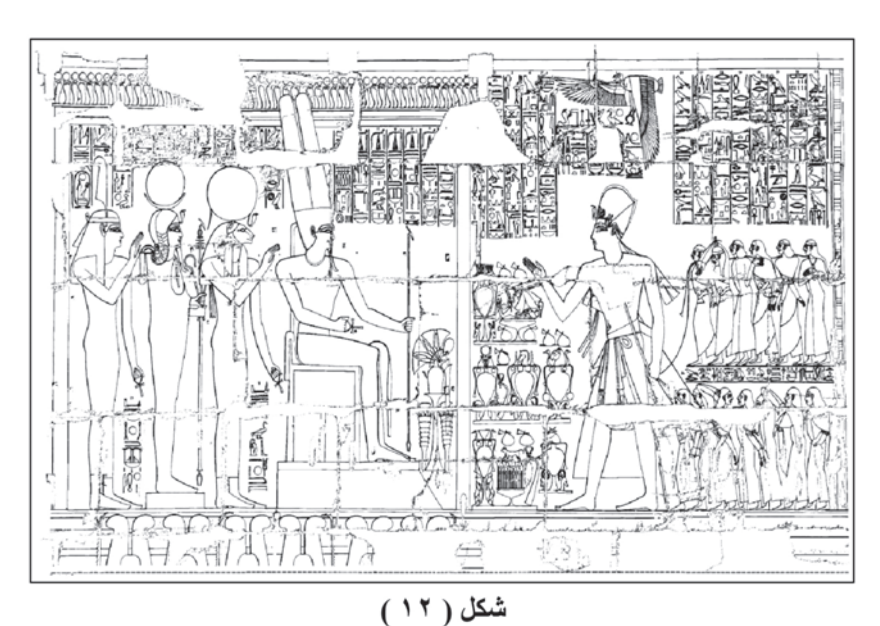
شكل (١٠)

الملك « سيتى الأول » يقود الجيش المصرى لقتال الحيثيين – معبد الكرنك



شكل (١١)

الملك « سيتى الأول » عائدا بالأسرى الحيثيين إلى مصر – معبد الكرنك



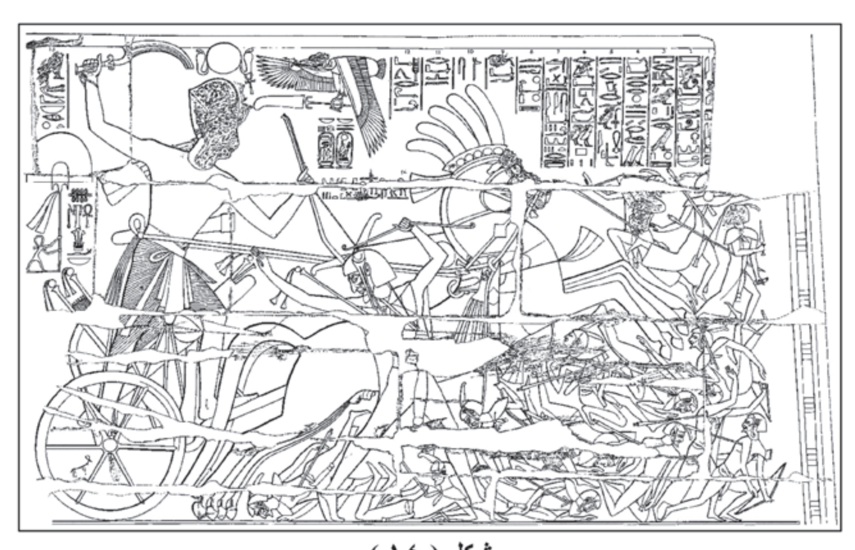
شكل (١٢)

الملك « سيتى الأول » يقدم الأسرى الحيثيين والأسلاب إلى ثالوث طيبة
آمون وموت وخونسو والمعبودة ماعت – معبد الكرنك



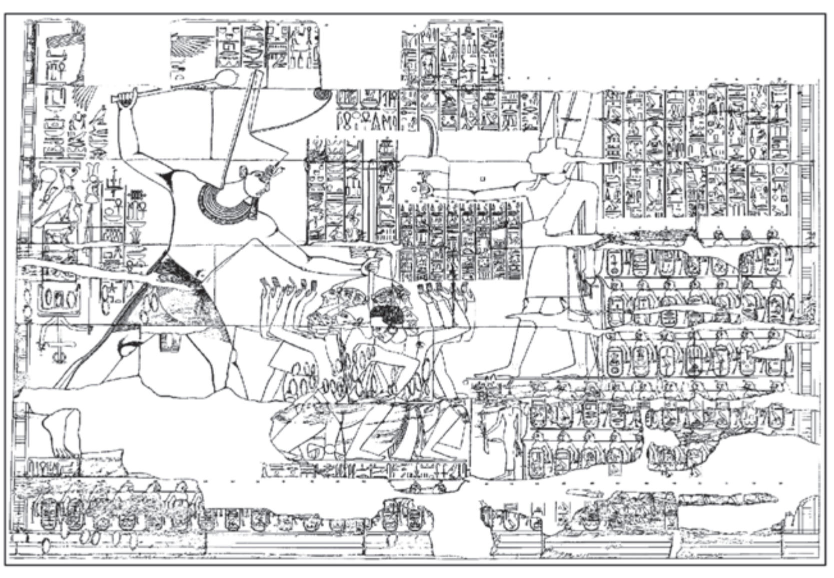
شكل (١٣)

أسرى الملك « سيتى الأول » من الحيثيين – معبد الكرنك



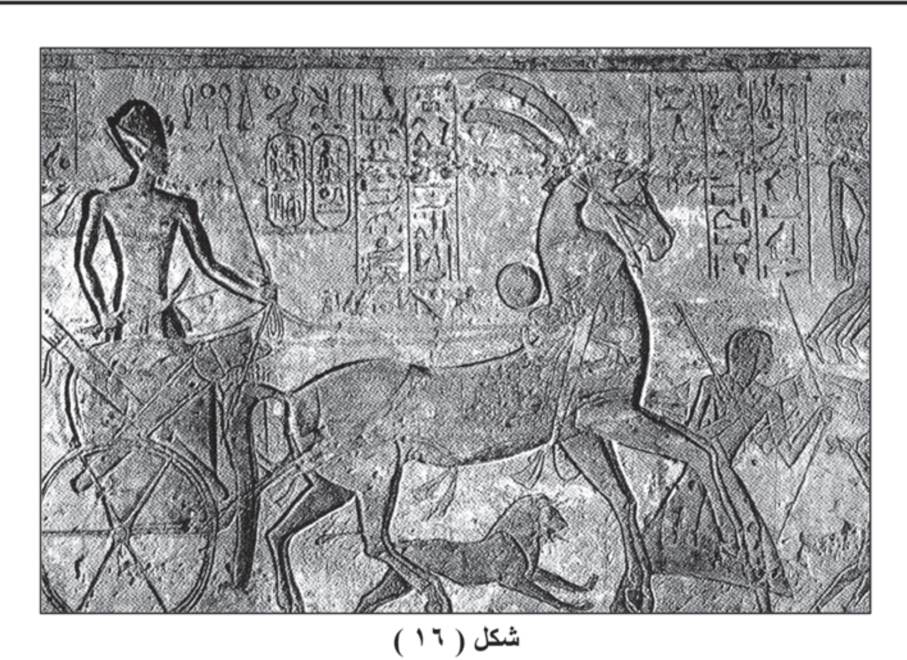
شكل (١٤)

الفرعون المحارب « سيتى الأول » فوق مركبته الحربية يقود الجيش المصرى فى معاركه مع الليبيين ـ معبد الكرنك



شكل (١٥)

الملك « سيتى الأول » يقوم بقمع أعداء مصر من الأسيويين والنوبيين والليبيين أمام المعبود آمون رع الذى يقدم له سيف النصر ـ معبد الكرنك



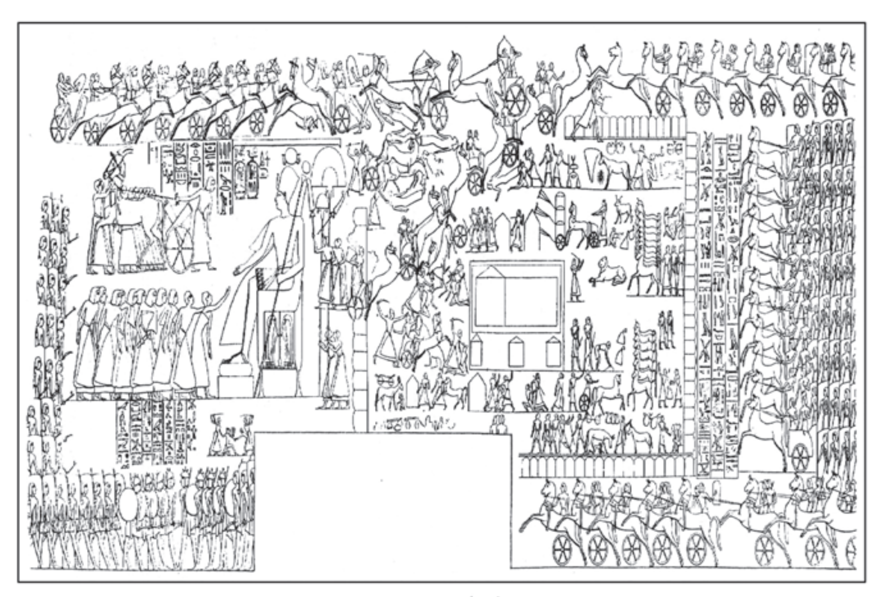
شكل (١٦)

الملك « رمسيس الثانى » فوق مركبته الحربية عائدا من إحدى حملاته الحربية على النوبة مصحوبا بأحد جنود الحرس الملكى – معبد أبوسمبل الكبير



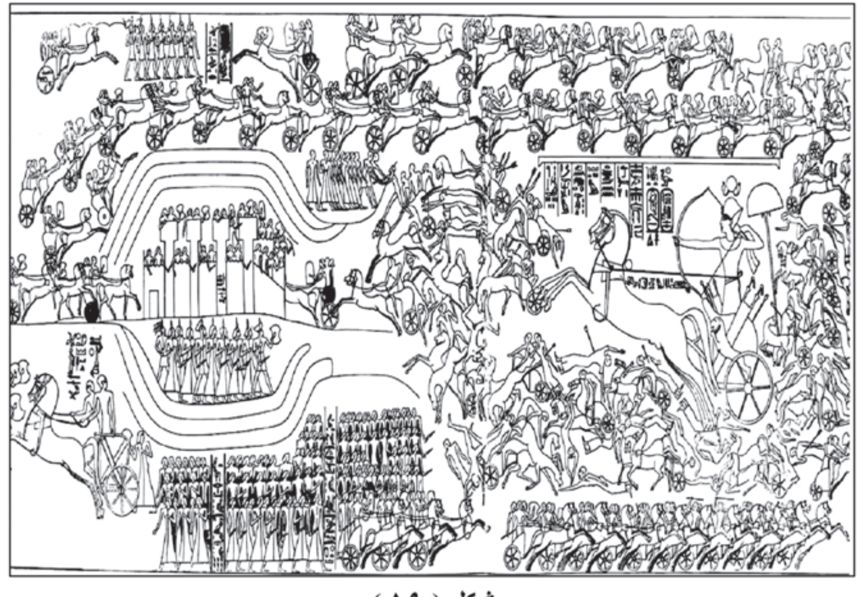
شكل (١٧)

الملك « رمسيس الثانى » يطعن بحربته أحد القادة الليبيين – معبد أبوسمبل الكبير



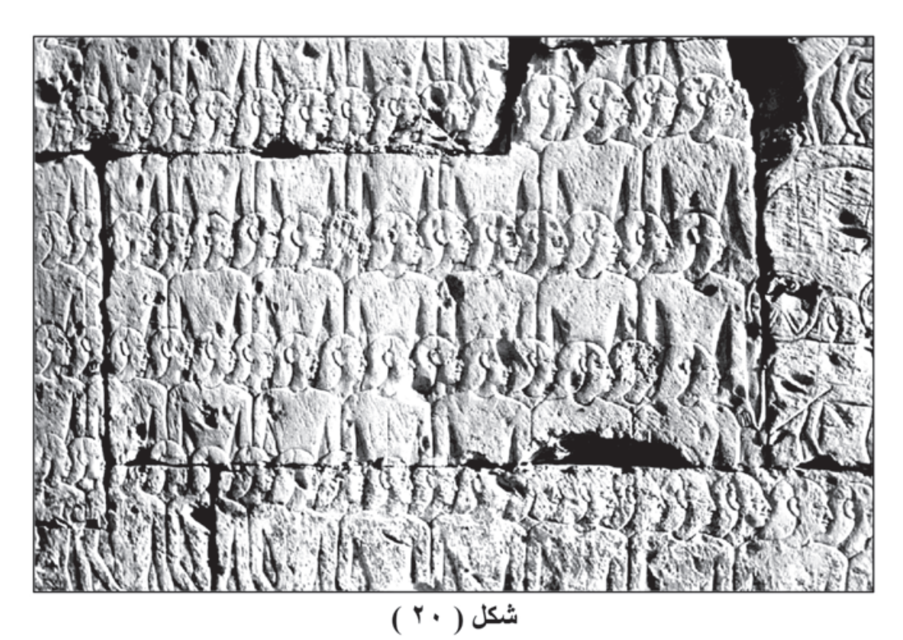
شكل (١٨)

منظر عام لمعركة قادش – معبد الأقصر



شكل (١٩)

منظر عام لمعركة قادش – معبد الأقصر



شكل (٢٠)

القوات الحربية الحيثية فى معركة قادش – معبد الملك « رمسيس الثانى » بأبيدوس



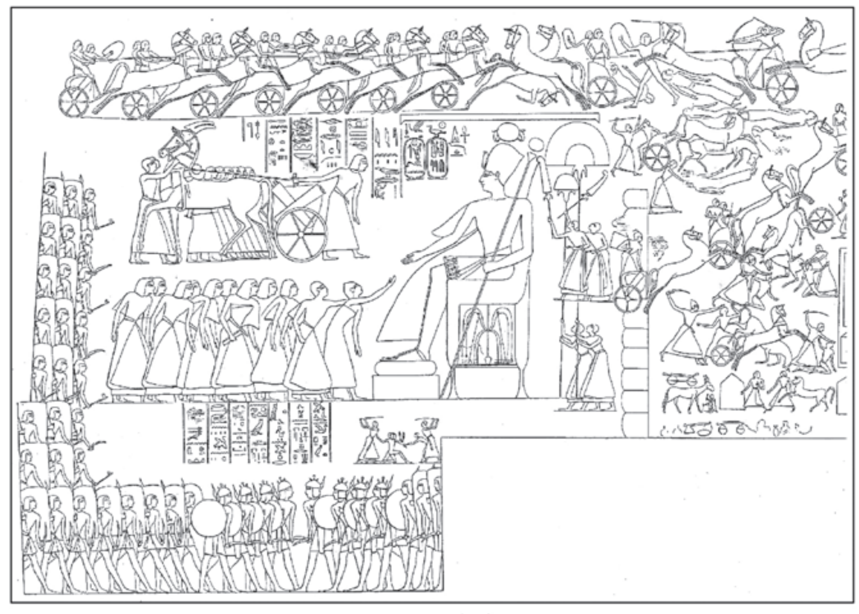
شكل (٢١)

هجوم المركبات الحربية الحيثية فى معركة قادش – معبد الرمسيوم



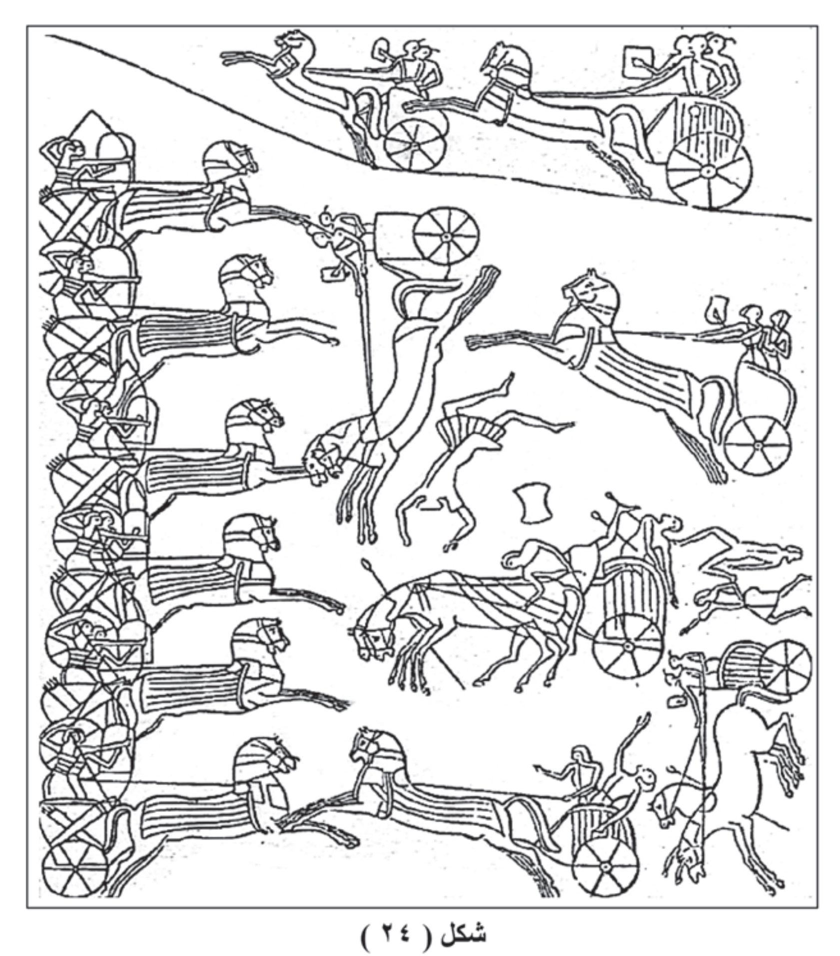
شكل (٢٢)

الملك « رمسيس الثانى » يعلم بنبأ الهجوم الحيثى قبل بداية معركة قادش – معبد أبوسمبل الكبير



شكل (٢٣)

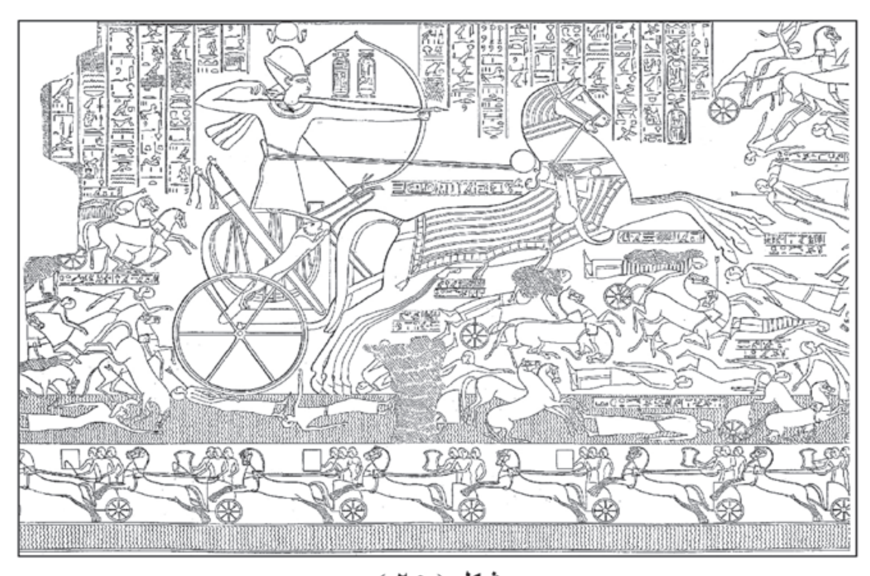
الملك « رمسيس الثانى » يعلم بنبأ الهجوم الحيثى قبل بداية معركة قادش – معبد الأقصر



شكل (٢٤)

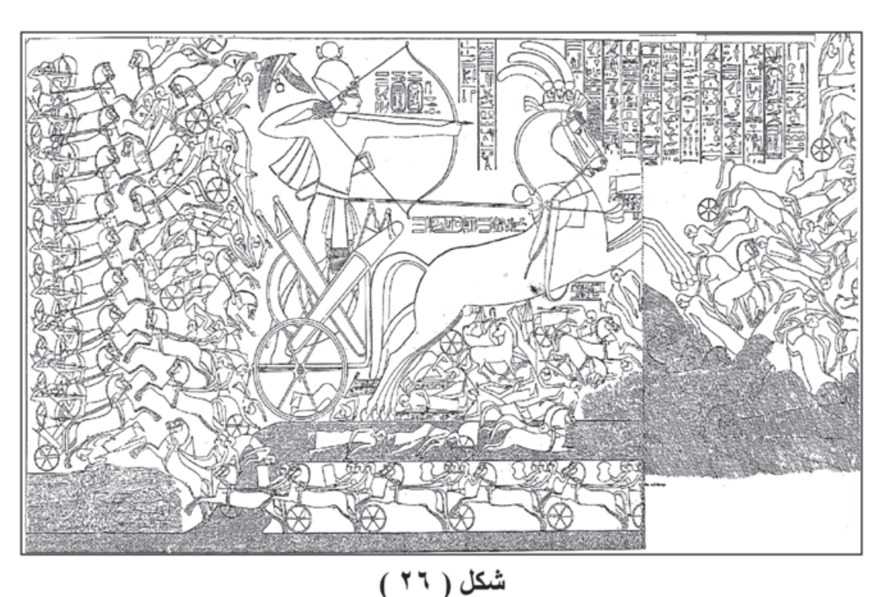
اشتباك المركبات الحربية المصرية مع المركبات الحربية الحيثية

فى معركة قادش – معبد أبوسمبل الكبير



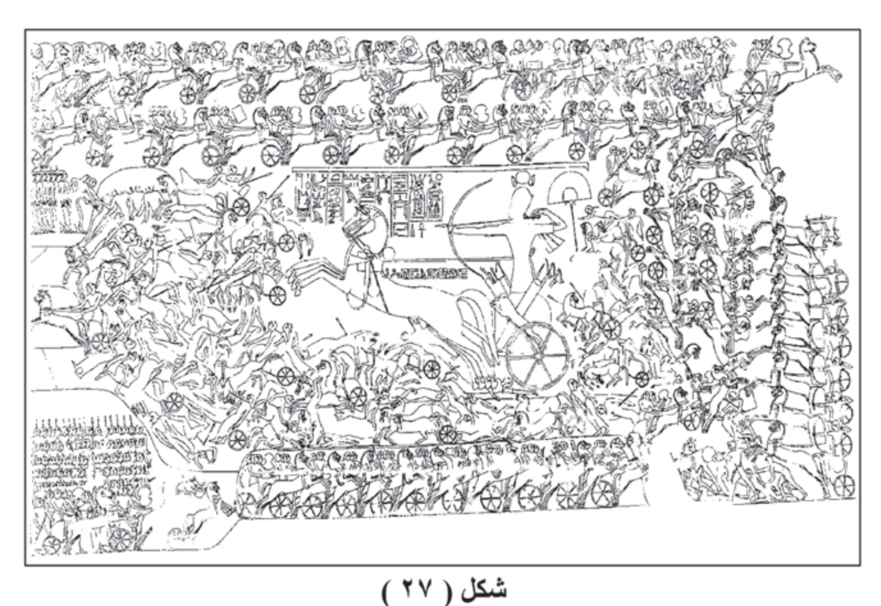
شكل (٢٥)

الملك « رمسيس الثانى » فوق مركبته الحربية يسحق أعدائه من الحيثيين عبر نهر العاصى فى معركة قادش – معبد الرمسيوم



شكل (٢٦)

الملك « رمسيس الثانى » فوق مركبته الحربية يقود قوات المركبات الحربية المصرية للاشتباك مع الحيثيين فى معركة قادش – معبد الرمسيوم



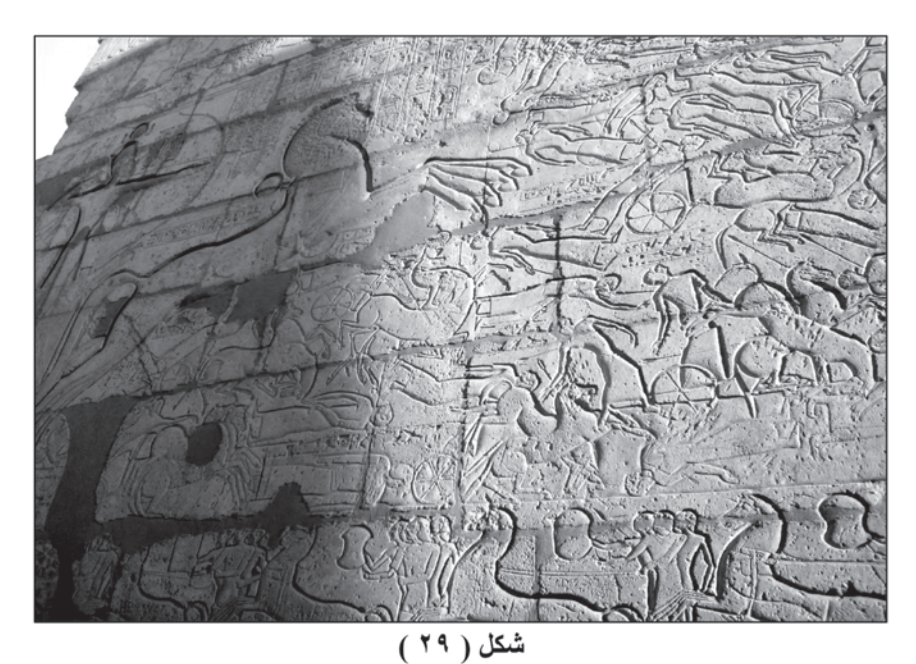
شكل (٢٧)

الملك « رمسيس الثانى » فوق مركبته الحربية يقود قوات المركبات الحربية المصرية للاشتباك مع المركبات الحربية الحيثية فى معركة قادش – معبد الأقصر



شكل (٢٨)

تل نبى مند (موقع مدينة قادش القديمة)



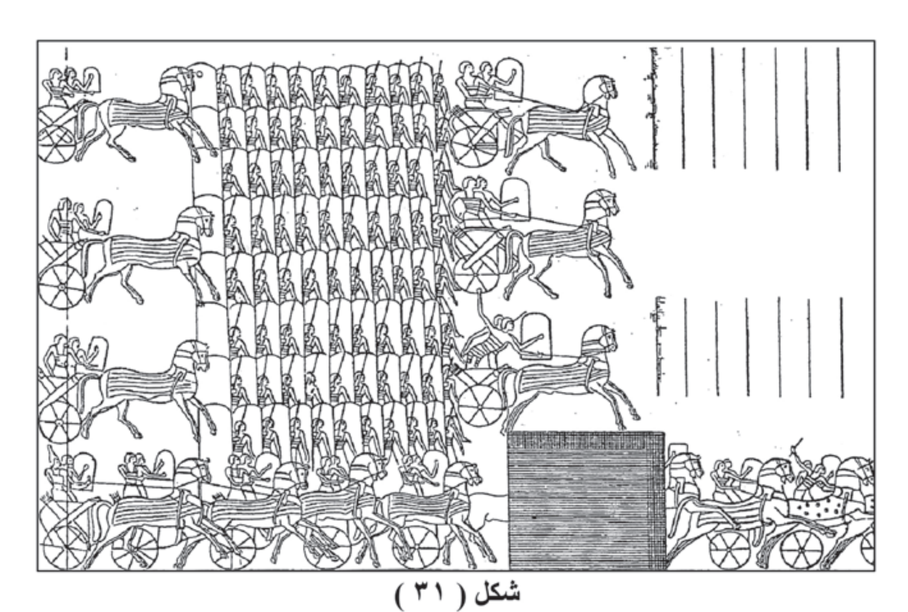
شكل (٢٩)

الهجوم المصرى المضاد عبر نهر العاصى فى معركة قادش – معبد الرمسيوم



شكل (٣٠)

سقوط الحيثيين فى معركة قادش – معبد الرمسيوم



شكل (٣١)

وصول قوات النعرين إلى أرض المعركة من آمورو – معبد أبوسمبل الكبير



شكل (٣٢)

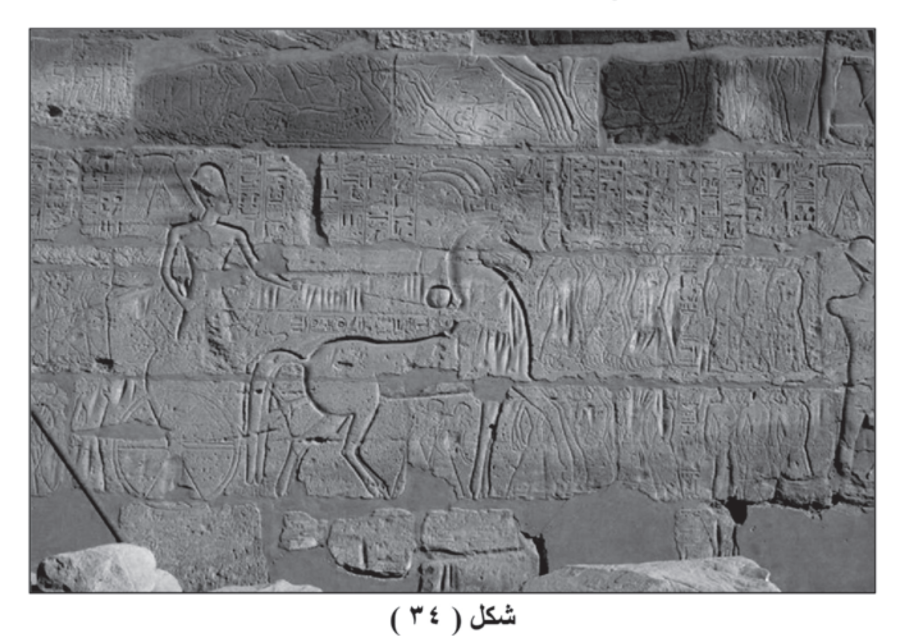
الملك " رمسيس الثانى " فوق مركبته الحربية يسحق أعدائه من الحيثيين

عبر نهر العاصى فى معركة قادش – معبد الرمسيوم



شكل (٣٣)

الملك « رمسيس الثانى » فوق مركبته الحربية يقود هجوم المركبات الحربية المصرية على إحدى المدن السورية – معبد أبوسمبل الكبير



شكل (٣٤)

الملك « رمسيس الثانى » فوق مركبته الحربية عائدا بالأسرى الأسيويين بعد إحدى حملاته السورية – معبد الكرنك



شكل (٣٥)

مناظر استيلاء الجيش المصرى على عدد من المدن السورية خلال حملات الملك " رمسيس الثانى " التى تلت معركة قادش – معبد الرمسيوم



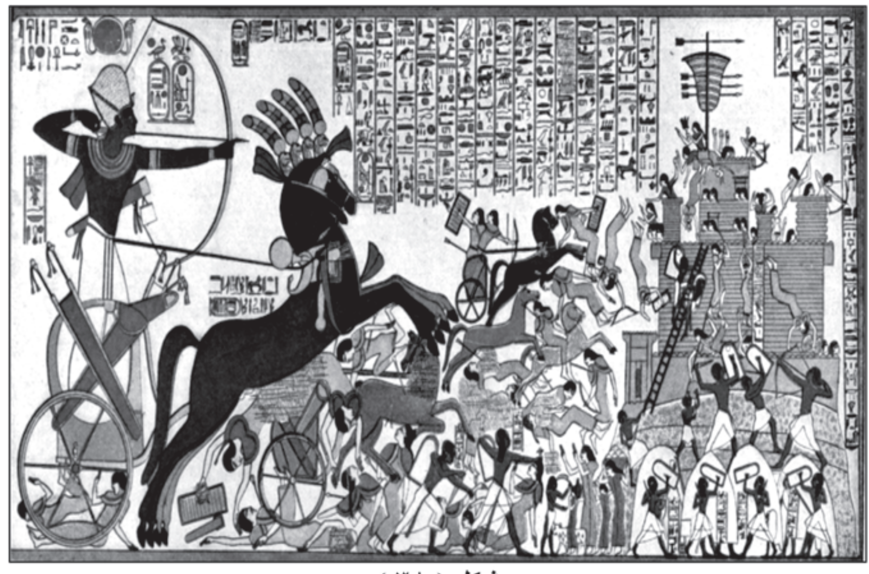
شكل (٣٦)

أحد ضباط الجيش المصرى يقود مجموعة من الأسرى السوريين من خلال إحدى الحملات السورية للملك " رمسيس الثانى " – معبد الرمسيوم



شكل (٣٧)

هجوم الجيش المصرى على قلعة دابور الحيثية بقيادة الملك « رمسيس الثانى » – معبد الرمسيوم



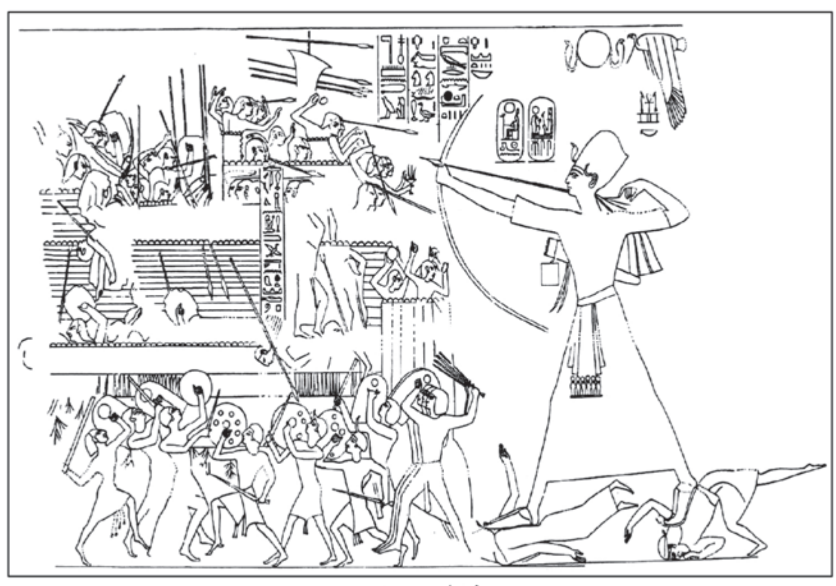
شكل (٣٨)

هجوم الجيش المصرى على قلعة دابور الحيثية بقيادة الملك « رمسيس الثانى » – معبد الرمسيوم



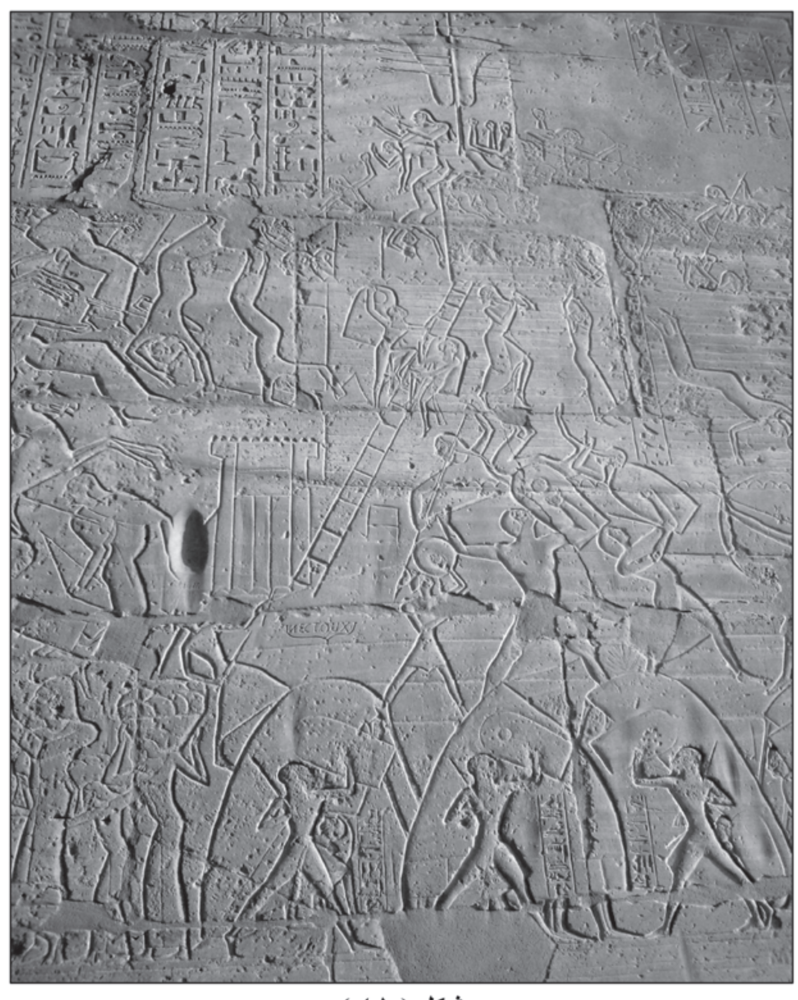
شكل (٣٩)

الأمراء من أبناء الملك " رمسيس الثانى " يشاركون فى قتل رؤساء الأعداء أثناء حصار مدينة دابور الحيثية – معبد الرمسيوم



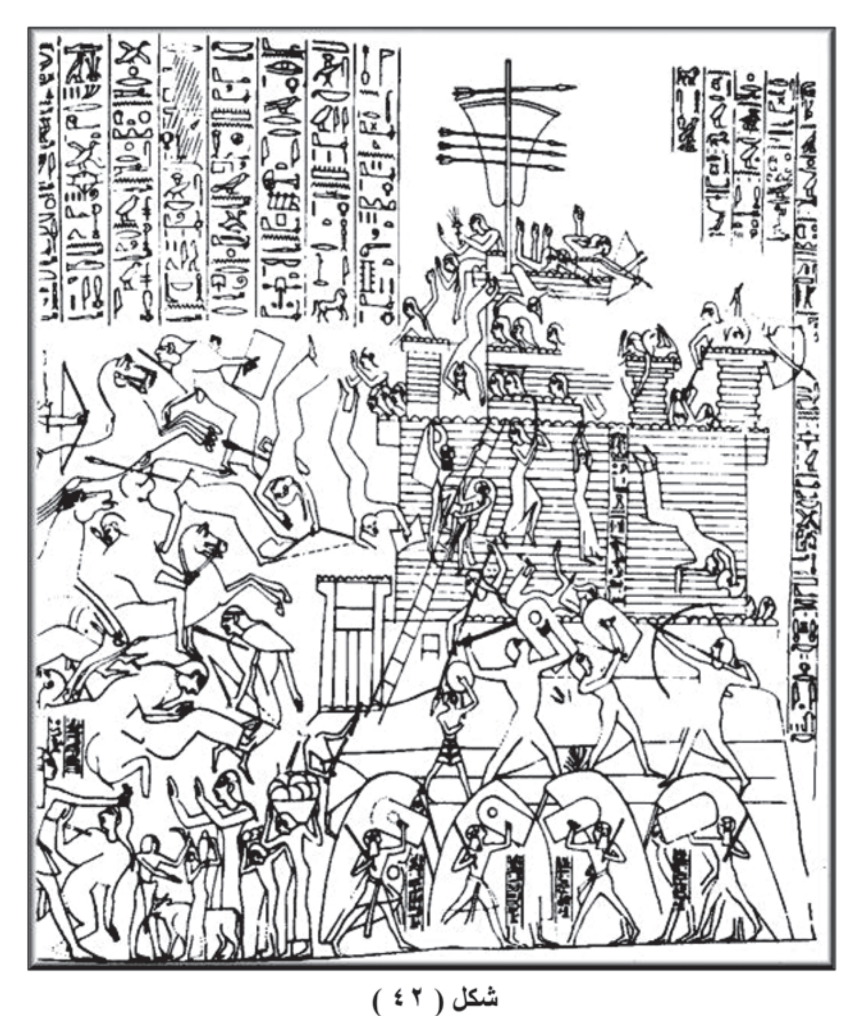
شكل (٤٠)

الملك " رمسيس الثانى " يقود الجيش المصرى فى حصار مدينة وقلعة دابور الحيثية – معبد الأقصر



شكل (٤١)

حصار الجيش المصرى لقلعة دابور الحيثية – معبد الرمسيوم



شكل (٤٢)

حصار الجيش المصرى لقلعة دابور الحيثية بقيادة الملك " رمسيس الثانى " – معبد الرمسيوم



شكل (٤٣)

الملك « رمسيس الثانى » يقوم بقمع أحد الأسرى النوبيين – معبد أبوسمبل الكبير



شكل (٤٤)

الملك « رمسيس الثانى » يقوم بقمع أعداء مصر من الأسيويين والنوبيين والليبيين أمام المعبود رع حور آختى الذى يقدم له سيف النصر – معبد أبوسمبل الكبير



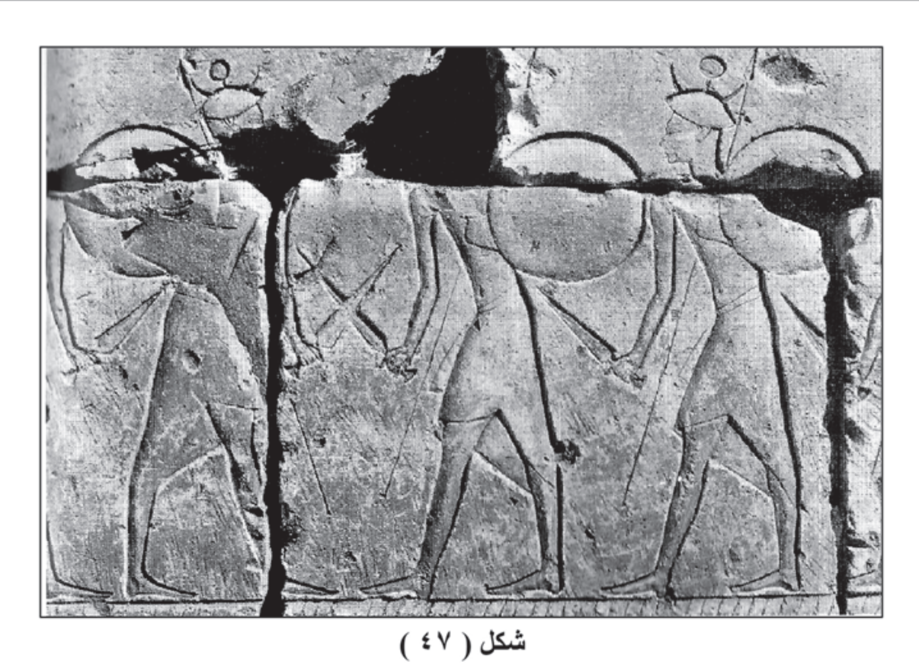
شكل (٤٥)

قائمة بالمدن والبلاد السورية والكنعانية التى أخضعها « رمسيس الثانى » فى حملاته الحربية – معبد الملك « رمسيس الثانى » بأبيدوس



شكل (٤٦)

الملك « رمسيس الثانى » ممسكا بالأسرى من أعداء مصر التقليديين الأسيويين والنوبيين والليبيين – المتحف المصرى بالقاهرة



شكل (٤٧)

الجنود الشردان الذين كانوا يمثلون جانبا مهما من حرس الملك « رمسيس الثانى »
فى معركة قادش – معبد الملك « رمسيس الثانى » بأبيدوس



شكل (٤٨)

الملك « مرنبتاح » يقوم بقمع أعداء مصر من الشعوب الأجنبية المختلفة



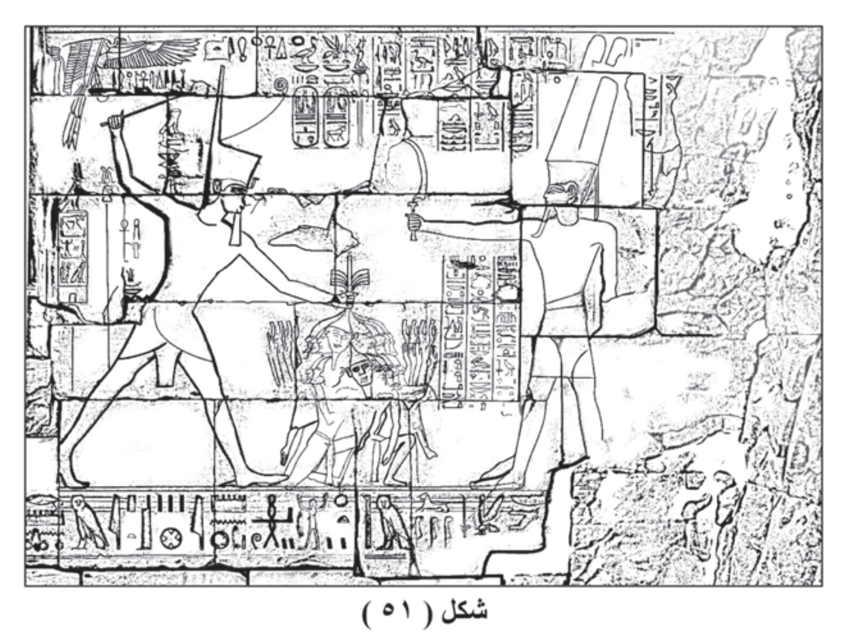
شكل (٤٩)

لوحة إنتصارات الملك « مرنبتاح » الشهيرة والمعروفة خطأ بلوحة إسرائيل – المتحف المصرى بالقاهرة



شكل (٥٠)

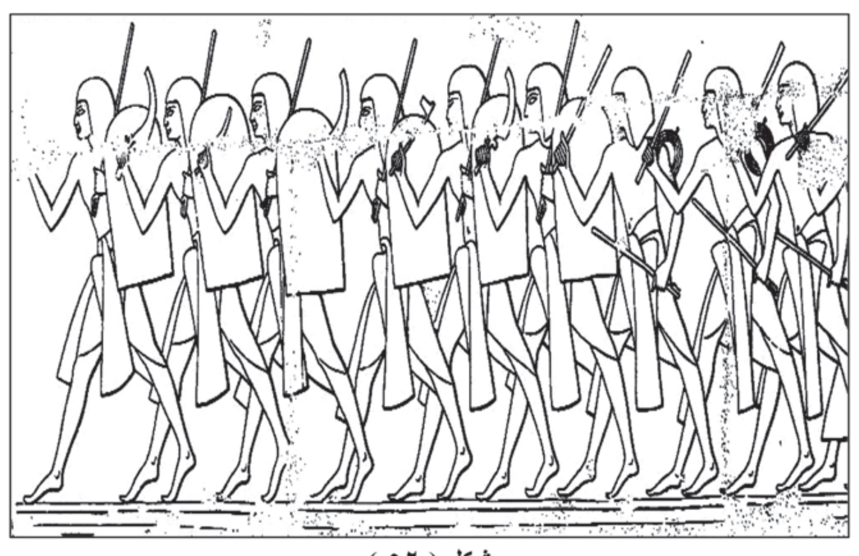
نقش الحرب الليبية الكبير الذى أقامه الملك « مرنبتاح » بالكرنك



شكل (٥١)

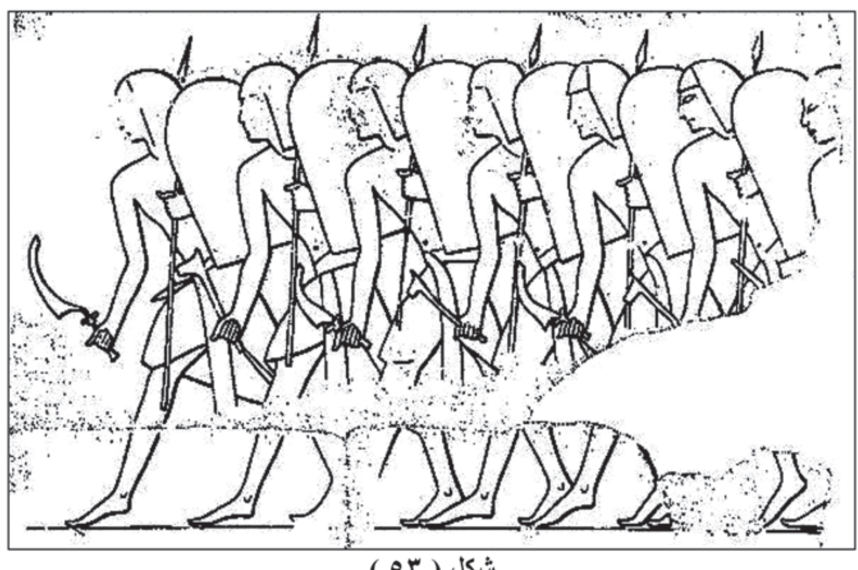
الملك « مرنبتاح » يقوم بقمع الأسرى الأجانب أمام المعبود آمون رع

الذى يقدم له سيف النصر – معبد الكرنك



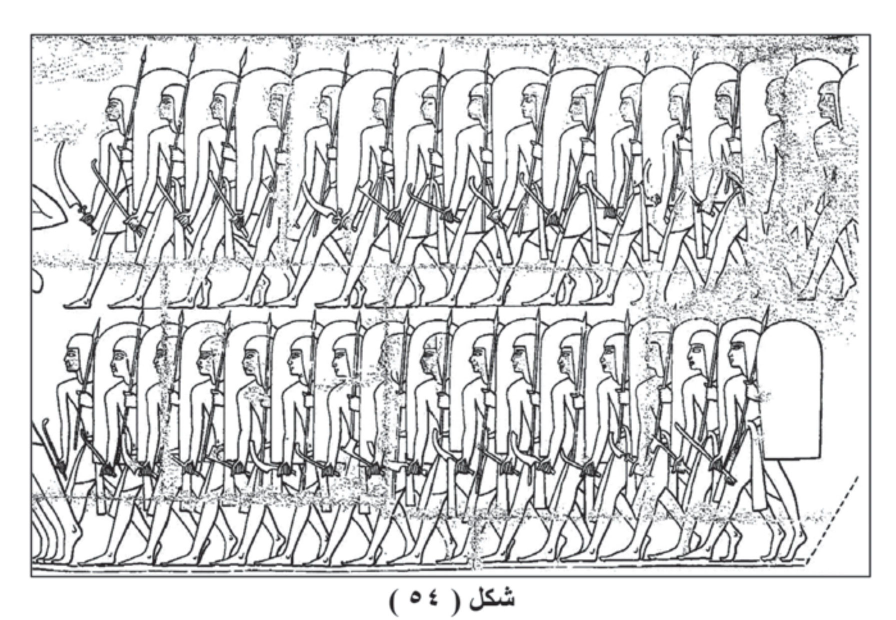
شكل (٥٢)

مجموعة من جنود مشاة الجيش المصرى المسلحين بسيف الخبش وفأس الحرب والدروع خلال عهد " رمسيس الثالث " – معبد مدينة هابو



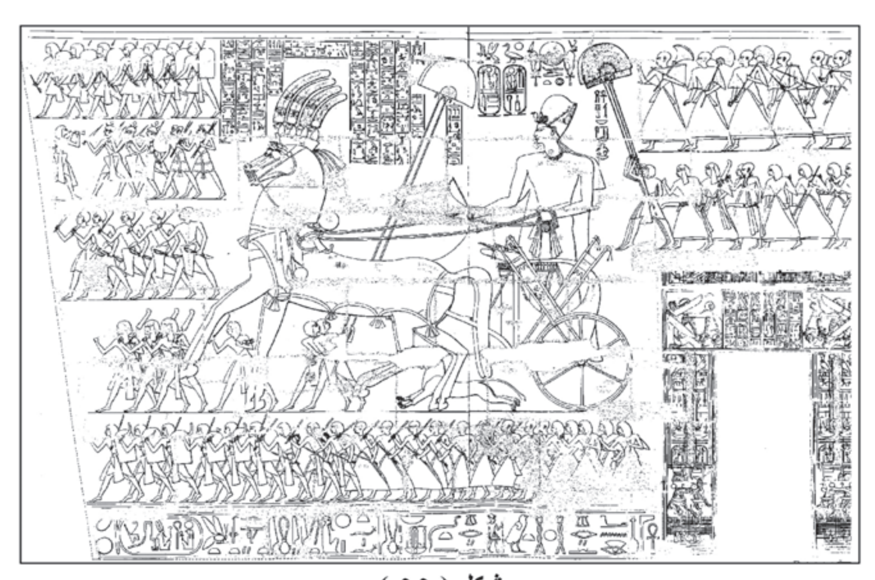
شكل (٥٣)

مجموعة من جنود مشاة الجيش المصرى المسلحين بسيف الخبش وفأس الحرب والحراب والدروع خلال عهد " رمسيس الثالث " – معبد مدينة هابو



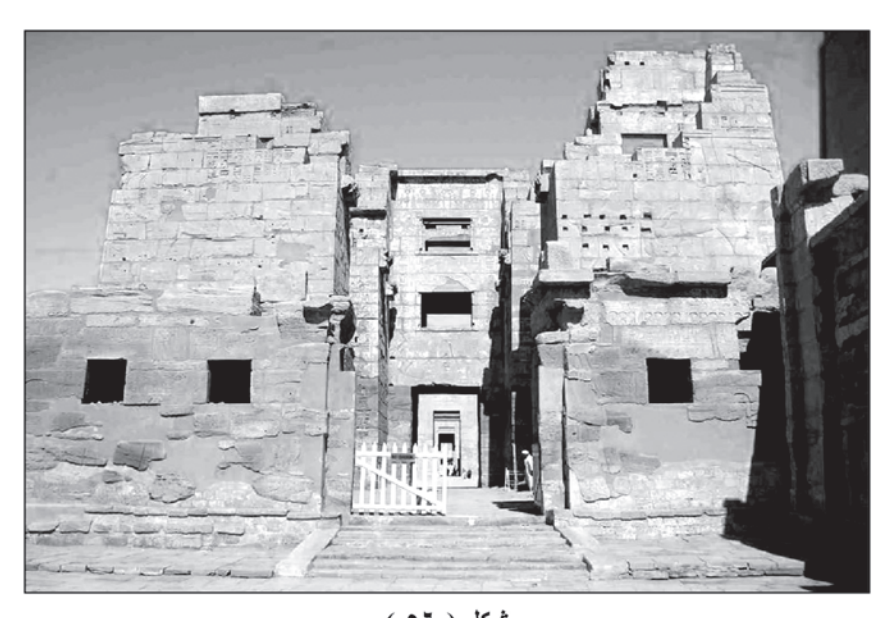
شكل (٥٤)

قوات مشاة الجيش المصرى المسلحين بسيف الخبش وفأس الحرب والحراب والدروع خلال عهد الملك « رمسيس الثالث » – معبد مدينة هابو



شكل (٥٥)

الفرعون المحارب « رمسيس الثالث » وقوات جيشه من الجنود المصريين والأجانـب – معبـد مدينـة هابـو



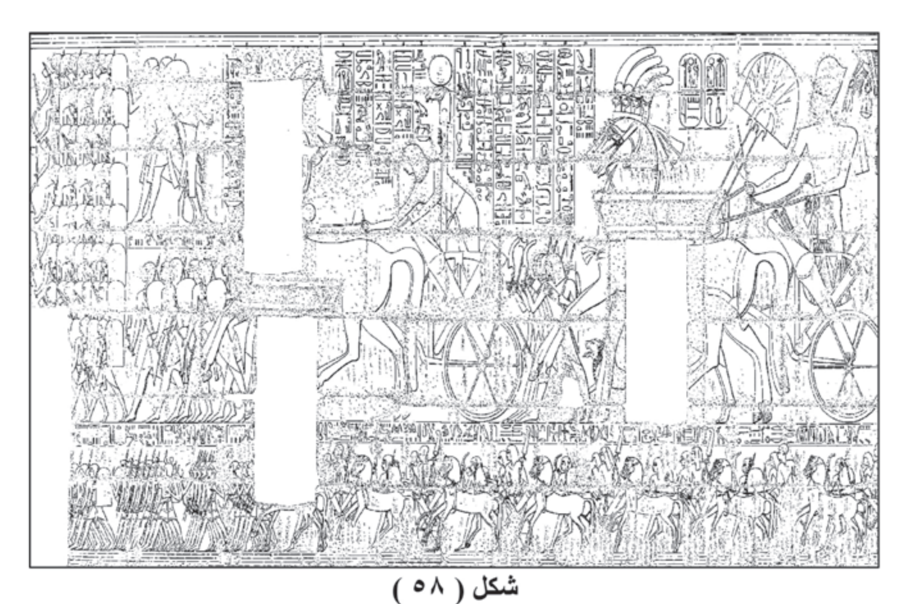
شكل (٥٦)

بوابة معبد مدينة هابو بغربى طيبة التى شيدها الملك « رمسيس الثالث » على طراز القلاع والحصون الأسيوية فى سوريا وكنعان والمعروف باسم « مجدول »



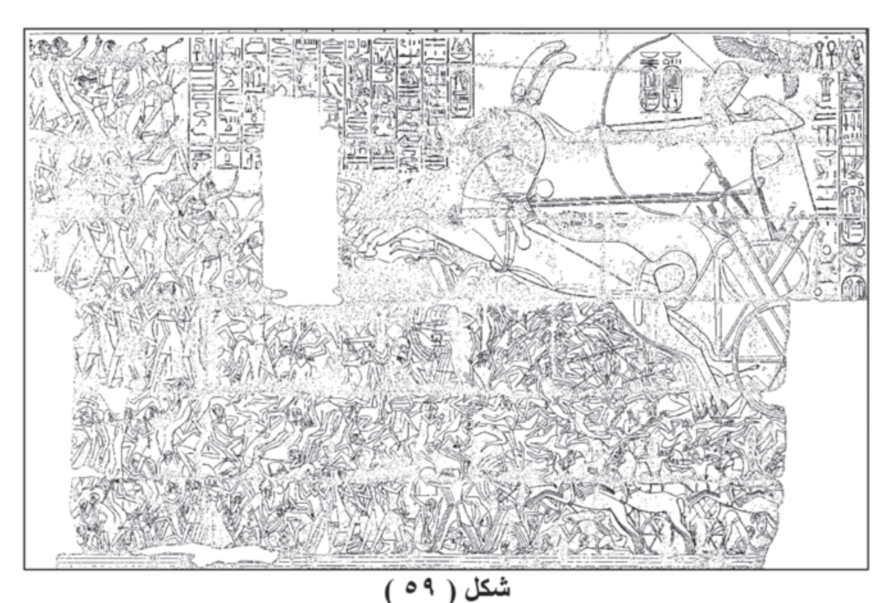
شكل (٥٧)

أسرى الملك « رمسيس الثالث » من الليبيين – معبد مدينة هابو



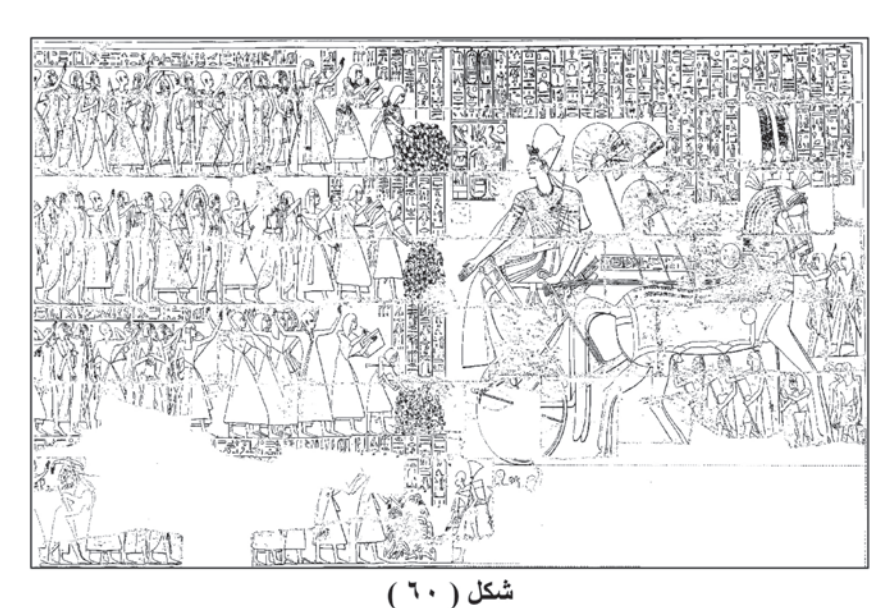
شكل (٥٨)

الملك « رمسيس الثالث » وفرق الجيش المصرى فى الطريق إلى الحرب الليبية الأولى – معبد مدينة هابو



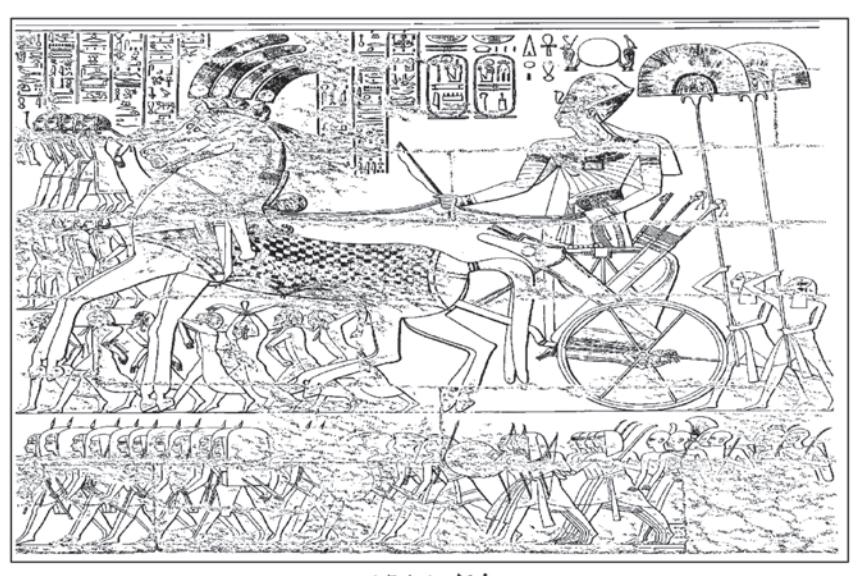
شكل (٥٩)

الملك « رمسيس الثالث » يقود الجيش المصرى لقتال الليبيين فى الحرب الليبية الأولى – معبد مدينة هابو



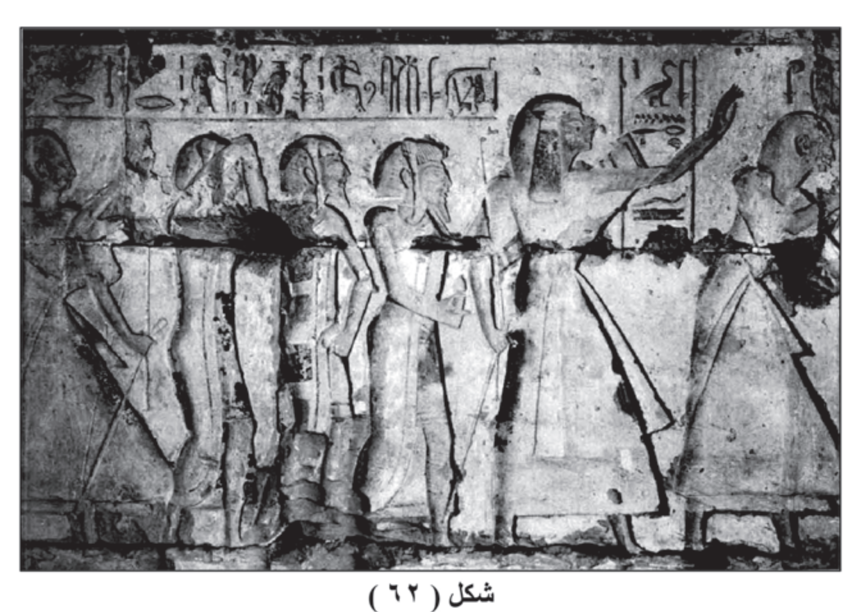
شكل (٦٠)

الملك « رمسيس الثالث » يستعرض خسائر العدو وصفوف الأسرى الليبيين عقب انتصاره عليهم فى الحرب الليبية الأولى - معبد مدينة هابو



شكل (٦١)

الملك « رمسيس الثالث » عائدا بالأسرى الليبيين عقب انتصاره فى الحرب الليبية الأولى - معبد مدينة هابو



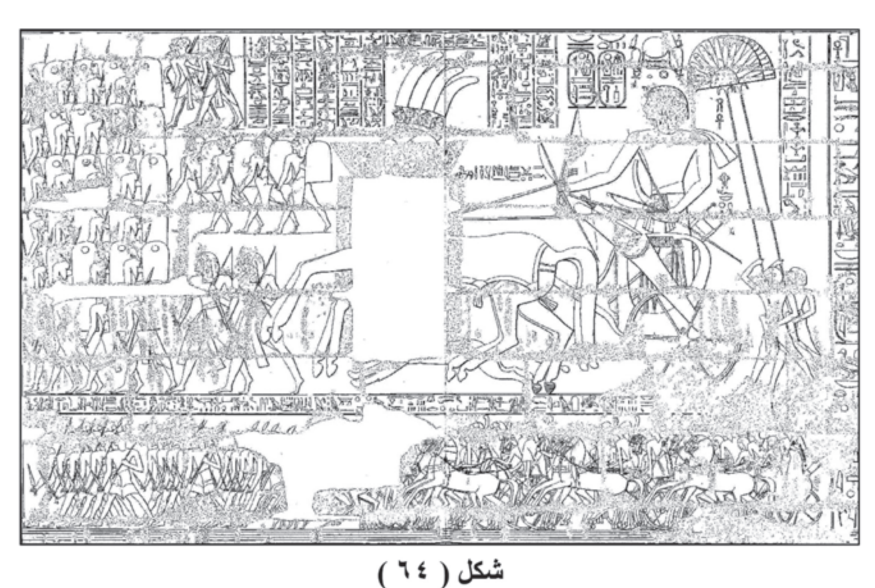
شكل (٦٢)

أحد الأمراء المصريين يقود ثلاثة من الأسرى الليبيين عقب انتصار الملك « رمسيس الثالث » عليهم فى الحرب الليبية الأولى – معبد مدينة هابو



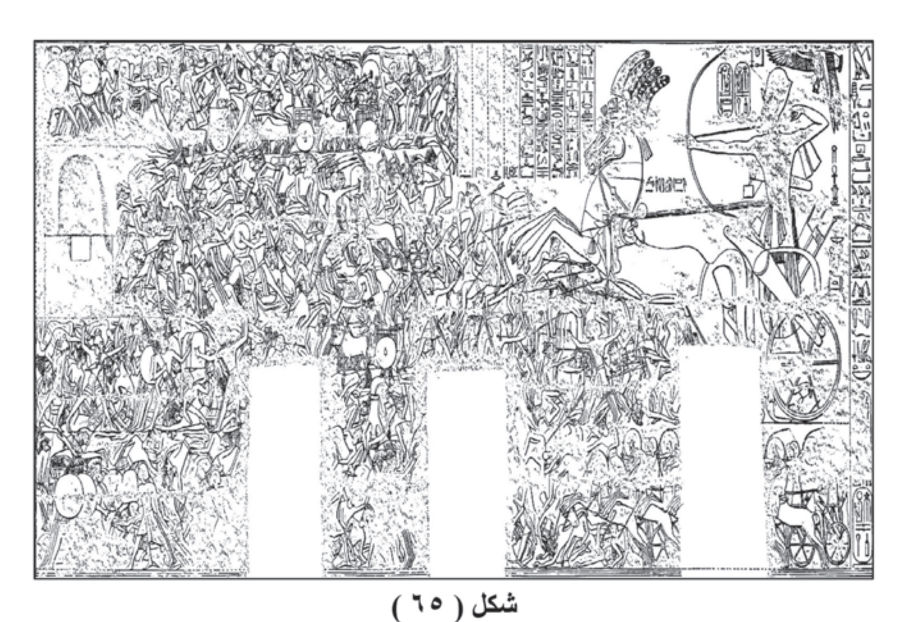
شكل (٦٣)

أحد الضباط المصريين يقود مجموعة من الأسرى الليبيين عقب انتصار الملك « رمسيس الثالث » عليهم فى الحرب الليبية الأولى – معبد مدينة هابو



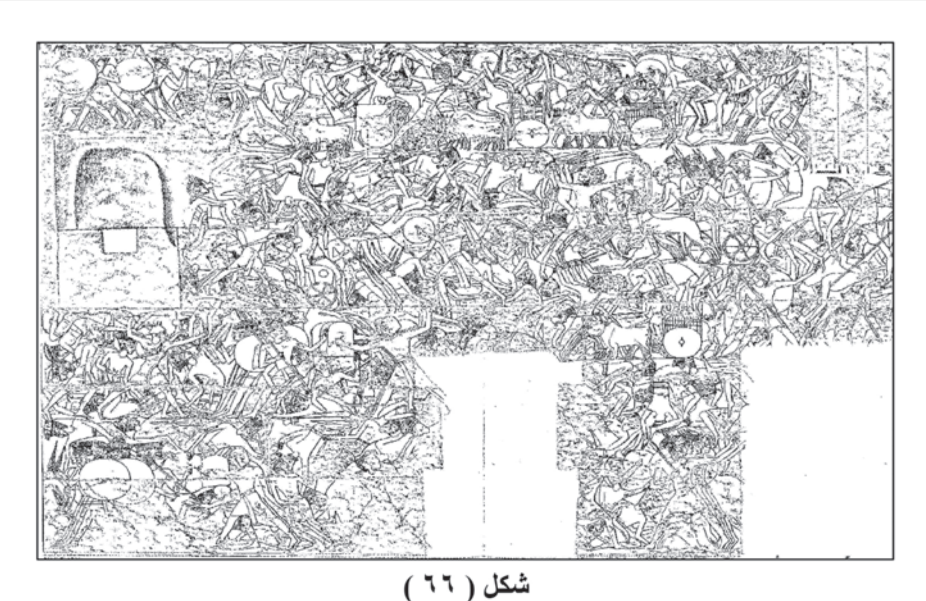
شكل (٦٤)

مسيرة الملك " رمسيس الثالث " والقوات المصرية إلى جاهى لقتال شعوب البحر – معبد مدينة هابو



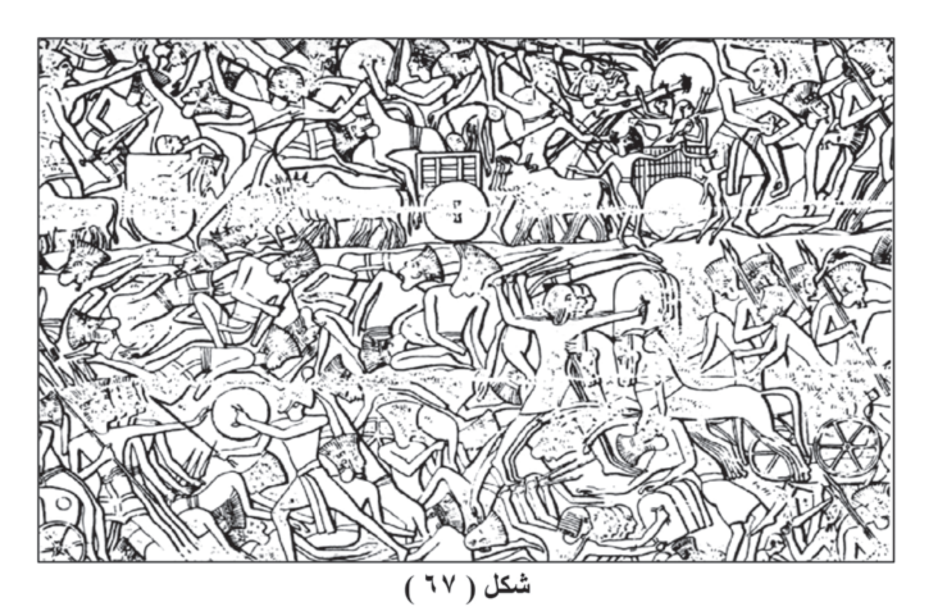
شكل (٦٥)

الملك " رمسيس الثالث " يقود الجيش المصرى فى المعركة البرية ضد شعوب البحر – معبد مدينة هابو



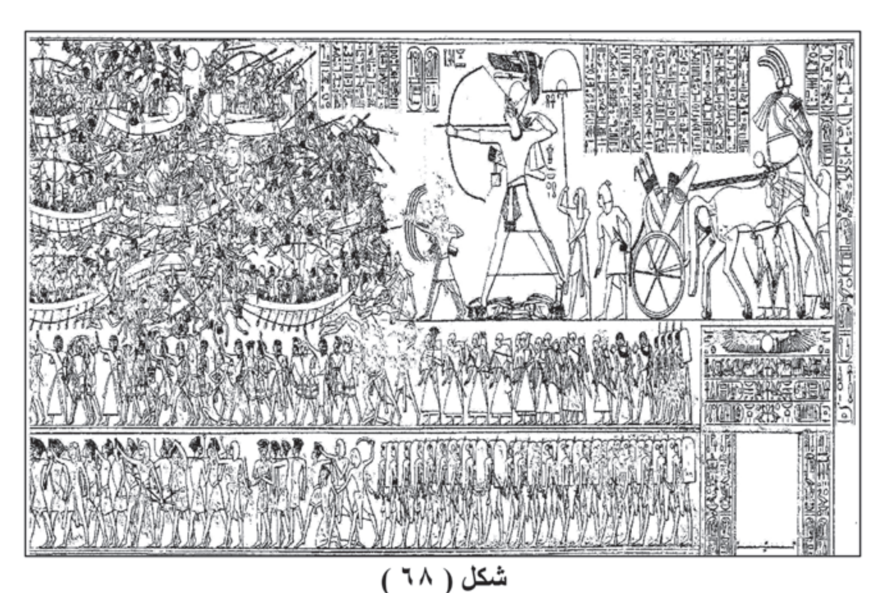
شكل (٦٦)

المعركة البرية بين الجيش المصرى وشعوب البحر فى عهد الملك " رمسيس الثالث " – معبد مدينة هابو



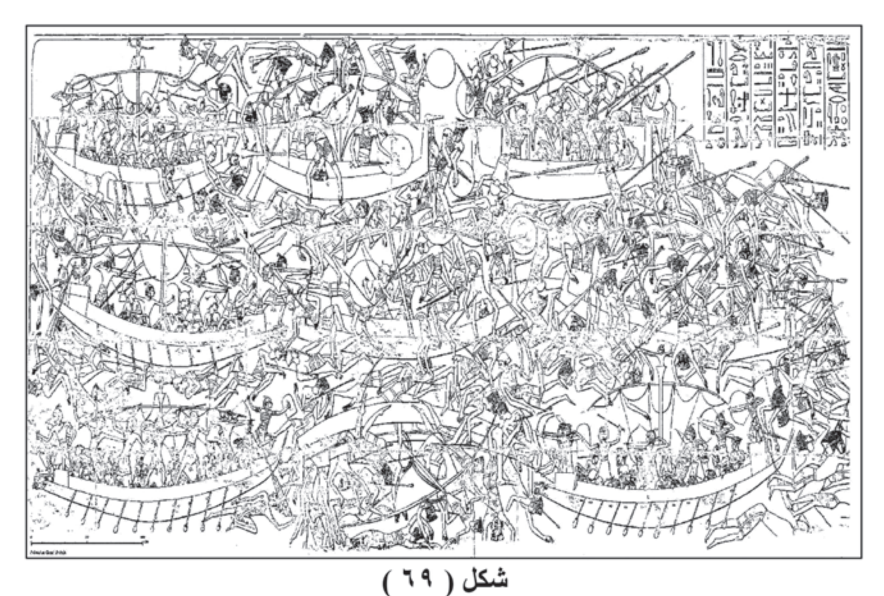
شكل (٦٧)

القتال العنيف بين الجيش المصرى وشعوب البحر الغزاة فى المعركة البرية خلال عصر الملك " رمسيس الثالث " – معبد مدينة هابو



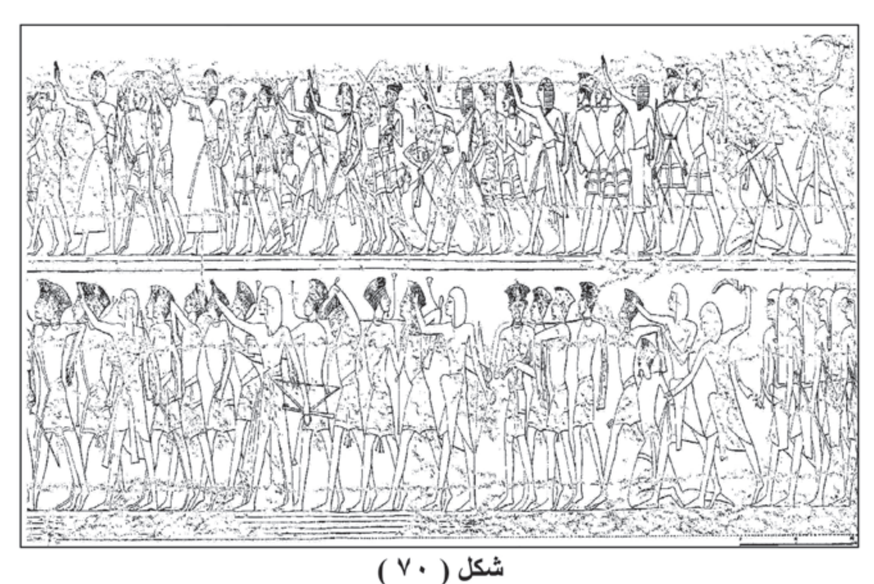
شكل (٦٨)

الملك « رمسيس الثالث » يقود الجيش المصرى لقتال شعوب البحر
فى أول معركة بحرية فى التاريخ – معبد مدينة هابو



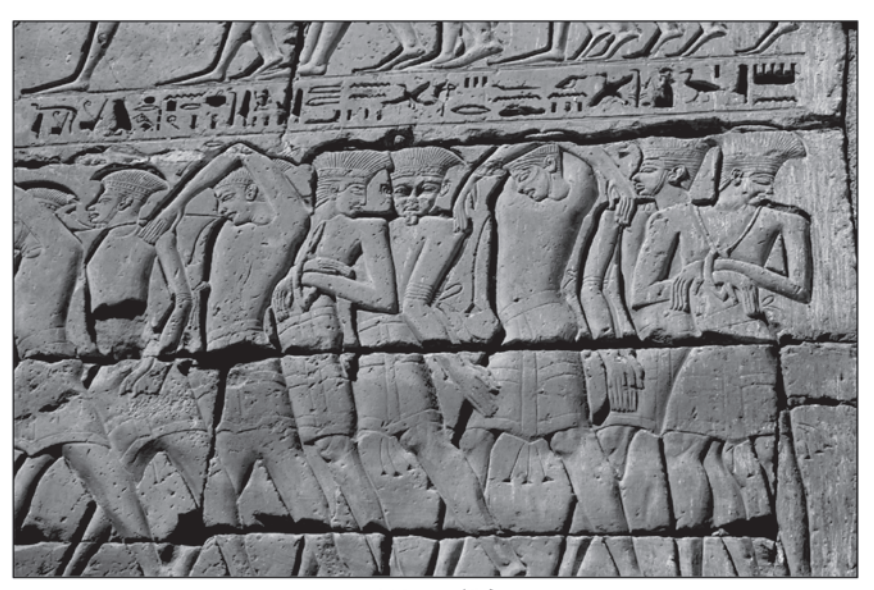
شكل (٦٩)

انتصار الأسطول المصرى على أسطول شعوب البحر الغزاة
فى المعركة البحرية – معبد مدينة هابو



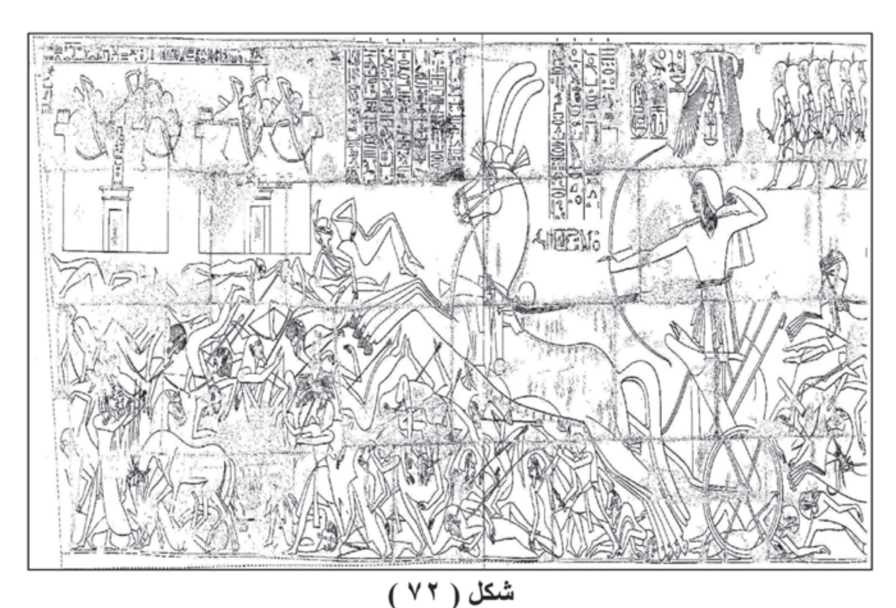
شكل (٧٠)

جنود الجيش المصرى يقودون أسرى شعوب البحر عقب الانتصار عليهم فى المعركة البحرية – معبد مدينة هابو



شكل (٧١)

غزاة شعوب البحر الذين وقعوا أسرى فى أيدى الجيش المصرى بعد هزيمتهم خلال عصر الملك « رمسيس الثالث » – معبد مدينة هابو



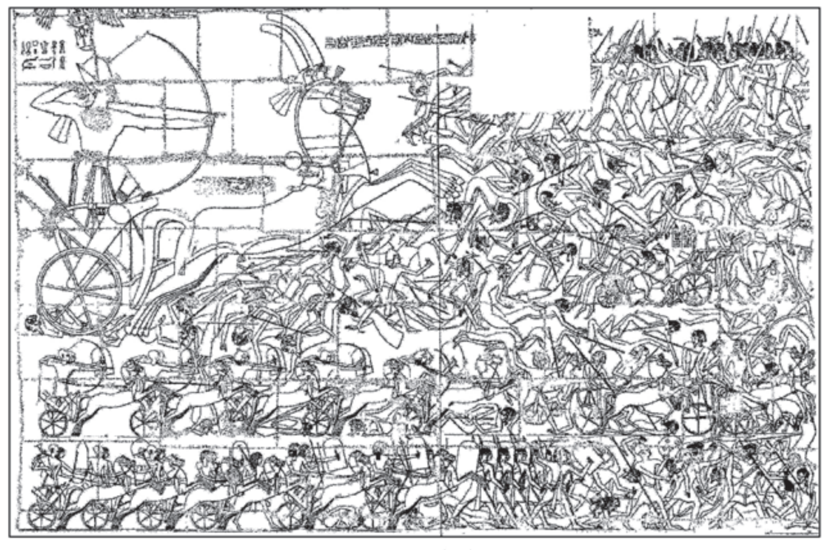
شكل (٧٢)

انتصار المصريين على الليبيين بقيادة " رمسيس الثالث " فى الحرب الليبية الثانية – معبد مدينة هابو



شكل (٧٣)

هزيمة الليبيين أمام الحصون المصرية فى الصحراء الغربية خلال الحرب الليبية الثانية فى عهد " رمسيس الثالث " – معبد مدينة هابو



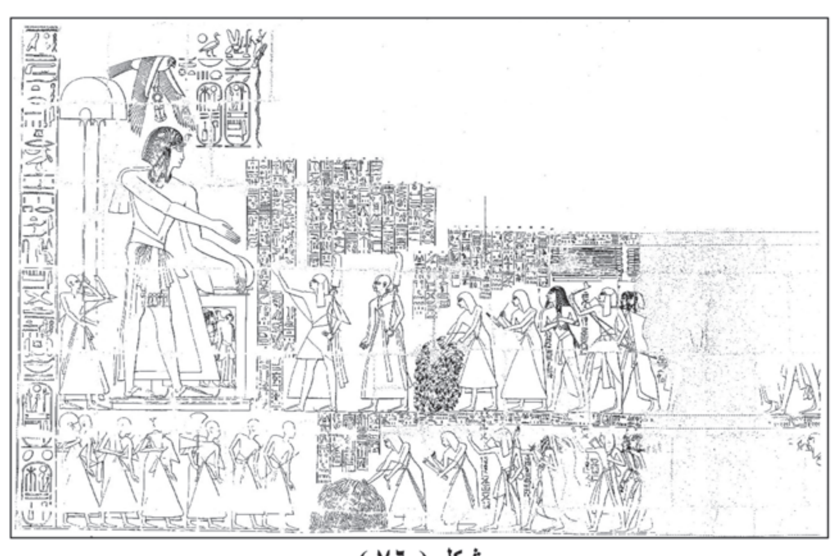
شكل (٧٤)

الملك " رمسيس الثالث " وقوات الجيش المصرى من المشاة والمركبات الحربية والجنود الشردان الأجانب يسحقون الليبيين خلال الحرب الليبية الثانية – معبد مدينة هابو



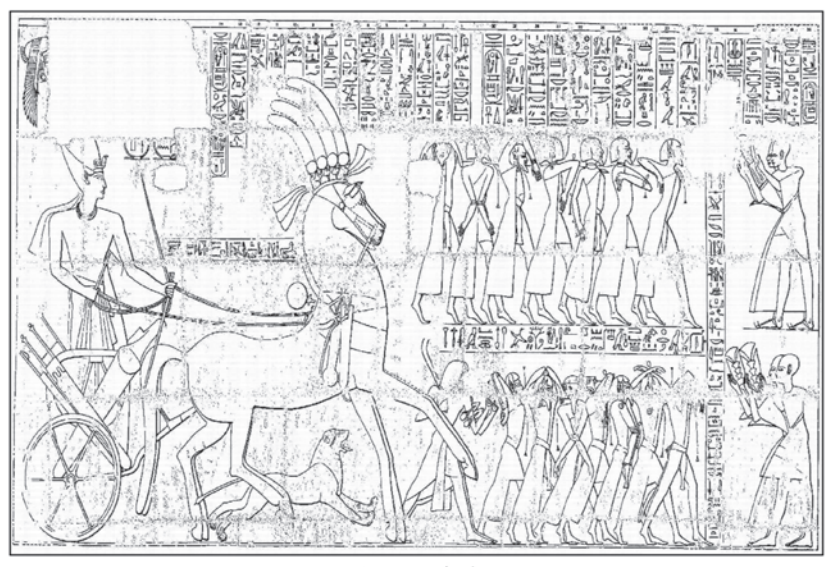
شكل (٧٥)

الملك " رمسيس الثالث " يحتفل بانتصاره على الليبيين فى أعقاب الحرب الليبية الثانية وأمامه صفوف من الأسرى الليبيين – معبد مدينة هابو



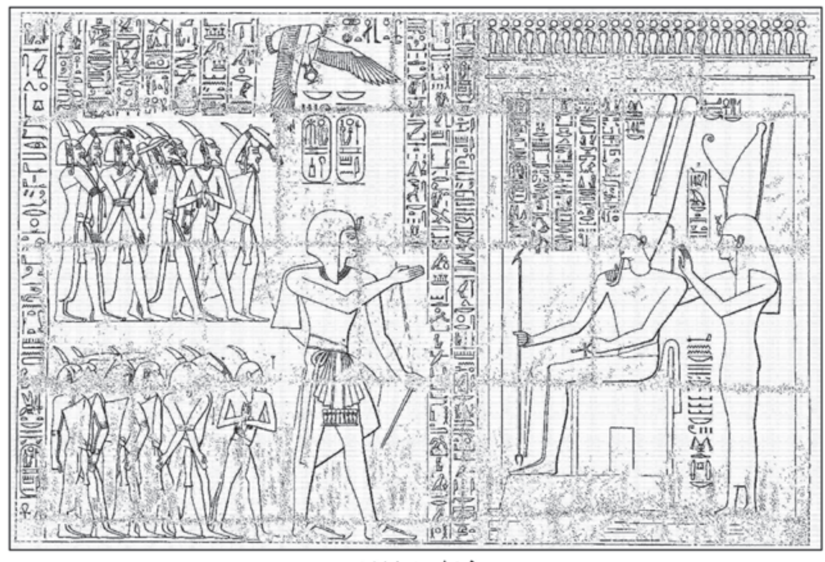
شكل (٧٦)

الملك « رمسيس الثالث » يستعرض الأسرى الليبيين وإحصاء الأيدى المقطوعة وقد حمل إليه الزعيم الليبى أسيرا بعد هزيمته فى الحرب الليبية الثانية – معبد مدينة هابو



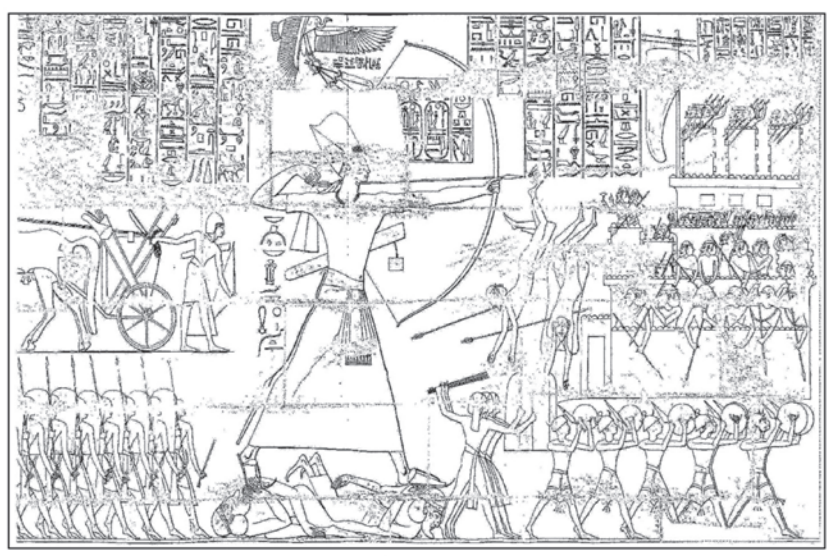
شكل (٧٧)

عودة الملك « رمسيس الثالث » منتصرا من الحرب الليبية الثانية وقد ساق أمامه أسراه من الليبيين – معبد مدينة هابو



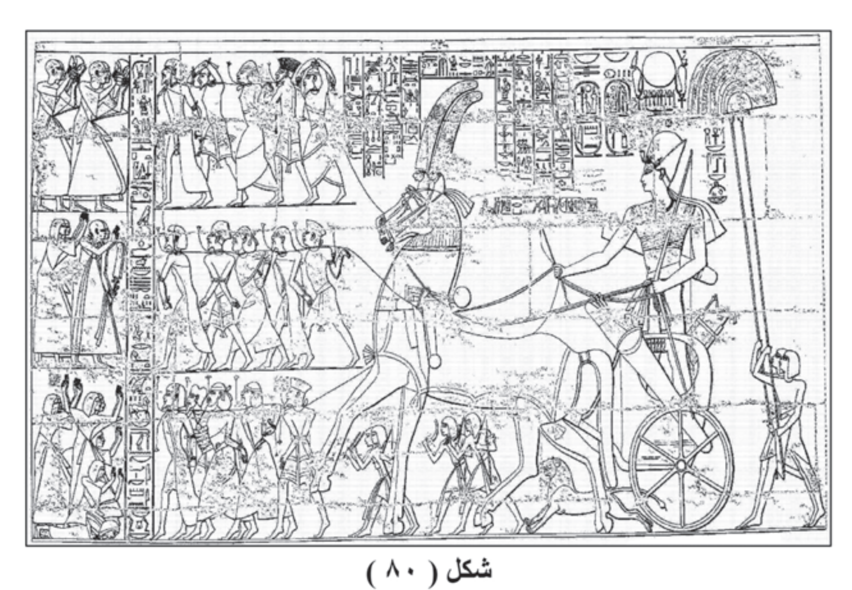
شكل (٧٨)

الملك " رمسيس الثالث " يقدم الأسرى الليبيين إلى أمون وموت ـ معبد مدينة هابو



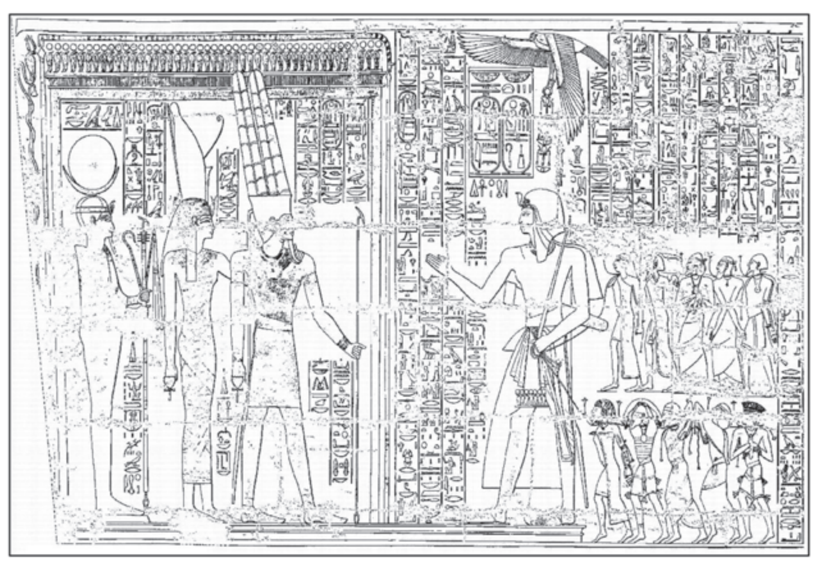
شكل (٧٩)

الملك " رمسيس الثالث " يقود الجيش المصرى وجنوده الأجانب من الشردان للهجوم على إحدى القلاع فى آمورو ـ معبد مدينة هابو



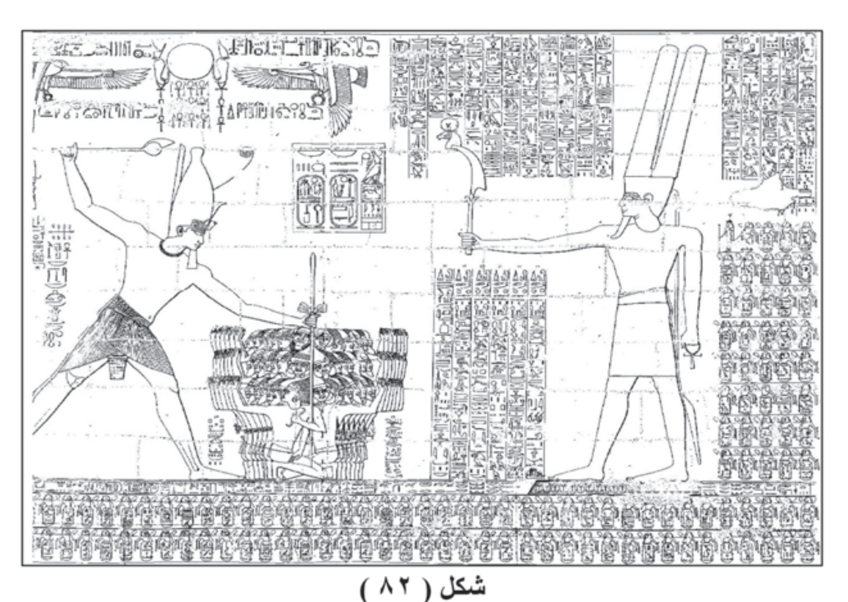
شكل (٨٠)

عودة الملك « رمسيس الثالث » منتصرا من حملته الحربية على آمورو – معبد مدينة هابو



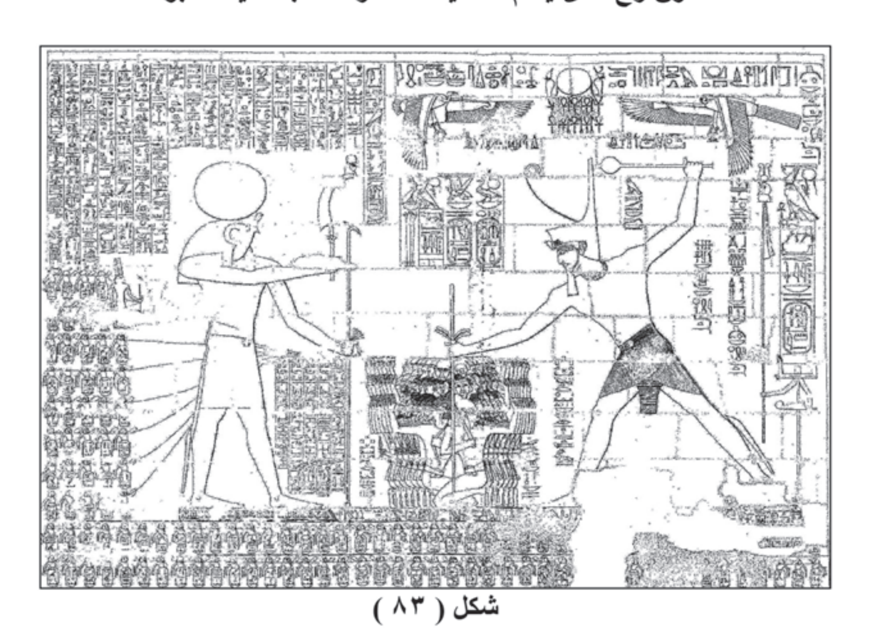
شكل (٨١)

الملك « رمسيس الثالث » يقدم أسراه الذين جلبهم من حروبه الليبية والأسيوية إلى ثالوث طيبة آمون وموت وخونسو – معبد مدينة هابو



شكل (٨٢)

الملك « رمسيس الثالث » يقوم بقمع زعماء البلاد الأجنبية أمام المعبود آمون رع الذى يقدم له سيف النصر – معبد مدينة هابو



شكل (٨٣)

الملك « رمسيس الثالث » يقوم بقمع زعماء البلاد الأجنبية أمام المعبود رع حور آختى الذى يقدم له سيف النصر – معبد مدينة هابو



خريطة (١)

مصـر القديمـة



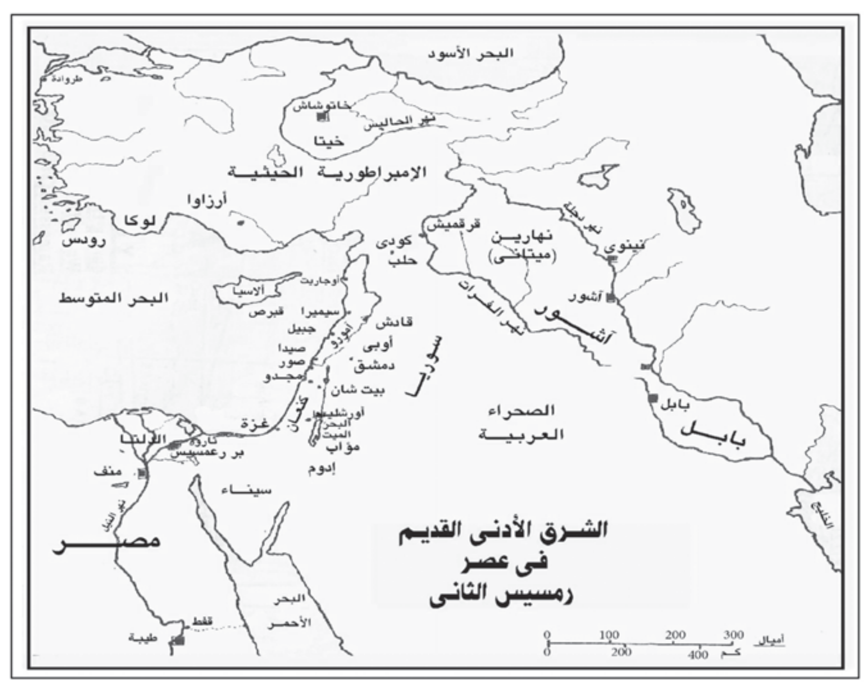
خريطة (٢)

مصر والشرق الأدنى القديم خلال عصر الإمبراطورية



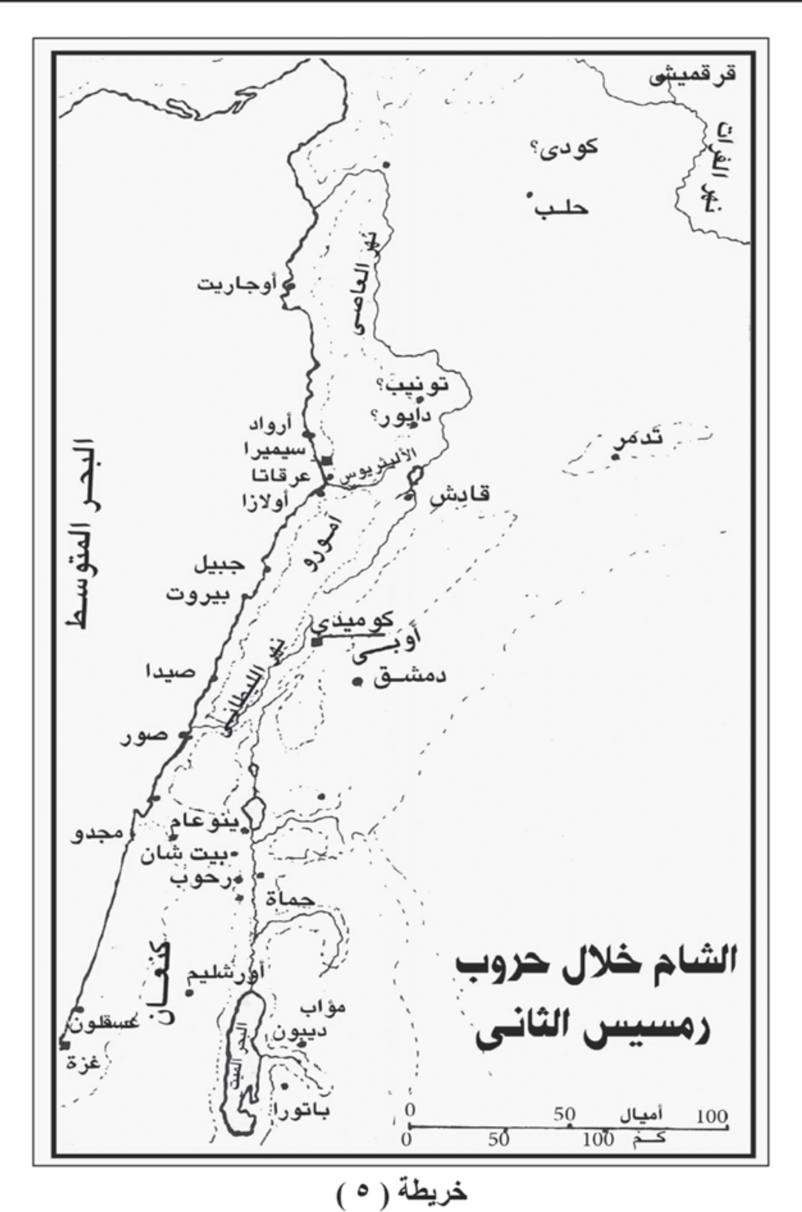
خريطة (٣)

النوبـة خـلال عصـر الرعامسـة



خريطة (٤)

الشرق الأدنى القديم فى عصر « رمسيس الثانى »



خريطة (٥)

الشام خلال حروب « رمسيس الثانى »

قائمة بتاريخ مصر القديمة

قائمة بتاريخ مصر القديمة

عصر ما قبل الأسرات (٥٥٠٠ – ٣١٠٠ ق.م) :

حضارة البدارى (٥٥٠٠ – ٤٠٠٠ ق.م).

حضارة نقادة الأولى (٤٠٠٠ – ٣٥٠٠ ق.م).

حضارة نقادة الثانية (٣٥٠٠ – ٣١٠٠ ق.م).

عصر الأسرات المبكر (٣١٠٠ – ٢٦٨٦ ق.م) :

الأسرة الأولى (٣١٠٠ – ٢٨٩٠ ق.م) :

نعرمر (حوالى ٣١٠٠ ق.م).

عحا (حوالى ٣١٠٠ ق.م).

جر (حوالى ٣٠٠٠ ق.م).

جت (حوالى ٢٩٨٠ ق.م) .

دن (حوالى ٢٩٥٠ ق.م).

مريت نيت (حوالى ٢٩٥٠ ق.م).

عنج إيب (حوالى ٢٩٢٥ ق.م).

سمرخت (حوالى ٢٩٠٠ ق.م).

قع (حوالى ٢٨٩٠ ق.م).

الأسرة الثانية (٢٨٩٠ – ٢٦٨٦ ق.م) :

حتب سخموى (حوالى ٢٨٩٠ ق.م).

رع نب (حوالى ٢٨٦٥ ق.م).

نى نثر.

ونج.

سند.

بر إيب سن (حوالى ٢٧٠٠ ق.م).

خع سخموى (حوالى ٢٦٨٦ ق.م).

عصر الدولة القديمة (٢٦٨٦ – ٢١٨١ ق.م) :

الأسرة الثالثة (٢٦٨٦ – ٢٦١٣ ق.م) :

سا نخت (٢٦٨٦ ـ ٢٦٦٧ ق.م).

زوسر " نثرى خت " (٢٦٦٧ ـ ٢٦٤٨ ق.م).

سخم خت (٢٦٤٨ ـ ٢٦٤٠ ق.م).

خع با (٢٦٤٠ ـ ٢٦٣٧ ق.م).

حونى (٢٦٣٧ ـ ٢٦١٣ ق.م).

الأسرة الرابعة (٢٦١٣ ـ ٢٤٩٤ ق.م) :

سنفرو (٢٦١٣ ـ ٢٥٨٩ ق.م).

خوفو (٢٥٨٩ ـ ٢٥٦٦ ق.م).

جدف رع " رع ددف " (٢٥٦٦ ـ ٢٥٥٨ ق.م) .

خفرع (٢٥٥٨ ـ ٢٥٣٢ ق.م).

منكاو رع (٢٥٣٢ ـ ٢٥٠٣ ق.م).

شبسكاف (٢٥٠٣ ـ ٢٤٩٨ ق.م).

الأسرة الخامسة (٢٤٩٤ ـ ٢٣٤٥ ق.م) :

وسركاف (٢٤٩٤ ـ ٢٤٨٧ ق.م).

ساحو رع (٢٤٨٧ ـ ٢٤٧٥ ق.م).

نفر إير كا رع (٢٤٧٥ ـ ٢٤٥٥ ق.م).

شبس كا رع (٢٤٥٥ ـ ٢٤٤٨ ق.م).

نفر إف رع (٢٤٤٨ ـ ٢٤٤٥ ق.م).

نى وسر رع (٢٤٤٥ ـ ٢٤٢١ ق.م).

منكاو حور (٢٤٢١ ـ ٢٤١٤ ق.م).

جد كا رع (٢٤١٤ ـ ٢٣٧٥ ق.م).

ونيس " أوناس " (٢٣٧٥ ـ ٢٣٤٥ ق.م).

الأسرة السادسة (٢٣٤٥ ـ ٢١٨١ ق.م) :

تتى (٢٣٤٥ ـ ٢٣٢٣ ق.م).

وسر كا رع (٢٣٢٣ ـ ٢٣٢١ ق.م).

ببى الأول " مرى رع " (٢٣٢١ ـ ٢٢٨٧ ق.م).

مران رع (٢٢٨٧ ـ ٢٢٧٨ ق.م).

ببى الثانى " نفر كا رع " (٢٢٧٨ ـ ٢١٨٤ ق.م).

نيت إقرت « نيتوكريس » (٢١٨٤ – ٢١٨١ ق.م).

عصر الانتقال الأول (٢١٨١ – ٢٠٥٥ ق.م) :

الأسرتين السابعة والثامنة (٢١٨١ – ٢١٢٥ ق.م).

الأسرتين التاسعة والعاشرة الإهناسيتين (٢١٦٠ – ٢٠٢٥ ق.م) :

خيتى « مرى إيب رع ».

خيتى « واح كا رع ».

مرى كا رع.

إيتى.

الأسرة الحادية عشرة فى طيبة (٢١٢٥ – ٢٠٥٥ ق.م) :

منتوحتب الأول.

إنيوتف الأول « سهر تاوى » (٢١٢٥ – ٢١١٢ ق.م).

إنيوتف الثانى « واح عنخ » (٢١١٢ – ٢٠٦٣ ق.م).

إنيوتف الثالث « نخت نب تب نفر » (٢٠٦٣ – ٢٠٥٥ ق.م).

عصر الدولة الوسطى (٢٠٥٥ – ١٦٥٠ ق.م) :

الأسرة الحادية عشرة عقب توحيد مصر (٢٠٥٥ – ١٩٨٥ ق.م) :

منتوحتب الثانى « نب حبت رع » (٢٠٥٥ – ٢٠٠٤ ق.م).

منتوحتب الثالث « سعنخ كا رع » (٢٠٠٤ – ١٩٩٢ ق.م).

منتوحتب الرابع « نب تاوى رع » (١٩٩٢ – ١٩٨٥ ق.م).

الأسرة الثانية عشرة (١٩٨٥ – ١٧٩٥ ق.م) :

أمنمحات الأول « سحتب إيب رع » (١٩٨٥ – ١٩٥٥ ق.م).

سنوسرت الأول « خبر كا رع » (١٩٦٥ – ١٩٢٠ ق.م).

أمنمحات الثانى « نب كاو رع » (١٩٢٢ – ١٨٧٨ ق.م).

سنوسرت الثانى « خع خبر رع » (١٨٨٠ – ١٨٧٤ ق.م).

سنوسرت الثالث « خع كاو رع » (١٨٧٤ – ١٨٥٥ ق.م).

أمنمحات الثالث « نى ماعت رع » (١٨٥٥ – ١٨٠٨ ق.م).

أمنمحات الرابع « ماع خرو رع » (١٨٠٨ – ١٧٩٩ ق.م).

سوبك نفرو « سوبك كا رع » (١٧٩٩ – ١٧٩٥ ق.م).

الأسرة الثالثة عشرة (١٧٨٢ – ١٦٥٠ ق.م).

الأسرة الرابعة عشرة (١٧٥٠ – ١٦٥٠ ق.م).

عصر الانتقال الثانى (١٦٥٠ – ١٥٥٠ ق.م) :

الأسرة الخامسة عشرة الهكسوسية (١٦٥٠ – ١٥٥٠ ق.م) :

ساليتيس.

خيان (حوالى ١٦٠٠ ق.م).

إبيبى « عا أوسر رع » (حوالى ١٥٥٥ ق.م).

الأسرة السادسة عشرة الهكسوسية (١٦٥٠ – ١٥٥٠ ق.م).

الأسرة السابعة عشرة الطيبية (١٦٥٠ – ١٥٥٠ ق.م) :

إنيوتف « نوب خبر رع ».

تاعو الأول « سينخت إن رع ».

تاعو الثانى « سقنن رع » (حوالى ١٥٦٠ ق.م).

كامس « واج خبر رع » (١٥٥٥ – ١٥٥٠ ق.م).

عصر الدولة الحديثة (١٥٥٠ – ١٠٦٩ ق.م) :

الأسرة الثامنة عشرة (١٥٥٠ – ١٢٩٥ ق.م) :

أحمس الأول « نب بحتى رع » (١٥٥٠ – ١٥٢٥ ق.م).

أمنحتب الأول « جسر كا رع » (١٥٢٥ – ١٥٠٤ ق.م).

تحوتمس الأول « عا خبر كا رع » (١٥٠٤ – ١٤٩٢ ق.م).

تحوتمس الثانى « عا خبر إن رع » (١٤٩٢ – ١٤٧٩ ق.م).

حتشبسوت « ماعت كا رع » (١٤٧٢ – ١٤٥٨ ق.م).

تحوتمس الثالث « من خبر رع » (١٤٧٩ – ١٤٢٥ ق.م ، حكم منفردا منذ ١٤٥٦ ق.م).

أمنحتب الثانى « عا خبرو رع » (١٤٢٧ – ١٤٠٠ ق.م).

تحوتمس الرابع « من خبرو رع » (١٤٠٠ – ١٣٩٠ ق.م).

أمنحتب الثالث « نب ماعت رع » (١٣٩٠ – ١٣٥٢ ق.م).

إخناتون « نفر خبرو رع وع إن رع » (١٣٥٢ – ١٣٣٦ ق.م).

نفر نفرو آتون « سمنخ كا رع » (١٣٣٨ – ١٣٣٦ ق.م).

توت عنخ آمون « نب خبرو رع » (١٣٣٦ – ١٣٢٧ ق.م).

اى « خبر خبرو رع » (١٣٢٧ – ١٣٢٣ ق.م).

حور محب « جسر خبرو رع » (١٣٢٣ – ١٢٩٥ ق.م).

الأسرة التاسعة عشرة (١٢٩٥ – ١١٨٦ ق.م) :

رمسيس الأول « من بحتى رع » (١٢٩٥ ق.م).

سيتى الأول « من ماعت رع » (١٢٩٤ – ١٢٧٩ ق.م).

رمسيس الثانى « وسر ماعت رع ، ستب إن رع » (١٢٧٩ – ١٢١٣ ق.م).

مرنبتاح « با إن رع » (١٢١٣ – ١٢٠٣ ق.م).

آمون مس « من مى رع » (١٢٠٣ – ١٢٠٠ ق.م).

سيتى الثانى « وسر خبرو رع ، ستب إن رع » (١٢٠٠ – ١١٩٤ ق.م).

سابتاح « آخ إن رع - ستب إن رع » (١١٩٤ – ١١٨٨ ق.م).

تاوسرت « سات رع مريت آمون » (١١٨٨ – ١١٨٦ ق.م).

الأسرة العشرون (١١٨٦ – ١٠٦٩ ق.م) :

ست نخت « وسر خعو رع مرى آمون » (١١٨٦ – ١١٨٤ ق.م).

رمسيس الثالث « وسر ماعت رع مرى آمون » (١١٨٤ – ١١٥٣ ق.م).

رمسيس الرابع « حقا ماعت رع ، ستب إن آمون » (١١٥٣ – ١١٤٧ ق.م).

رمسيس الخامس « وسر ماعت رع ، سخبر إن رع » (١١٤٧ – ١١٤٣ ق.م).

رمسيس السادس « نب ماعت رع ، مرى آمون » (١١٤٣ – ١١٣٦ ق.م).

رمسيس السابع « وسر ماعت رع ، ستب إن رع ، مرى آمون » (١١٣٦ – ١١٢٩ ق.م).

رمسيس الثامن « وسر ماعت رع – آخ إن آمون » (١١٢٩ – ١١٢٦ ق.م).

رمسيس التاسع « نفر كا رع ، ستب إن رع » (١١٢٦ – ١١٠٨ ق.م).

رمسيس العاشر « خبر ماعت رع ، ستب إن رع » (١١٠٨ – ١٠٩٩ ق.م).

رمسيس الحادى عشر « من ماعت رع ، ستب إن بتاح » (١٠٩٩ – ١٠٦٩ ق.م).

عصر الانتقال الثالث (١٠٦٩ – ٧٤٧ ق.م) :

الأسرة الحادية والعشرون (١٠٦٩ – ٩٤٥ ق.م) :

سمندس « حدج خبر رع ، ستب إن رع » (١٠٦٩ – ١٠٤٣ ق.م).

آمون إم نسو « نفر كا رع » (١٠٤٣ – ١٠٣٩ ق.م).
بسوسينس الأول « عا خبر رع ، ستب إن آمون » (١٠٣٩ – ٩٩١ ق.م).
آمون إم أوبت « وسر ماعت رع ، ستب إن آمون » (٩٩٣ – ٩٨٤ ق.م).
أوسركون الأكبر « عا خبر رع ، ستب إن رع » (٩٨٤ – ٩٧٨ ق.م).
سى آمون « نثر خبر رع ، ستب إن آمون » (٩٧٨ – ٩٥٩ ق.م).
بسوسينس الثانى « تيت خبرو رع ، ستب إن رع » (٩٥٩ – ٩٤٥ ق.م).

الأسرة الثانية والعشرون الليبية (٩٤٥ – ٧١٥ ق.م) :
شيشنق الأول « حدج خبر رع ، ستب إن رع » (٩٤٥ – ٩٢٤ ق.م).
أوسركون الأول « سخم خبر رع » (٩٢٤ – ٨٨٩ ق.م).
شيشنق الثانى « حقا خبر رع ، ستب إن رع » (٨٩٠ ق.م).
تاكيلوت الأول (٨٨٩ – ٨٧٤ ق.م).
أوسركون الثانى « وسر ماعت رع ، ستب إن رع » (٨٧٤ – ٨٥٠ ق.م).
تاكيلوت الثانى « حدج خبر رع ، ستب إن رع » (٨٥٠ – ٨٢٥ ق.م).
شيشنق الثالث « وسر ماعت رع » (٨٢٥ – ٧٧٣ ق.م .
بيماى « وسر ماعت رع » (٧٧٣ – ٧٦٧ ق.م).
شيشنق الخامس « عا خبر رع » (٧٦٧ – ٧٣٠ ق.م).
أوسركون الخامس « عا خبر رع ، ستب إن آمون » (٧٣٠ – ٧١٥ ق.م).

الأسرة الثالثة والعشرون الليبية (٨١٨ – ٧١٥ ق.م) :
بادو باست الأول « وسر ماعت رع » (٨١٨ – ٧٩٣ ق.م).
شيشنق الرابع (٧٨٠ ق.م).
أوسركون الثالث « وسر ماعت رع ، ستب إن آمون » (٧٧٧ – ٧٤٩ ق.م).

الأسرة الرابعة والعشرون (٧٢٧ – ٧١٥ ق.م) :
باك إن رن إف « بوخوريس » (٧٢٧ – ٧١٥ ق.م).

العصر المتأخر (٧٤٧ – ٣٣٢ ق.م) :

الأسرة الخامسة والعشرون الكوشية (٧٤٧ – ٦٥٦ ق.م) :
بى « بعنخى » (٧٤٧ – ٧١٦ ق.م).
شباكو « نفر كا رع » (٧١٦ – ٧٠٢ ق.م).

شبتكو « جد كاو رع » (٧٠٢ – ٦٩٠ ق.م).
طهرقا « خو نفرت إم رع » (٦٩٠ – ٦٦٤ ق.م).
تانوت أمانى (٦٦٤ – ٦٥٦ ق.م).

الأسرة السادسة والعشرون الصاوية (٦٦٤ – ٥٢٥ ق.م) :
نكاو الأول (٦٧٢ – ٦٦٤ ق.م).
بسماتيك الأول « واح إيب رع » (٦٦٤ – ٦١٠ ق.م).
نكاو الثانى « واح إم إيب رع » (٦١٠ – ٥٩٥ ق.م).
بسماتيك الثانى « نفر إيب رع » (٥٩٥ – ٥٨٩ ق.م).
إبريس (٥٨٩ – ٥٧٠ ق.م).
أحمس الثانى « خنوم إيب رع » (٥٧٠ – ٥٢٦ ق.م).
بسماتيك الثالث « عنخ كا إن رع » (٥٢٦ – ٥٢٥ ق.م).

الأسرة السابعة والعشرون الفارسية « العصر الفارسى الأول » (٥٢٥ – ٤٠٤ ق.م) :
قمبيز (٥٢٥ – ٥٢٢ ق.م).
دارا الأول (٥٢٢ – ٤٨٦ ق.م).
أكسركسيس الأول (٤٨٦ – ٤٦٥ ق.م).
أرتاكسركسيس الأول (٤٦٥ – ٤٢٤ ق.م).
دارا الثانى (٤٢٤ – ٤٠٥ ق.م).
أرتاكسركسيس الثانى (٤٠٥ – ٣٥٩ ق.م).

الأسرة الثامنة والعشرون (٤٠٤ – ٣٩٩ ق.م) :
أميرتايوس (٤٠٤ – ٣٩٩ ق.م).

الأسرة التاسعة والعشرون (٣٩٩ – ٣٨٠ ق.م) :
نفريتس الأول (٣٩٩ – ٣٩٣ ق.م).
هاكور « خنوم ماعت رع » (٣٩٣ – ٣٨٠ ق.م).
نفريتس الثانى (٣٨٠ ق.م).

الأسرة الثلاثون (٣٨٠ – ٣٤٣ ق.م) :
نكتنبو الأول « خبر كا رع » (٣٨٠ – ٣٦٢ ق.م).

تيوس « إير ماعت إن رع » (٣٦٢ – ٣٦٠ ق.م).

نكتنبو الثانى « سنج إم إيب رع ، ستب إن انحور » (٣٦٠ – ٣٤٣ ق.م).

العصر الفارسى الثانى (٣٤٣ – ٣٣٢ ق.م) :

أرتاكسركسيس الثالث (٣٤٣ – ٣٣٨ ق.م).

أرسيس (٣٣٨ – ٣٣٦ ق.م).

دارا الثالث (٣٣٦ – ٣٣٢ ق.م).

* * * * *

- ملحوظة هامة : كل التواريخ المذكورة بالقائمة قبل عام ٦٩٠ قبل الميلاد هى تقريبية وفقا لآراء علماء المصريات المختلفة ، كما أن فترة حكم بعض الملوك والأسرات كانت معاصرة لبعضها البعض .

القائمة نقلا عن :-

Ian Shaw and Paul Nicholson, *The British Museum Dictionary of Ancient Egypt*, London (1995), pp. 310-312.

الفهـــارس

أولا : المعبــودات

ثانيا : الملــوك

ثالثا : الشخصيات

رابعا : المواقع الجغرافية والأثرية

خامسا : الشعوب والأجناس

سادسا : البرديات والوثائق التاريخية